من الفكر
السياسي
والاشتراكي

أضواء على

الهند الصينية

بقلم : مالكولم سالمون
ترجمة : رفعت السعيد

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

من الفكر السياسى والاشتراكى

أضواء على ..

الهند الصينية

بقلم مالكولم سالمون

ترجمة رفعت السعيد

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

القاهرة - ١٩٦٨

FOCUS

On Indo China

by Malcolm Salmon

المؤلف

مالكولم سالمون

صحفى استرالى . عمل فى الفترة ما بين ١٩٥٨ - ١٩٦٠ مراسلا لصحيفتى « تريبيون » و « الجارديان » فى منطقة جنوب شرقى آسيا .. وكان مستقرا فى هانوى ولكنه زار المنطقة قبل ذلك . فقد عمل بها أثناء الحرب العالمية الثانية .. فى القوات البحرية الاسترالية .

* * *

الكتاب

« أضواء على الهند الصينية » .

كتب فى سنة ١٩٦٠ :

أصدرته بالانجليزية دار النشر باللغات الأجنبية فى هانوى سنة ١٩٦١ .. فى ٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط ..

* * *

كلمة المؤلف

هذا الكتاب يصدر بهدف تجميع أكبر كمية من الحقائق عن تاريخ وحاضر البلدان الثلاثة (ڤيتنام ـ لاوس ـ كمبوديا) فى مجلد واحـــد .. تلك البلدان الثلاثة التى كانت تعرف يوما ما باسم « الهند الصينية الفرنسية » .

ولقد جمعت هذه الحقائق والمعلومات عن تلك البلدان الثلاث خلال عملى الصحفى طوال سنتين ونصف فى هذه المنطقة .. وهذا الكتاب هو مجرد محاولة لاقتسام هذه المعلومات مع هؤلاء الذين لم تتح لهم مثل هذه الفرصة .

وبينما أكتب هذه الكلمات ـ الآن ـ يزداد الموقف فى لاوس تأزما .. بعد أن ظل متأزما طوال السنوات التى تلت توقيع اتفاقيات جنيف ـ الأمر الذى جذب انتباه أنظار كل العالم .

ان طبيعة القوى التى تعمل على مسرح الدول الثلاث تؤكد أننا سوف نشهد سلسلة من « الأزمات » فى تلك البلدان .

وهذا الكتاب محاولة متواضعة للدعوة من أجل ضمان حل سلمى لهذه الأزمات .. حل يكفل المصالح الوطنية لكل من لاوس وڤيتنام وكمبوديا .. حل يتمشى مع اتفاقيات جنيف لسنة ١٩٥٤ .

ولقد استخدمت كلمة « الهند الصينية » للاشارة الى هذه البلدان الثلاثة .. وذلك على الرغم من تأكدى من موت ذلك الشىء الذى كان يسمى « الهند الصينية الفرنسية » وأنه لم يعد له أى وجود سياسى منـــذ أمد طويل .. ولكننى استخدمت هذا الاسم لأنه متداول ومألوف ولأن الوثائق الرسمية التى تصدرها

كل من الدول الثلاث ما زالت تستخدمه دون أن تربطه بماضيه الاستعمارى .. ولأن مؤتمر جنيف ــ الذى تحتاج قراراته الى مزيد من الدعاية بين الجماهير فى كل مكان ــ يعرف على نطاق واسع باسم مؤتمر جنيف للهند الصينية .

ولتسهيل الأمر على القارىء فقد استخدمت أسماء « تونكين » و « آنام » و « شوشين الصينية » للدلالة على وسط شمال الفيتنام وجنوب الفيتنام وقد استخدمتها على وجه الخصوص فى الفصل الخاص بالاحتلال الفرنسى .

وذلك على الرغم من أن هذه الأسماء ــ كما أشرت الى ذلك فى الكتاب ــ لا تعنى أى شىء بالنسبة للفيتناميين .. الذين يسمون هذه المقاطعات باسم « باك بو » Bac Bo « وترنج بو » Trung Bo ، « ونام بو » Nam Bo ، أما اسم تونكين Tonkin ، أى (العاصمة الشرقية) فقد أطلق على هانوى فى القرن السابع عشر .. ليكمل بصورة مصطنعة سلسلة الأسماء بكين (العاصمة الشمالية) ونانكين (العاصمة الجنوبية) . أما اسم شوشين الصينية الذى لا نعرف له أصلا فقد أطلقه الغربيون فى أول الأمر على وسط الڤيتنام .. ثم عادوا فأطلقوه ــ دون ضجة ــ على جنوب الڤيتنام . أما اسم « آنام » وهو مشتق من الكلمة الصينية « الجنوب المسالم » فقد استخدمها الفرنسيون للدلالة على المنطقة الوسطى .. وفى كثير من الأحيان على الڤيتنام كلها (١) .

وفى هذا الكتاب استخدمت هذه الكلمة للدلالة على هذين المعنيين .. أيضا .

وقد استخدمت هذه الأسماء التى أطلقها المستعمرون لا لشىء الا لأنها مألوفة لقراء الانجليزية .. أكثر من تلك الأسماء الڤيتنامية الحقيقية .

---

(١) هذه التفاصيل مقتبسة من كتاب ج. شيزنو J. Chesneaux
Contrbution à L' Histoire de la Nation Vietnamieme.

وأود أيضا أن أذكر انني قد استفدت فائدة كبيرة من كتاب ولفرد بيرشت « مجرى الميكونج الأعلى » .Mekong upstream ، ومن كتاب شيزنو السابق الاشارة اليه وقد استفدت من الكتاب الأخير على وجه الخصوص في تجميع مواد الفصلين الأول والثاني .

مالكولم سالمون

هانوى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٦٠

كلمة أخرى

ان الشهور الستة التى تلت كتابة الكلمة السابقة قد تميزت بتقدم سريع ومتلاحق للأحداث فى هذه المنطقة (١) .

فان أى انسان ـ حتى ولو كان غير منصف ـ ليس بامكانه أن ينكر أن الجمهورية الديمقراطيـة الفيتناميـة التى مضى على تأسيسها ما يقرب من ١٦ عاما والتى تنفذ الآن مشروعها الأول للسنوات الخمس أنها قد ازدادت قوة عن ذى قبل .. وتتقدم بخطى حثيثة ومتلاحقة وبثقة متزايدة لم يسبق لها مثيل من أجل خلق مجتمع اشتراكى متقدم ..

أما تلك الجمهورية التى ((كونتها)) الولايات المتحدة فى جنوب الڤيتنام فانها منذ الزيارة التى قامت بها قذائف الطائرات لحديقة قصر نيجو دين ديم فى نوفمبر سـنة ١٩٦٠ .. منذ ذلك الحين ونضال شـعبها لاسقاط حكم نيجو دين ديم يزداد عنفا واتساعا وحتى هؤلاء الذين كانوا من غلاة المؤيدين لهذا النظام .. يسيطر عليهم اليوم احساس قوى بقرب اندحاره .

وعلى الرغم من أن العالم الرأسمالى لا يتحدث الا قليلا عن اعادة توحيد الڤيتنام .. الا أن هذا التوحيد يعتبر المسـألة الحاسمة فى الهند الصينية .. يعتبر المسألة الحاسمة فى أى محاولة

---

(١) يشير المؤلف الى قيام اثنين من طيارى جيش ڤيتنام الجنوبية بقصف قصر رئيس الجمهورية فى محاولة لاغتياله وأحداث انقلاب معاد للأمريكيين « المترجم » .

لتنفيذ قرارات چنيف حول الهند الصينية التى مضى على توقيعها ما يقرب من سبع سنوات . اذ أن حل هذه المسألة يعنى تحقيق أمل يتوق اليه ثلاثون مليونا من شعب الڤيتنام القوى .. سواء فى الشمال أو فى الجنوب .. وعلى الرغم من اختلاف ظروف كل منهما ..

وتوضح الحالة فى لاوس ـ لكل الناس ـ تلك السرعة الكبيرة التى تتطور بها الأحداث فى الهند الصينية .. فلقد تركز انتباه العالم على لاوس منذ الاطاحة بحكومة سوم سانت فى أغسطس سنة ١٩٦٠ وتكوين حكومة برئاسة الأمير سوفانا فوما ..

ولكى ندرك مدى هذه السرعة التى تتزايد بها القوى التى تعمل من أجل الاستقلال والوحدة الوطنية فى لاوس .. وباختصار من أجل تحقيق قرارات چنيف فى لاوس .. فان علينا أن نقارن بين وضع القوات الوطنية فى لاوس فى منتصف سنة ١٩٥٩ عندما كانت آخر المعاقل المنظمة التى تقاوم النفوذ الامبريالى ممثلة فى (الفرقة الثانية من قوات باتيت لاو) .. كانت قاب قوسين أو أدنى من القضاء عليها .. وبين الوضع الآن فى مارس سنة ١٩٦١ حيث تسيطر حكومة الأمير سوفانا فوما ـ التى تؤيدها باتيت لاو ـ على أكثر من نصف البلاد وتعمل بوضوح من أجل تنفيذ اتفاقيات چنيف .

ولعل هذه الصخرة الجديدة لقوى وحيوية الحركة الوطنية فى لاوس قد تبلورت على أحسن وجه فى ذلك الموقف البطولى الرائع فى تاريخ لاوس .. الموقف الذى اتخذه الكابتن كونج لى القائد السابق لقوات البراشوت (التى دربت وجهزت بواسطة الأمريكيين) بقيامه بانقلاب فى ٩ أغسطس سنة ١٩٦٠ .. وقد اصبح الآن قائدا عاما للقيادة العسكرية المشتركة لقوات الحكومة وجيش باتيت لاو .

ولم تحرز محاولات أمريكا لتكوين وتسليح « ألعوبتها » المتمثلة فى نظام بون آدم وفومى نوساڤان .. لم تحرز سوى قليل من النجاح وليس لها من قيمة سوى انها تمنح أمريكا فرصة ـ هى

فى أشد الحاجة اليها ـ للمساومة فى المفاوضات التى تجرى بشأن لاوس .

ان أية حكومة لا تضم ممثلين لحزب نيو هاكست لاو (باتيت لاو سابقا) لن يكتب لها البقاء .. فان استبعاد هذا الحزب يعنى استبعاد أخلص القوى الوطنية فى لاوس .. وقد نصت على ذلك أيضا اتفاقيات جنيف . ويجب أن توضع هذه المسألة موضع الاعتبار فى المفاوضات الدولية التى تجرى الآن حول مسألة لاوس .. يجب أن توضع فى الاعتبار قبل أية مسألة أخرى فى أذهان كل الذين يهتمون بمصلحة شعب لاوس .

ان السياسة المحايدة التى تنتهجها كمبوديا فى الوقت الحاضر قد زادت من هيبة هذا البلد زيادة كبيرة .. فعلى سبيل المثال كان الأمير نورودوم سيهانوك هو الذى اقترح فكرة المؤتمر الدولى الذى تناقش عواصم العالم الآن مسألة انعقاده . والذى يبدو ـ عند كتابة هذه السطور ـ أنه يعطى فرصة مواتية لاعادة السلام الى لاوس .. واتخاذ خطوة للأمام فى سبيل حل جذرى لكل مشكلات الهند الصينية .

ان الهند الصينية تشكل الآن ـ فى سنة ١٩٦١ ـ صورة صادقة للحركات الوطنية المعقدة والقوية .. التى تسرع نحو انجاز مهمتها انجازا تاما ولن يستطيع تدخل المستعمرين الوقح ولا مؤامراتهم الدبلوماسية ان تنقذ نفوذهم لأمد طويل فى شبه الجزيرة فان شعوب الهند الصينية الثلاثة وقد حنكتها تجارب سنوات الصراع الطويلة تحتل الآن مكانا مرموقا فى صفوف البلدان التى حصلت على استقلالها التام .

انهم يمثلون فى نظر أصدقائهم فى كل أنحاء العالم .. وخاصة فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية .. مثالا يجب أن يحتذى فى طريق التحرر الوطنى .

ولسوف يتحقق الأمل .. ولسوف تندحر محاولات المستعمرين لاشعال نيران الحرب فى الهند الصينية .. اذا ما وقف كل انصار

السلام فى العالم ليطالبوا فى اصرار عنيد .. بتنفيذ اتفاقيات جنيف سنة ٥٤ تنفيذا كاملا ..

ان الدماء التى بذلتها شعوب ڤيتنام ولاوس وكمبوديا فى سبيل الحصول على هذه الاتفاقيات لا يمكن حصرها .. ولذلك فانه يجب أيضا أن تكون الجهود المبذولة الآن للمطالبة بالتنفيذ الكامل لاتفاقيات جنيف .. أكثر من أن تحصر .

م . س

ملبورن . ١٣ مارس ١٩٦١

الفصل
الأول

ممالك العصور الوسطى

- بعثات المبشرين والتجار والغزاة

منطقة جنوب شرقى آسيا

يطلق هـــذا الاسم بشكل عام على البلاد الواقعة فى المنطقة المحصورة بين الصين والهند .. وهى تضم لاوس وكمبوديا والفيتنام وتايلاند وبورما والملايو وأندونيسيا والفلبين .

والعنصر الأساسى الذى يوحد بلدان هذه المنطقة هو أولا وقبل كل شىء المناخ ..

فهذه المنطقة التى تمتد على جانب خط الاستواء تهب عليها الرياح الموسمية .. رياح موسمية محملة بالأمطار .. قادمة من البحر صيفا ورياح موسمية قادمة من القارة شتاء .

وفى دلتا الأنهار حيث نشأت الدول معتمدة على الزراعة القائمة على الرى يتحكم نظام الفصول فى كمية المحصول وأساليب العمل .

والناس جميعا يعرفون أن اقتصاديات جنوب شرقى آســيا تقوم على زراعة الأرز .. لكن القليلين جدا هم الذين يعلمون أن هذه المنطقة ـ نظرا لتوسطها بين الهند والصين ـ ونظرا لانتاجها كميات كبيرة من الذهب والتوابل .. كانت فى العصور القديمة بل وحتى فى العصـــور الحديثة مركزا لنشاط اجتماعى وثقافى كبيرين .

ولقد تمكنت هذه المنطقة بفضل الثروات التى تجمعت لديها من عمليات التجارة وبفضل ارتفاع مستوى الثقافة فيها من أن تستوعب السيطرة الأجنبية دون أن تفقد روحها القومية .. ومن

أن تمنحها آثارا رائعة تعبر عن العبقرية الخلاقة لانسان هـــذه المنطقة .

وأعظم هذه الآثار جميعا وبلا منازع هى انجكوروات فى كمبوديا وبور وبودور فى اندونيسيا .. وثمة آثار أخرى عظيمة مثل برج لاوس الذى وقف شامخا كظل تتوج هامته الأشجار .. أو مثل المبنى العظيم الذى أقامه الفيتناميون فى دلتا النهر الأحمر .

وتعتبر منطقة جنوب شرقى آسيا من أقدم المناطق التى استقر فيها الانسان ، وخير تأكيد لهذه الحقيقة هو اكتشاف جمجمة للانسان البدائى فى جاوة .

ان المنطقة التى تقوم عليها الآن الأمم الحديثة لكل من فيتنام ولاوس وكمبوديا كانت مهدا لحضارة تمتد جذورها حتى العصر الحجرى . أما الملوك الأسطوريون لفيتنام ــ الذين كانوا يولدون كما تقول الأسطورة من كيس أسطورى يحتوى على مئات من البيض ــ فقد أقاموا حكمهم خلال العصر البرونزى .

وعندما انقشعت الغيوم عن حقائق الماضى بعد اكتشاف وصف للمنطقة كتبه المؤرخون الصينيون منذ ألفى عام .. تبين أنه عند كتابة هذا التاريخ أى منذ ألفى عام كانت منطقة جنوب شرقى آسيا قد استقرت مكونة حضارة مستقلة تفصل ما بين الهند والصين .

ولقد قامت كل من الهند والصين بغزو شبه جزيرة الهنـــد الصينية فى غزوتين رئيسيتين .. أما الغزوة الصينية فقد كانت حوالى عام ٣٠٠ قبل الميلاد .. حيث قامت أول مملكة فيتنامية فى المنطقة التى توجد فيها الآن فيتنام الجنوبية .. أما الغزوة الأخرى فقد تعرضت لها دولة فونان حيث توجد الآن كمبوديا . وبين هذين العاملين اللذين يحمل كلاهما طابع مدينة آسيوية عريقة

نشأت مملكة شامبا التى يحتمل أنها نبتت من أصل أندونيسى لكنها كانت متأثرة الى حد كبير بالحضارة الهندية (١) .

ولست أنوى فى هذا الكتاب أن أتحدث بالتفصيل عن نشوء وسقوط دول جنوب شرقى آسيا خلال القرون التى تتابعت قبل الغزو الأوربى للمنطقة . لكننا مع ذلك يمكننا أن نذكر الممالك التى نشأت فى جاوه والملايو وبورما وشامبا وكمبوديا وسيام وفيتنام ولاوس التى لعبت دورها كقوى مستقلة خلال العصور الزاهرة التى عاشتها منطقة جنوب شرقى آسيا قبل أن تسقط جميعا واحدة بعد الأخرى تحت وطأة العدوان الغاشم القادم من الغرب .

.. يجب أن نتذكر هذه الممالك .. فهذه مسألة ضرورية ونحن نواجه الآن تلك المسميات المدعاة أمثال « جزر الهند الغربية » و « الهند الصينية الفرنسية » وغيرها من المستعمرات البريطانية ..

ان مؤرخى المستقبل الذين سيهتمون بدراسة تاريخ منطقة جنوب شرقى آسيا لن يجدوا فى كل هذه الحقبة التى سيطر فيها المستعمرون على المنطقة سوى مجرد فترة طويلة من الزمن تفصل ما بين مرحلتين من الدول السياسية المستقلة وجدت فى هذه المنطقة .

والحقيقة أن كل ممالك جنوب شرقى آسيا قد ظلت بشكل

---

(١) لقد قامت مملكة شامبا فى المنطقة التى توجد فيها الآن فيتنام الجنوبية .. وقد استمرت قائمة طوال ١٥٠ سنة حتى اختفت من فوق الخريطة تحت وطأة غزوات لا نهاية لها من جانب جيرانها وبسبب عدم قدرتها على تطوير نظامها الاجتماعى القائم على العبودية . ولا تزال توجد فى فيتنام حتى الآن أقلية قومية هى « شامز » التى تتكون من حوالى ٣٠٫٠٠٠ نسمة ينحدرون من سلالة هذه المملكة العظيمة .

أو بآخر تدفع الجزية « للمملكة الوسطى » الصينية التى كانت تعتبر القوة الأساسية فى آسيا كلها .

ولقد استمرت هذه الجزية تدفع سواء كانت الحضارة الصينية هى التى تلعب الدور الرئيسى فى المنطقة أو كانت الحضارة الهندية هى التى تلعب هذا الدور . بل ان مملكة فوتان بالرغم من النفوذ الفائق للحضارة الهندية عليها ــ قد ظلت هى الأخرى تدفع الجزية للصين ..

وكان الأمر كذلك بالنسبة لبورما أيضا .

ان مجرد نظرة سريعة على تاريخ جنوب شرقى آسيا توضح للمرء مصدر كثير من الملامح السياسية للوضع الراهن فى المنطقة . فعلى سبيل المثال نجد أن الفكرة الرئيسية التى يقوم عليها حلف جنوب شرقى آسيا هى انه من الممكن توحيد كل دول جنوب شرقى آسيا وتعبئتها ضد الصين .. فى محاولة خرقاء لاحياء العداء التاريخى القديم .

فمن الذى يمكن أن يصدق الآن أن المصالح المباشرة أو حتى المصالح البعيدة المدى لبلد مثل لاوس يمكن أن تتحقق عن طريق سياسة معادية للصين ؟

ان الحاجة الى قيام علاقات طيبة بين بلدان هذه المنطقة وبين الصين تشكل عاملا حاسما فى حياة دول جنوب شرقى آسيا ..

انه عامل حاسم لا يمكن له أن يتغير .. لا فى « العصر الأمريكى » ولا فى غيره ..

فيتنام ، لاوس ، كبموديا

تقع كل من فيتنام ولاوس وكمبوديا فيما بين خطى العرض ٨ر٣٠ و ٢٢ر٣٠ وخطى طول ١٠٢ ، ١٠٩ .

والطبيعة الجغرافية لشبه جزيرة الهند الصينية هى التى تحدد الجغرافية البشرية لهذه البلدان الثلاثة .. فالمرتفعات ذات الأشجار الكثيفة كانت ملجأ طبيعيا للجماعات البشرية المتناثرة التى انحدرت من سلالة السكان الأصليين والتى طوردت رويدا رويدا نحو المناطق الجبلية بواسطة جماعات قوية من الغزاة .. وهكذا ينقسم سكان الاقليم .. الى سكان الجبال وهم يشكلون أقليات قومية فى تلك البلدان .. أما دلتا الأنهار ووديانها فقد استقرت فيها الأجناس الأكثر عددا والتى وصلت الى هذه المنطقة فى مرحلة تاريخية لاحقة .

وهكذا فان كل بلد من هذه البلدان الثلاثة ينقسم الى عالمين .. عالم أغلبية السكان .. وعالم .. أو اذا شئنا الدقة — عدة عوالم صغيرة من الأقليات . ومحاولة سد الهوة العميقة التى تفصل بين هذين العالمين تمثل مشكلة ملحة وأساسية فى كل من البلدان الثلاثة .. وترتبط بهذه المشكلة ارتباطا وثيقا مشكلة انهاء ذلك الانعدام فى التوازن فى توزيع السكان فهم يزدحمون فى دلتا الأنهار على حين تقل كثافتهم بشكل كبير فى المناطق الجبلية (١) .

أما أنهار شبه الجزيرة فانها لا تمثل على الاطلاق معبرا نحو داخل البلاد .. ولعل هذه الظاهرة تمثل واحدة من أهم القسمات التى تميز الوضع فى شبه جزيرة الهند الصينية سواء عن الهند أو الصين .. فبالرغم من طول هذه الأنهار .. فنهر الميكونج مثلا

---

(١) وتوضح الأرقام التالية التى جمعها المؤلف بنفسه خلال زيارته لمنطقة دين بيان فو فى فيتنام الشمالية فى منتصف ١٩٦٠ .. توضح بعض الشىء حقيقة مشكلة الأقليات وتعقدها فى المناطق الجبلية فى الهند الصينية ففى هذه المنطقة كان هناك ١٦ر١٨٦ من جنس التاهى ، ٥٧٧٣ من الماو ، ٢٨٨٣ اكسا ، ١١٦٧ لاوسيين ، ١٠٨٥ من كنا (والكنا هم الذين يشكلون أغلبيــة سكان الفيتنام و ٢٤٧ بوك ، ١٦٤ تهو ، ١٢٣ نانخ ، ١٠ مونج ، ٤ بونج ، ١ مان ، ١٤٠ من القوميات الصينية .

أطول بكثير جدا من نهر الجانج وكذلك النهر الأحمر فهو أطول بكثير أيضا من نهر يانجنس الا أن هذين النهرين العظيمين لا يمثلان على الاطلاق سواء فى المجرى الأوسط أو الأعلى لكل منهما أى عامل توحيدى بالنسبة لشبه الجزيرة .. على حين كانت دلتا النهر وحدها هى مهد الأمة .

ففى دلتا النهر الأحمر استقرت الأمة الفيتنامية وفى دلتا الميكونج استقرت الأمة الكمبودية .

والحقيقة أن نظريات كثيرة قد ترددت حتى الآن حول الأصل الذى نبع منه الشعب الفيتنامى .. لكن أحدث الاكتشافات التى توصل اليها المؤرخون الفيتناميون أنفسهم تؤكد أن الفيتناميين من أصل اندونيسى وأن اكتشاف جماجم عديد من الأجناس مثل البابوانز والميلانسانز ، والنجريتوس والأندونيسيون مدفونة فى أماكن متفرقة من شمال الفيتنام .. يؤكد النظرية القائلة بأن شمال الفيتنام ـ كان منذ أمد طويل جدا ـ ملتقى لتجمع عديد من الأجناس .. كانت الغلبة الواضحة فيها للعنصر الأندونيسى .

وفيما بعد وكنتيجة طبيعية للاختلاط بشعب الهان القادم من الشمال فان الفيتناميين القدامى قد تأثروا أبلغ التأثر بالعناصر الوراثية والحضارية لشعب الهان لكنهم على أية حال لم يذوبوا داخل شعب الهان بل ظلوا شعبا متميزا له حضارته المتميزة ولغته الخاصة به . وأيا كان الأمر فانه من المؤكد أن الشعب الفيتنامى يشكل الآن أكثر من ٨٠٪ من مجموع سكان البلدان الثلاثة . (حوالى ٣٠ مليونا من مجموع السكان البالغ عددهم ٣٨ مليونا)(١) .

---

(١) يدل الاحصاء الذى أجرى فى جمهورية فيتنام الديمقراطية فى ١ مارس ١٩٦٠ أن عدد سكان هذا القسم من البلاد ١٥٫٩ مليون نسمة . أما بالنسبة لتعداد سكان لاوس وكمبوديا فان هناك تقديرات متفاوتة تفاوتا كبيرا لكن الأرقام المقبولة لدى الغالبية تقول ان عدد سكان كمبوديا حوالى ٥ ملايين ولاوس حوالى ٣ ملايين .

وتمثل هذه الحقيقة ركنا أساسيا وضروريا لأية محاولة لفهم الأحداث فى الهند الصينية .

أما اللاوسيون فهم من سلالة جنس التاهى .. الذى هاجر من جنوب الصين منذ قرون عديدة منتشرا فى اتجاهات رئيسية ثلاثة .

المجموعة الأولى مملكة سيام ، على حين اتجهت المجموعة الثانية شرقا حيث استقر جزء منها فى فيتنام مكونا حتى الآن واحدة من أكثر الأقليات القومية أهمية ثم اتجه الجزء الآخر الى لاوس مكونا جنسا يمثل فيها الآن أغلبية السكان هو جنس لاولم .

لكن الآن لا تزال منقسمة على نفسها فيما يتعلق بأصل سكان كمبوديا .. فهناك نظرية تقول : ان الأسلاف القدامى للكمبوديين قد قدموا من الهند .. وثمة نظرية أخرى تقول : ان الكمبوديين من أصل أندونيسى متأثر بالحضارة الهندية .

ويذكر التاريخ ان أسلاف الكمبوديين الحاليين (الكامير) قد قاموا بانتفاضة فى القرن السابع أدت الى تحلل مملكة فونان القديمة والى تأسيس دولة كامباشا التى أصبحت واحدة من أقوى ممالك الهند الصينية فى العصور الوسطى .

والمخطوطات اللاوسية والكمبودية القديمة تنحدر مثلها مثل مخطوطات بورما وسيام من السنسكريتية القديمة . أما بالنسبة للفيتناميين فثمة مخطوط قديم يعود تاريخه الى أيام شو ـ لوم عثرت عليه بعض الارساليات البرتغالية والفرنسية فى القرن السابع عشر وهو يوضح تأثر المخارج الصوتية للغة الفيتنامية بالأسلوب الصينى .

وبالرغم من أن الخريطة الدينية للبلدان الثلاثة معقدة غاية التعقيد الا أن البوذية تمثل العقيدة السائدة فيها جميعا .

وفى لاوس وكمبوديا حيث تلعب البوذية فى الحياة القومية للبلدين دورا أكبر بكثير مما تلعبه فى فيتنام تسود عقيدة هينايانا « وهى الاتجاه الأقل انتشارا فى العقيدة البوذية » على حين تسود فى فيتنام الماهايانا وهى الاتجاه السائد وسط البوذيين .

فيتنام : هبات الفلاحين .. وحروب الفلاحين

ويؤكد المؤرخون أن الفيتناميين قد عاشوا ـ فيما بعد العصر الأسطورى ـ أربعة آلاف سنة من الحضارة والمدنية .

لكن التاريخ يذكر أن أول دولة قامت على أرض الفيتنام هى دولة أولارك (٢٨٥ ق . م) لكن هذه الدولة لم تستمر طويلا اذ سرعان ما ابتلعتها ولاية اسمها « نام فيت » كانت تسيطر على مقاطعتى كواتجس وكوانج الصينيتين ثم ما لبثت الفيتنام أن خضعت لحكم أسرة الهان الصينية فى ١١١ ق . م . واستمر احتلال الصين للفيتنام ألف سنة .

ومن خلال هذه العلاقة التى استمرت طوال ألف عام نبعت قسمتان أساسيتان تركتا آثارهما على تاريخ كل من البلدين .

فمن ناحية .. تعلم الفيتناميون من الصينيين التكنيك الزراعى المتقدم والفكر الكونفشيوسى وأشكال الحكم والنظم الاجتماعية عندهم .

ومن ناحية أخرى .. نجد أن الفيتناميين قد حاربوا دون هوادة ضد سيطرة الاقطاعيين الصينيين . حتى الاقطاعيين الفيتناميين التى استندت الى العون الصينى فى قهرها لشعب الفيتنام كانت تحارب هى الأخرى ، وفى نفس الوقت فى سبيل الاستقلال عندما حاول الصينيون فى فترة ازدهار « المملكة الوسطى » فرض حكمهم المباشر على فيتنام .

وأول هذه الحروب وأكثرها شهرة .. هى تلك الحروب التى قادتها « الأخوات ترنج » وهن زوجات بعض حكام دلتا النهر الأحمر فى سنة ٣٩ ميلادية وقد انتحرن عقب قمع ثورتهن .. وفى ١٩٥٦ وعندما زار شواين لاى فيتنام قام بزيارة المعبد المقام فى شارع دونج ناهان بهانوى تخليدا لذكرى « الأخوات ترنج » وذلك تعبيرا عن الرابطة بين شعبى البلدين .

وثمة هبات أخرى قوية قامت فى القرن الثالث والسادس والثامن .. وهناك أيضا تلك الهبة التى قادها نجوكواين فى سنة ١٩٣٩ أثناء المجاعة القاسية التى عمت البلاد فى أعقاب سقوط أسرة تانج الصينية .. وقد مكنت هذه الهبة من تكوين دولة فيتنامية مستقلة .

والحقيقة أن هناك قسمتين أساسيتين تميزان كل تاريخ هذه الدولة الفيتنامية المستقلة .. هما انتفاضات الفلاحين ومقاومة الاحتلال الأجنبى .

ان الفيتنام الاقطاعية قد استعارت الكثير من الصين .. واستعارت ضمن ما استعارت بذور التناقضات والتحلل الحتمى التى كانت تسود النظام الاجتماعى للصين الاقطاعية .

وكثيرا ما يثور السؤال التالى .. لماذا كانت جماهير الفلاحين فى الفيتنام على استعداد دائما لحمل السلاح .. والثورة ؟

وعلى هذا السؤال يجيب الأكاديمى أ . سيشيرنيز بقوله : « فى الفيتنام مثلها مثل كل البلاد الأخرى كانت توجد طبقة من المحافظين .. وطبقة من الرجال المعدمين .. الرجال المستعدين لعمل أى شىء .. ان تنظيم القرية الفيتنامية يؤدى الى وجود جموع يطحنها الاستغلال .. يطحنها نظام المشاركة الذى لا يقدم

لها أية فائدة سوى مجرد أن تحيا .. أن تحيا كى توفى بالتزاماتها تجاه السيد المالك .. ومثل هذه الجموع المعدمة تمثل احتياطيا هائلا للبردلشياريا وهى متحمسة تماما للنضال من أجل ظروف أفضل .. وهى مستعدة تماما للمخاطرة بأى شىء .. فليس لديها أى شىء تخشى أن تفقده » .

لقد كانت جمـــوع الفـــلاحين هى المحرك الحقيقى للتاريخ الفيتنامى .. فهى اذ تساق الى الموت جموعا كلما ساءت حـالة المحصول .. لم يكن أمامها سوى أن تندفع قدما فى الطريق الوحيد المفتوح أمامها طريق الهبة المسلحة .

ومن صفوف الفلاحين خرج هؤلاء الجنود الذين خاضوا من أجل استقلال الفيتنام وضد العدوان الأجنبى عديدا من المعـارك البطولية .

ولعل أكثر الحروب التى قامت فى عصر الاقطاع شهرة .. هى تلك الحروب التى اشتعلت فى الربع الأخير من القرن الحادى عشر تحت قيادة لاى ثونج كيت ضد أسرة سانج الصينية والحرب المظفرة التى قادها القائد الفيتنامى العظيم تران هانج دا وفى نهايات القرن ١٣ ضد الزحف المنغولى المروع بقيادة قبلاى خان والحرب التى شنها الفيتناميون فى بداية القرن ١٥ تحت قيادة لى ليو ضد أسرة مينج وكذلك النصر المظفر الذى حققه الامبراطور الفيتنامى كوانج ترنج فى القرن ١٨ ضد أسرة شينج الصينية (المانشو) .

والحقيقة أن ترونج شينه كان على صواب تماما عندما كتب فى عام ١٩٤٧ .. وبعد عام واحد من حرب المقاومة يقول :

« ان هذه المقاومة قد زادت من هيبتنا فى أعين العالم .. وهى استمرار متطور للتقاليد النضالية لآبائنا الذين أظهروا براعة فائقة

فى التاكتيك والاستراتيجية وفى سرعة الحركة وقوة توجيه الضربات .

وتحت قيادة البطل الوطنى الرئيس هوشى منه نواصل استلهام دروس تاريخنا وتاريخ غيرها من البلدان .. لسوف نحول الهزيمة الى نصر .. » .

وهكذا فان لجوء الفلاحين الى حرب العصابات قد ظل طوال ألفين من السنين السمة المميزة لتاريخ فيتنام .

ويبدو أن الجنرال ليكرك رئيس البعثة الفرنسية والذى قاد القوات الفرنسية العائدة الى شمال فيتنام فى أعقاب اتفاقية ٦ مارس ١٩٤٦ يبدو أن هذا الجنرال كان يتمتع بحاسة تاريخية لم يكن يتمتع بها هؤلاء المسئولون عن رسم السياسة الفرنسية فى حرب الهند الصينية .. ولا هؤلاء الذين يخططون سياسة البنتاجون أو حلف جنوب شرقى آسيا .

فقد كتب الدبلوماسى الفرنسى جين سانتنى عن ليكرك يقول :

« لقد أدرك على الفور حقيقة الخطر الذى تشكله هذه الحكومة الفيتنامية التى أخلت هانوى كى تشن من جديد حرب المقاومة ضد الاحتلال الفرنسى من قاعدة بعيدة أقاموها فى مكان ما وسط المناطق الجبلية » .

ان قوات هوشى منه تستند الى تراث ألفى سنة من النضال .. أليس هذا كافيا للانتصار ؟

ولقد شهدت القرون التى تلت تأسيس الدولة المستقلة لفيتنام المستقلة بواسطة نيجو كواين تطورا هائلا فى شتى المجالات ..

فبالرغم من الحروب وتعرض البلاد للغزو .. وهبات الفلاحين المتلاحقة فقد أمكن للحضارة العظيمة التى نشأت فى دلتا النهر

الأحمر أن تشق القنوات ومجارى المياه وأن تمهد وتصلح كثيرا من الأراضى .. وفوق كل ذلك أمكنها أن تندفع بهذه الحضارة نحو جنوب الفيتنام .. ولم ينته ذلك . « الزحف نحو الجنوب » الذى يعتبر فى حد ذاته احدى السمات المميزة لتاريخ الفيتنام .. لم ينته الا فى القرن الثامن عشر .. عند تأسيس دولة الفيتنام الموحدة ..

وقد بلغ مجتمع فيتنام الاقطاعية قمة تطوره خلال فترة حكم الامبراطور لى ثان تونج فى القرن الثامن عشر .. وقد كتب المؤرخ الفرنسى ج شيزنو « فى الوقت الذى كانت فرنسا تحاول فيه أن تسترد أنفاسها عقب حروب المائة عام .. وفى الوقت الذى كانت فيه انجلترا تعانى من حروب الوردتين الوحشية .. كانت فيتنام فى ظل امبراطورية « لى » الأول تعيش بعيدا جدا عن البربرية » .

وبفضل جهود شو ــ توم ، شهد القرن الثالث عشر ظهور اللغة الفيتنامية التى أحرزت تطورا كبيرا خلال حكم لى ثان تونج فقد كان هذا الامبراطور مغرما بالأدب واحاطة نفسه « بأكاديمية من ٢٨ شاعرا » يمثلون ألمع شعراء بلاطه .. وبدأ الأدب لأول مرة يعكس تفاصيل الحياة اليومية للناس وخاصة فى القصص التى كتبها شو ــ توم .

لكن هذا الازدهار الذى عاش فيه البلاط الامبراطورى قد أدى أيضا الى تدعيم العلاقات الاجتماعية الاقطاعية فى البلاد ، تلك العلاقات التى كانت قد اهتزت تحت ضربات حرب التحرير التى شنت ضد أسرة مينج ، فبعد الحرب توصلت الطبقة الحاكمة الى تجريد الفلاحين من أراضيهم . بل انها دعمت علاقاتها مع أعداء الأمس .. فالامبراطور لى ليو أول أباطرة أسرة لى .. والذى قهر جيوش أسرة مينج ، ما لبث أن أرسل ضمن أول جزية سنوية

أرسلتها فيتنام المستقلة الى الصين تمثالين ضخمين من الذهب الخالص للقائدين الصينيين اللذين قتلا خلال الحرب .

ولم يكن فلاحو الفيتنام وحدهم هم الذين أحسوا بأهميـــة استرداد الاقطاعية لأنفاسها .. ففيتنام كانت قد برزت فى ذلك الحين كدولة قوية فى جنوب شرقى آسيا وقد تميزت فترة حكم لى ثان تونج (١٤٦٠ — ١٤٩٧) بتعطش شديد للتوسع جنونا . فانتقم الفيتناميون للهجمات المستمرة التى طالما شـــنها الشامبا ضدهم .. ووسعت فيتنام من رقعتها حتى امتدت فشملت المنطقة التى تكون الآن جنوب فيتنام الوسطى وتوســـعوا غربا موجهين حملاتهم ضد منطقة لاوس .. حتى أعلن حكامها خضوعهم لفيتنام .

لكن نهوض فيتنام تحت حكم أباطرة أسرة لى قد تبعه انقسام مروع فى القرن ١٦ والقرنين التاليين له أدى الى استنزاف قوى جماهير الفلاحين وأدى أيضا الى تدهور حقيقى فى تطور الأمة . فالمنافسة بين امارة ماك وأسرة ترينه قد أدت الى مصادمات دموية فى شمال البلاد فى القرن السادس عشر .. وتبعتها حروب دموية متتالية بين أسرة ترينه فى الشمال وبين نيجوين فى الجنوب استمرت طوال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

ولقد كان هذا الصدام بين أسرتى ترينه ونيجوين هو أول صدام فى تاريخ العلاقات بين شمال وجنوب فيتنام .

لقـــد انحدرت أسرة نيجوين من سلالة حكام مقاطعة نيجوين هوانج المكروهين وكونوا لأنفسهم ولاية مستقلة جنوبى وسط فيتنام ومن هذا الموقع شنوا حربهم ضد أسرة ترينه الحاكمة فى هانوى والتى كانت تتمسك بأنها الوريث الشرعى لعرش أسرة لى . كما أن أسرة نيجوين قد واصلت لعدة قرون الزحف نحو الجنوب ..

لكن الوحدة عادت من جديد ووضع حد للخلاف بين أسرتى نيجوين وترينه فى نهايات القرن ١٨ كنتيجة لانتفاضة تاى سون الشهيرة .

ولقد كانت حركة تاى سون (وقد سميت كذلك تبعا لاسم المنطقة التى بدأت فيها الحركة فكلمة تاى سون تعنى الجبال القريبة) بالفعل أعظم انتفاضات الفلاحين فى كل تاريخ العصر الاقطاعى فى فيتنام وقد قاد هذه الحركة ثلاثة من الأخوة وقد تميزت بقسمة جديدة تماما على حركات الفلاحين فى فيتنام فقد أيدتها جماعات التجار التى كانت تنمو فى ذلك الحين فى أعماق المجتمع الفيتنامى والتى وجدت أن مصالحها تضرب بشدة نتيجة للقيود القاسية التى فرضتها السلطات الاقطاعية على النشاط التجارى .

ولقد كان العامل الجديد أهمية تاريخية قصوى وخاصة فى تفنيد الحجج الاستعمارية التى تدعى أن المجتمعات الاقطاعية فى آسيا كانت قد تجمدت مكانها ومن ثم فقد كان ضروريا احداث دفعة بواسطة الرأسمال الغربى حتى يمكن لهذه المجتمعات أن تتطور من جديد .. ان مثل هذه الادعاءات لا تصمد مطلقا أمام حقائق التاريخ الفيتنامى .

والذى لا شك فيه أن هذه الحقبة التى شهدت انبثاق قوى اجتماعية جديدة قد أنجبت أعظم مدارس الشعر الفيتنامى .

أما نجوين دى (١٧٦٥ – ١٨٢٠) فقد ألف كتابا كلاسيكيا شهيرا فى الأدب الفيتنامى هو « كيم فان كيو » .. وهو كتاب لا يزال كثير من الفيتناميين المعاصرين يحفظون صفحات عديدة منه عن ظهر قلب . والحقيقة أن كتاب « كيم فان كيو » يعتبر مرآة صادقة للمجتمع الاقطاعى الفيتنامى وللأحوال اللانسانية التى كانت تسوده أما أعمال الشاعرة هوكسوان هونج فهى تفصح بشكل واضح تماما عن روح متحررة وانسانية ومعادية للاقطاع .

لقد انتصرت هبة تاى سون مكتسحة أمامها كلا من أسرتى نجوين وترينه ومن ثم تمكنت من تأسيس دولة فيتنامية جديدة ثم ما لبث هذا النصر أن توج بانتصار جديد فى ١٧٨٩ ضد القوات المعتدية القادمة من الصين الاقطاعية بناء على استدعاء أسرة ترينه بأمل مساعدتها فى سحق هبة تاى سون .. ويمثل هذا النصر قمة عظمة الامبراطور كوانج ترنج .. أصغر وأمهر الأخوة الذين قادوا الثـورة .

لكن أسرة تاى سون لم تعمر طويلا فى الحكم فما لبث نجوين آمه الحاكم الاقطاعى للجنوب أن أشعل الحـرب ضدها بايعاز ومساندة القس الفرنسى بيجنودى بامنى واستمر القتال سجالا حتى عام ١٨٠٢ عندما انتهت باستيلاء الجنوب على هانوى ايذانا بسيطرة أسرة نجوين على حكم البلاد كلها .

تلك الأسرة التى كانت تحظى منذ البداية بمساندة الأوربيين .. وهكذا انحدر آخر ملوك الفيتنام الى التفريط تدريجيا فى استقلال البلاد ..

.. أما آخرهم فقد سار الى نهاية الشوط المحزن والمخزى .. انه الامبراطور باوداى .

ان تاريخ الفيتنام هو تاريخ شعب ذى شخصية متميزة تماما .. شعب تمكن على الرغم من النفوذ القوى الذى فرضته جارته القوية الضخمة .. تمكن من أن يستفيد من هذا الاتصال لينمى ثقافته الخاصة وطريقته الخاصة فى الحياة .. وان نجاح الفيتناميين منذ أكثر من ٨٠٠ سنة فى خلق لغة مكتوبة لهم مستوحاة من الحروف الصينية ليؤكد هذه الحقيقة .

ان تاريخ الفيتنام يؤكد ان النضال من أجل الاستقلال وضد

العدوان الأجنبى ظل طوال قرون عديدة المنبع الرئيسى للفخر والمجد فى أعين الفيتناميين .

.. بل ان عديدا من أبطال النضال من أجل الاستقلال قد أصبحوا فى أعين الفيتناميين فى مستوى القديسين ، والتقديس الذى تحاط به ذكرى بطل مثل ترانج هونج واو هو خير مثال على ذلك .. انهم يقدسون ذكرى أبطالهم .. كما يقدس الانجليز ذكرى هارولد والأمريكيون ذكرى واشنجتون والاستراليون ذكرى بيتر لالور .

ومنذ ستمائة عام أعلن الامبراطور لى لوا « لقد أسس شعبنا منذ أمد طويل وطنا مستقلا ــ له حضارته الخاصة ــ ان لنا جبالنا الخاصة بنا وأنهارنا الخاصة بنا .. وعاداتنا وتقاليدنا الخاصة بنا .. وكل هذه تختلف عن تلك التى لدى هؤلاء الأجانب الموجودين فى الشمال .. لقد عانينا من الضعف فى بعض الأحيان لكننا لم نعان مطلقا من أى نقص فى البطولة .. » .

وبدون الدخول فى تفاصيل الصورة فان الانسان يستطيع أن يتفق على الأقل مع الكاتب الأمريكى باتينجر عندما يقول :

« هذا التاريخ الفيتنامى لا يمت بصلة الى تلك الصورة التى يقدمها الغرب للمستعمرات عندما يصفها بأنها مجرد بلاد بدائية لم تكن قادرة على التقدم بغير حماية وارشاد الأمم الأكثر تقدما فى الغرب » (١) .

واذا كان الفرنسيون قد أخطأوا الحساب فى فيتنام .. فان الأمريكيين بتصرفاتهم فى فيتنام الجنوبية يثبتون انهم قد أخطأوا هم أيضا الحساب ..

---

(١) فيتنام . السنوات الخمس الأولى ص ١٦ .

كمبوديا : عظمة الامبراطورية

لقد كان لكمبوديا فى القرن الثانى عشر امبراطورية عظيمة تشمل بالاضافة الى أراضيها الحالية جنوب فيتنام والجزء الأكبر من وسط فيتنام .. ولاوس وسيام وبعض جزر من الملايو وبورما .

ولقد كانت فترة حكم ملوك « انجور » هى فترة العظمة الحقيقية لهذه الامبراطورية . واسم « انجكور » مشتق من اسم العاصمة التى قامت فى شمال البلاد على الضفاف الغربية للبحيرة العظيمة .

واذا كان سكان هذه المنطقة قد عاشوا فى الفترة السابقة ضمن مجموعة الشعوب التى تسلطت مملكة فونان القديمة فانه من المعتقد ان الكمبوديين قد كانوا لفترة من الزمن تابعين لجاوة . لكن فترة التبعية هذه لم تستمر طويلا فما لبثت أن قامت مملكة انجكور .. وكان أول ملوكها جايافارمان الذى حكم من سنة ٨٠٨ الى ٨٦٩ .

وكان جايافارمان هو الذى قرر أن يقدس الملك الكمبودى كما يقدس الاله .

والحقيقة أن تاريخ ملوك أنجكور هو تاريخ سلسلة متتابعة من الحروب ضد مملكة الشامبا التى كانت قائمة فى ذلك الحين فى جنوب وسط فيتنام .

وبالرغم من أن هجماتهم قد تركزت أساسا ضد الشامبا الا أنهم قد حاربوا جيرانهم الآخرين .

ولقد علمتهم هذه الحروب الطويلة كيف يصبحون بناة قلاع عظام .. ومن بناء التحصينات العسكرية فى وقت الحرب تعلموا كيف يبنون فى زمن السلم معابد ضخمة تمجيدا لآلهتهم الهندوكية .. وتخليدا لذكرى أنفسهم كملوك .. وكآلهة فى نفس الوقت .

والحقيقة أن العالم يدين بالعظمة والعبقرية فى الفن المعمارى التى تجلت فى معبد انجكور وات .. الى رغبة هؤلاء الملوك فى تمجيد أنفسهم ..

ولقد بدأ بناء هذا المعبد العظيم خلال حكم الملك سيريافارمان الثانى (١١١٢ — ١١٢٦) (١) وهناك المعابد المقدسة التى أقاموها على شكل أبراج والتى وصفها الخبير الفرنسى هنرى مارشال قائلا : « ما من مكان آخر فى العالم يمكن أن يجد فيه المرء مثل هذه الدقة المتناهية والتناسق الجميل بين استقامة الواجهات وارتفاع القاعدة .. » .

لكن الكمبوديين لم يبرعوا فحسب فى فن البناء ، فقد تركوا لنا أيضا صورا ونقوشا على الحجر تعطينا تفاصيلا وافية عن الحياة الخاصة والعامة لكمبوديا القديمة .

وعلى سبيل المثال هناك فى انجكور وات ممر ذو قيمة تاريخية عظيمة .. وعلى هذا الممر نقوش ورسوم نرى فيها الملوك وهم يلقون خطبهم .. والحياة المنزلية للملكات مع وصيفاتهن وعبيدهن .. وكتائب الجيش الملكى المظفرة .

.. وفى المعبد الأثرى بايون الموجود فى بانيا شامر نقوش تقدم المزيد من المشاهد العسكرية .. والمعارك البرية والبحرية وفوق هذا كله يشاهد الزائر أمام عينيه صورا للحياة اليومية للكمبوديين .. فى السوق .. وفى الشارع وأثناء صيد الحيوانات .. وصيد السمك .. وأثناء العمل فى الحقل ..

---

(١) هناك وصف رائع لمعبد انجكور وات فى كتاب المجرى الأعلى للميكونج بقلم ولفريد بيرشيت .

وكان جايافارمان السابع (١١٦٢ - ١٢٠١) وهو ابن سيريافارمان الثانى هو الذى وصل بالاهتمام بحركة بناء المعابد الى قمتها .. فقد كان يبنى معابد للملوك .. وللناس .. محاولا أن يجعل من كمبوديا « بلدا تكسوها المعابد من أقصاها الى أدناها » تماما كما حاول الفرنسيون أن يفعلوا بفرنسا بعد بضع مئات من السنين .

وكانت العقبة التى تواجه ملوك كمبوديا هى نهوض تابعيهم السابقين فى سيام . ولم تكن سيام وحدها هى التى نهضت فان القرن الثالث عشر لم يأت الا ويجد أن جميع الشعوب التى كانت خاضعة لكمبوديا قد استقلت واحدة بعد الأخرى .

وبوصول السياميين تم انتقال كمبوديا من الهندوكيين الى البوذية وهكذا تأسست أسرة هيناتايان البوذية فى نهايات القرن الثالث عشر .

وثمة وثيقة تاريخية هامة توضح كل هذه الحقائق .. وهى عبارة عن وصف لزيارة قام بها صينى يدعى شوتا كوان الى مدينة انجكور فى عام ١٢٩٧ .

ولأن انجكور قريبة جدا من سيام فقد ظلت عاصمة للبلاد حتى القرن الرابع عشر أما العاصمة الحالية « بنوم بينه » فقد تأسست فى عام ١٣٨٩ .

وكنتيجة لغزو سيامى جديد تم فى نهاية القرن السادس عشر ظلت كمبوديا خاضعة لسيام ولفيتنام طوال بضعة قرون تالية .

ولا يمل الفرنسيون مطلقا من ترديد زعمهم أنهم « أنقذوا كمبوديا من استعباد جيرانها لها . لكن الشىء المؤكد أن الشعب الكمبودى قد ظل على الدوام قادرا على اظهار بسالته فى النضال

ضد المعتدين أيا كانوا ومن أى مكان جاءوا .. وعندما أسسوا نظامهم الحديث كان دفاعهم الباسل من أجل تحقيق الاستقلال فى منتصف القرن العشرين دليلا يوضح أنهم لم ينسوا مطلقا كيف يحافظون بأنفسهم على مصالحهم .

لاوس .. مملكة المليون فيل

فى سنة ١٣٥٣ أسس قانجيم .. وهو ابن أحد زعماء قبائل لاوس مملكة « لان اكسانج المعروفة باسم مملكة المليون فيل وأقام قانجيم مملكته فى منطقة لوانج برأبانج بلاوس . وقد عقد قانجيم زيجة ناجحة فقد تزوج من احدى بنات ملك كمبوديا الأمر الذى كفل له أن يقيم علاقات ودية مع جيرانه السياميين والكمبوديين .

ولقد بلغت هذه المملكة ذروة قوتها فى القرن السابع عشر عندما اكتملت أراضى لاوس بانتزاعها ولايتى سارافان وشامبا ساك من كمبوديا .

.. وفى عام ١٦٤١ أى فى قمة الازدهار العظيم لملوك لاوس أرسل فان دايمن حاكم باتافيا الهولندى بعثة الى فيتنتيان عاصمة لاوس .

وقد سجل جيريت فان واستهوف يومياته خلال هذه الرحلة ..

وفى هذه اليوميات يصف واستهوف الرهبان البوذيين المزدحمين فى العاصمة .. قائلا : (هنا رهبان كثيرون جدا .. أكثر من عدد الجنود فى جيش ألمانيا » .

وعندما كان الفتيان يطارحون الفتيات الغرام فى بساطة كتب يقول :

« هذا أبشع مكان وثنى فى العالم كله » .

لكنه يضيف وقد سال لعابه كأى تاجر ماهر « الذهب هنا كثير ورخيص جدا » .

وبالرغم من أن لاوس كانت فى أوج عظمتها فانها لم تكن لتقارن بجارتيها فيتنام وكمبوديا ، فان واستهوف يلاحظ فى تقريره البالغ الدقة لحياة البلاط الملكى فيها .. فيقول :

« فى الصباح الباكر ليوم ١٦ نوفمبر وصلت الفيلة تحمل رسالتنا الى الملك .. ووضعت الرســـالة فى صندوق من الذهب الخالص على ظهر أحد الفيلة .. ثم ركب كل منا فيلا حاملا معه هديته الى الملك .. وعلى مسيرة ربع ميل من القصر نزلنا من فوق الفيلة وبقينا فى خيام حتى يأذن لنا الملك بالمثول بين يديه .. ومن جميع النواحى المحيطة كنا نشاهد النبلاء وقد نصب كل منهم خيامه وانهمك فى تنظيم صفوف جنوده وفيلته وخيوله .. كانت ضجة عالية جدا وكأننا وقعنا أسرى فى أيدى جيوش أمير الأورانج .. وانتظرنا فى خيامنا مدة ساعة .. وبعدها وصل الملك قادما من المدينة راكبا فيله الأبيض ومر أمام خيامنا ومثل كل الحاضرين ركعنا لموكب الملك الشاب الذى يبلغ من العمر ٢٣ عاما .. وكان فى مقدمة موكب الملك ٣٠٠ جندى مسلحين بالبنـــادق والرماح وحول فيل الملك تناثر عدد من الفيلة يحمل كل منها جنودا مسلحين وبعدهم كانت فرق الموسيقى .. ثم ألفان من الجنود المسلحين .. ثم ١٦ فيلا تحمل زوجات الملك الخمس .. » .

وكانت المقابلة مع الملك ناجحة جدا وبعد مساومة مهذبة مع رجال البلاط حول قيمة الهدايا التى يتعين تقديمها الى الملك .. بدأ الهولنديون يخرجون كل ما تحمـــله جعبتهم من بضائع .. خواتم .. ومرايات ليبادلوها مع الأهالى .. ليأخذوا فى المقابل ..

كميات هائلة من اللبان والعطارة وغيرها من المنتجات التى أسالت لعاب واستهوف عندما تخيل الأرباح الطائلة التى يمكن أن تحصل عليها شركة جزر الهند الغربية الهولندية اذا ما احتكرت تجارة لاوس .. ودفعته الى أن يقول : « اننى أدعو الرب أن يمنحنا بركته حتى نستطيع أن نحقق هدفنا » .

لكن دعاء فان واستهوف لم يستجب .. فقد أدت الغزوات التى شنها السياميون فى القرن الثامن عشر الى تمزيق وحدة مملكة لاوس واستولى السياميون على فينتيان فى مطلع القرن التاسع عشر .. أما الممالك التى قامت شمالى لوانج برابانج وجنوبى شامباساك فلم تكن سوى ممالك تابعة للسياميين .

وعندما حان وقت التدخل الفرنسى الغادر فى شئون مملكة المليون فيل .. فان المفاوضات لم تجر مع اللاوسيين أنفسهم وانما مع المحتلين السياميين .

ومنذ أمد طويل وهذه المنطقة تلفت أنظار الأوربيين ففى سنة ١٥٣٥ وصل البرتغالى دى ڤاريا بأسطوله الى ميناء ڤاى فو الڤيتنامى .. وعقب احتلال ماكو فى سنة ١٥٥٧ بدأ البرتغاليون يزورون بانتظام موانى ڤيتنام مستعينين بالرياح الموسمية .

ولم يتخلف الهولنديون هم الآخرون .. فقد أسسوا وكالة تجارية كبيرة فى ڤاى فو منذ القرن السابع عشر . وكانت لهم مؤسسة فى هانوى منذ سنة ١٦٣٧ حتى سنة ١٧٠٠ ان هذه التجارة المربحة فى الذهب والحرير والتوابل قد اجتذبت مزيدا من الأوربيين فأسست شركة الهند الشرقية الانجليزية وكالة لها فى هانوى سنة ١٦٧٣ .

ومع التجار وعلى نفس السفن جاء المبشرون ..

فقد زار الكسندر دى رودس وهو أحد الآباء الجوزويت هذه المنطقة فى ١٦٢٦ – ١٦٢٧ . وأسس ارساليات جزويتية تضم قساوسة برتغاليين وأسبانا فى كل مكان زاره .. ثم ما لبث الآباء الفرنسيون أن لحقوا بهم .

وقد أبرز رجال الدين منذ الوهـــلة الأولى اهتمامهم الفائق بالتجارة .. فقد كتب دى رودس نفسه « انها منطقة غنية جدا أرضها خصبة يرويها ٢٤ نهرا .. وهناك مناجم للذهب وكميات كبيرة جدا من التوابل .. ويأتى الصينيون الى هنـــا ليشتروا الحرير .. الذى يكثر لدرجة أن السكان يصنعون منه شـــباك الصيد وحبال السفن » .

وهكذا .. ومنذ اليوم الأول ارتبطت البعثات التبشيرية بالتجارة وشكلت نوعا من التعاون فيما بينها ..

وفى سنة ١٦٦٠ أسست فعلا شركة لتحقيق هذا التعاون وفى عقد تأسيسها نصت م ١٣ « ان الهدف الأساسى من تأسيس هذه الشركة هو فتح الطريق أمام رجال الدين .. وسوف ينقلون على سفن الشركة هم وخدمهم وأمتعتهم مجـــانا وسيقدم لهم الطعام بالمجان أيضا » ..

وتنص م ١٤ على « ان كل المجتمع يأمل أن يستخدم رجال الدين نفوذهم فى البلدان التى سيقيمون فيها لضمان سلامة التجارة وأن يعملوا على أن يكفل للوكالات التجارية الحق فى ممارسة البيع والشراء بحرية » .

ولكى يتمكن المبشرون من تسهيل نشر عقائدهم عمـدوا الى كتابة اللغة الفيتنامية بالحروف اللاتينية بدلا من النقوش الصينية وكان هذا بلا شك نجاحا كبيرا ..

ولكن الحكام المحليين لم ينظـــروا بعين الرضا لهذه الكتابة الجديدة التى كان طبيعيا أن تجذب اليها الأنظـــار بدلا من تلك الكتابة المعقدة والتى تحتاج الى وقت طويل لدراسة نقوشـــها الصينية العديدة ..

لقد أحس هؤلاء الحكام بالخطر من هذه الكتابة الجديدة .. وقد كانوا بعيدى النظر فعلا .. فعندما أزف موعـــد الغـــزو الفرنسى .. استخدم الفرنسيون الفيتناميون الكاثوليك كقاعـــدة اجتماعية تحمى نظامهم الاستعمارى ..

وفى سنة ١٩٥٢ تساءل الكاتب الفرنسي ديڤللر .. « ماذا بقى لنا فى الڤيتنام ؟ .. هل بقى لنا هناك ولو موطىء لقدم ؟ هل بقى لنا الكاثوليك ؟ ولكن الكاثوليكية الڤيتنامية لن يكون أمامها ســـوى الدمار الكامل اذا ما حاولت أن تساوم مع (الامبريالية الأجنبية) مثلما فعلت من قبل فى القرن التاسع عشر » ..

لقد فهم ديڤللر درسا ما زال الأمريكيون أغبى من أن يفهموه .. فهم يحاولون اليوم أن يحكموا ڤيتنام الجنوبية عن طريق ينجودين ديم .. وهو مسيحى ..

والشىء الذى نود أن نقرره هنا .. هو أنه بدون نشاط هؤلاء الغربيين فى الڤيتنام فى القرنين ١٧ ، ١٨ .. لكان غزو فرنسا للڤيتنام أكثر صعوبة بكثير .

وفى لاوس وكمبوديا نشط التجـــار والمبشرون طوال القرنين ١٧ ، ١٨ ولكن انعدام النظام داخل البلاد .. وقلة عدد السكان والتناقضات التى وقعت بين القوى الأوربية هناك قد خففت من وطأة هذا الضغط بالنسبة لما حدث فى الڤيتنام . لكن نفس أساليب القهر اتبعت هناك أيضا .

.. وقد كتب المؤرخ الفيتنـــامى ينجوين فان كوى « ونتيجة لتشجيع عمليات الاستعمار بواسطة حكومة نابليون الثالث وحكومة الجمهورية الثالثة الفرنسية شهدت السنوات التى تلت عام ١٨٥٠ أو عام ١٨٥٢ موجات من الأوربيين تدفقت من البر والبحر على الهند الصينية وشهدت نشاطا استعماريا متزايدا .. كانت نتيجته المباشرة قيام فرنسا بغزو الهند الصينية » ..

الفصل الثاني

المدنيّة عن طريق المقصلة

- الحرب العالمية
- الثـــورة

فى سنة ١٩٢٨ كتب رجل فرنسى هو هنرى دى مونت بازات الى الحاكم العام للهند الصينية الفرنسية يقول « لقد أرغمت سفينة فرنسية على مغادرة ميناء بلد صديق لأنها كانت تحمل ذلك القطيع البشرى . الذى تحول اليه رجال محمياتنا » .

وكان ذلك القطيع البشرى من الڤيتناميين .. كانوا أبناء نفس ذلك الشعب الذى كتب عنه زائر انجليزى سنة ١٨٢٢ « أنهم أمهر بحارة الشرق الأقصى » والذى كتب عنهم قائد بحرى أمريكى زار سايجون فى نفس الفترة « أنهم أمهر بناة للسفن وهم يقومون بعملهم فى دقة ومهارة بالغة » .

ان هذه المقتبسات السابقة تحكى قصة فترتين من حيـــاة ڤيتنام .. فترة الڤيتنام المستقلة المجيدة .. فى الماضى ، ثم فترة الڤيتنام الفقيرة المقهورة المقسمة فى ظل الاستعمار ..

انها تحكى مع قصة الماضى .. انتفاضة المستقبل ..

ان سنة ١٨٢٢ ، سنة ١٩٢٨ اذا ما وضعتا جنبا لجنب .. تعطيان صورة سنة ١٩٤٥ .

* * *

واذا صمم الاستعمار على الغزو فلن يعدم حجة لتبرير ذلك وقد استمرت محاولات الغزو من خمسينيات القرن التاسع عشر الى ثمانياته .. وفى كل مرحلة كانت تتذرع بسبب قد يبدو أكثر وجاهة من غيره .

ففى ٢ سبتمبر سنة ١٨٥٨ قرر الادميرال الفرنسى أن يحتل الميناء الڤيتنامى « توران » متذرعا بحماية « المبشرين » ولكن جيوش الامبراطور « تى ديو » التى دافعت عن أرضها ببسالة صدت الفرنسيين .

ثم كانت الحملة الثانية التى شنتها القوات الفرنسية فى فبراير من العام التالى .. بهدف « ضمان حرية ممارسة الشعائر المسيحية وقد نجحت الحملة هذه المرة واحتلت سايجون ثم احتلت تونكين فى سنة ١٨٧٣ بحجة « حماية التجارة الفرنسية عقب قبض قوات الامبراطور على تاجر فرنسى مغامر » .

لقد بذل الفرنسيون قصارى جهدهم للاستيلاء على الهند الصينية وتثبيت أقدامهم فيها بعد أن طردتهم انجلترا من الهند .. وبذلك أوجدت فرنسا لنفسها منفذا الى الصين فاستخدمت المناطق التى استولت عليها من الهند الصينية كمركز لشن الحرب ضد الصين .. تلك الحرب التى خاضتها فرنسا وبريطانيا سنة ١٨٦٠ مستهدفة احتلال بكين .. وفى سنة ١٨٨٥ فقدت ڤيتنام استقلالها نهائيا فقد تنازلت عنها الصين عقب حرب ١٨٨٣ ــ ١٨٨٥ لفرنسا وأعلنت انها تعتبرها محمية فرنسية ..

ولم تكن المسألة مجرد احتلال عسكرى .. فان رجال المال كانوا فى أعقاب الحملات العسكرية ليجنوا الأرباح .. ففى سنة ١٨٦٣ عندما استولت فرنسا على بعض المناطق سارع بنك « الخصم القومى الفرنسى » بافتتاح فرع له هناك ثم تأسس بنك الهند الصينية سنة ١٨٧٥ .. ولقد مكنت السرعة الخيالية التى تزايدت بها ثروات هذا البنك ــ الذى كان يسميه المستعمرون الفرنسيون .. « صاحب الجلالة » ــ مكنته من أن يصبح عصب الاستغلال الفرنسى للهند الصينية حتى انتهاء الاحتلال .

وفى كمبوديا استغرق الغزو .. واخضاعها للحماية الفترة ما بين ١٨٦٣ ــ ١٨٦٧ . وفى سنة ١٨٨٧ تأسست الحكومة العامة للهند الصينية لتشرف على المناطق المحتلة من الهند الصينية وكمبوديا .. ثم احتلت لاوس سنة ١٨٩٣ وبهذا اكتمل الشكل الذى عرفه القرن العشرين للهند الصينية .

وفى مايو سنة ١٨٨٣ كتبت جريدة الغرف التجارية الفرنسية تقول : « ان كل مناطق فرنسا سعيدة بافتتاح هذا السوق العظيم « تونكين » فمرسيليا تنظر اليه من زاوية صناعة السفن .. وليون تنظر الى حرير هذا السوق .. وباردو ونانت ولى هاڤر تنظر الى بضائعها الأخرى .. » .

* * *

وأنا لا أهداف الى الضرب فى « جثة ميتة » بمحاولتى الحديث عن الاستعمار الفرنسى فى الهند الصينية .. فالاستعمار قد ذهب من هناك الى غير رجعة .. ولكن لا بأس من بعض الحديث ..

ان « بعثات الحضارة » الفرنسية فى الهند الصينية قد فاقت كل المستعمرين الآخرين فى جشعها ووحشيتها واستخفافها بمصالح الڤيتناميين . لقد تحولت الڤيتنام الى ضيعة يحشر فيها الحكام الفرنسيون محاسيبهم أو الذين يحاولون أن يتقوا شرهم (١) .

لقد بنى الفرنسيون شبكة واسعة من الطرق .. ليستعملوها هم وبنوا ڤيلات أنيقة فى المدن ليسكنوها هم أيضا .

---

(١) لقد كتب ايدن فى مذكراته « لقد كان هناك فى الهند الصينية موظفون فرنسيون ، أكثر مما كان فى الهند كلها من الموظفين الانجليز فى أية فترة من فترات حكمنا هناك » . ص ٨٠ .

وفى جنوب فيتنام وكبموديا أنشئت مزارع المطاط ، وفى جنوب الفيتنام أقيمت مناجم الفحم ومصانع النسيج والأسمنت . وفى كل مكان أنشئت معامل لتقطير الخمور .

لقد تابع الفرنسيون باهتمام انقاص نصيب الفرد من الأرز .. فقد أنقص خلال ٤٠ عاما من ٢٦٢ الى ١٨٢ كيلوجرام فى العام .. وفى الوقت الذى ينقص فيه نصيب الفرد « الذى تحميه فرنسا » من الأرز . تزايد باستمرار نصيبه من الأفيون والخمور .. وأقام الفرنسيون هناك سجونا رهيبة .. أرهبت السكان مثلما أرهب « بوخنوالد » سكان أوربا .

لقد استسلم الفرنسيون للفاشيست اليابانيين مرتين .. مرة فى سنة ١٩٤٠ وأخرى فى سنة ١٩٤٥ .. ومع ذلك فقد كانوا « يحمون » الهند الصينية ..

وفى سنة ١٩٤٥ تسببوا هم واليابانيون فى مجاعة أهلكت مليونين من الفيتناميين .. لقد سببوا من المآسى أكثر مما سببه الانجليز للهند والهولنديون لأندونيسيا رغم أن استعمارهم للهند الصينية لم يدم أكثر من ٨٠ عاما .

ولكن الفرنسيين المستعمرين تسببوا وعلى الرغم من أنوفهم فى بعض الأشياء .. كانت مفيدة وهامة .. لقد شحذوا همم الشعب .. وأقاموا بعض الصلات بين القوى الثورية فى فرنسا وبين شعوب الهند الصينية .. وأظهروا الى الوجود الطبقة العاملة فى الهند الصينية .

ولقد ركز الفرنسيون استغلالهم الاقتصادى فى الفيتنام بينما ركزوا جهودهم فى لاوس وكمبوديا على تقوية وتدعيم واطالة عمر النظام الاقطاعى ..

ان الكتب المدرسية الفرنسية فى بداية القرن العشرين كانت تعلم قرائها الصغار ان استعمار فرنسا لشمال أفريقيا هو استعمار عن طريق الاستيطان .. أما استعمار الهند الصينية فهو استعمار عن طريق الاستثمار » .

ان الفرنسيين أنفسهم لا يخفون هذه الحقيقة بل ان الشعار الذى انتشر على أوسع نطاق فى الأوساط السياسية فى تسعينات القرن الماضى كان « ان على الهند الصينية أن تدفع » .

أما النظام الذى اتبع لكى « تدفع الهند الصينية » فقد كان يتلخص فى زيادة الضرائب الموجودة .. وفرض ضرائب جديدة وانشاء « الاحتكارات الثلاث العظيمة » احتكارات الخمر والأفيون وشراء وبيع الملح ..

ولقد وضعت أسس هذا النظام خلال فترة حكم « باول دومير » (١٨٩٧ ــ ١٩٠٢) ولقد استمر هذا النظام دون ما تغيير طوال فترة الاحتلال .. فعقب حكم « دومير » كان الڤيتناميون يدفعون ضرائب مقدارها ٩٠ مليون فرنك ذهب سنويا فى حين كان مجموع الضرائب التى كانت تدفع للحكومة الملكية المستقلة قبل الاحتلال لا تزيد على ٣٥ مليون فرنك ..

ان المستعمرين الفرنسيين الذين وصفهم معارضوهم ــ بحق ــ بأنهم « اقطاعيون جدد » قد أعادوا .. بل زادوا من ضريبة الرأس « أو ضريبة الأفراد التى كان يفرضها الاقطاعيون » .

لقد استعادوا أيضا الأسلوب الاقطاعى فى نظام ضريبة الأرض بل وفوق ذلك بينما كانت الضريبة فى الهند الصينية القديمة تفرض على الأرض وفقا لجودتها فان الفرنسيين قد زادوا الضرائب بشكل مستمر غير مراعين لطبيعة الأرض .

بل ان الأسلوب الاقطاعى للاستغلال الفرنسى لم يقف عند هذا الحد فان الادارة الفرنسية قد انتهزت فرصة فرار القيتناميين من أراضيهم خلال « محاولة اقرار السلام » فى تونكين لكى تغتصب هـذه الأراضى وتمنح « امتيـاز » استغلالها للمحظوظين من الفرنسيين .. هؤلاء الفرنسيين الذين لم يكن لديهم ــ كما قال « ينجويان آى كوك » (هوشى منه) فى سنة ١٩٢٥ ــ أية معرفة بالزراعة أو خبرة بادارة المزارع اللهم الا كروش كبيرة وبشرة بيضاء . وهكذا أعيدت القيتنام الى نظام الملكية الاقطاعية للأرض المؤسسة على حيازة مساحات واسعة من الأرض تماما مثل نظام فرنسا أيام الاقطاع . أما الملح فقد ترك انتاجه فى أيدى منتجيه القدامى ولكن الادارة الفرنسية اهتمت فقط ببيع وشراء الملح .. وعلى أيدى الفرنسيين تضاعفت أسعار الملح خمس مرات فى عشر سنوات فيما بين ١٨٩٣ ــ ١٩٠٧ . وهكذا تضاعفت أرباح احتكار الملح .. أما القيتناميون الفقراء فقد عودوا أنفسهم على أن يستغنوا عن استخدام الملح .

ولكن لعل احتكارات الأفيون والخمور كانت أغرب مظاهر النظام الفرنسى هناك .. فالأفيون لم يكن محرما فى الهنـــد الصينية الفرنسية .. ولكنه كان يباع فى أكشاك يديرها احتكار حكومى .. تماما مثل ما تباع السجاير فى فرنسا وكان الأفيون يدخن فى صالات أسماها الفرنسيون فى وقاحة لم يتمتع بها أحد غيرهم .. سموها « غرف الصحصحة » .. وفوق هذه الصالات كان علم الجمهورية الفرنسية المثلث الألوان يرفرف عاليا ..

ولعل الأمر الصادر فى ٢٢ يوليو سنة ١٩٤٢ تحت رقم ٨٧٥ س . ا . ى من الادارة الفرنسية فى تونكين الى موظفى المقاطعات المنتجة للأفيون كاف لتوضيح الموقف الرسمى من مشكلة الأفيون .. ان الأمر يقول : « ان واجبكم يمكن تلخيصه فيما يلى : ــ

ـ تشجيع زراعة الأفيون .

ـ مراقبة المحصول ومحاولة معرفة المساحة المنزرعة منه قدر المستطاع .

ـ محاربة أية تجارة غير قانونية للأفيون .

وبينما كان الادمان على الأفيون نادرا فى الهند الصينية قبل الاحتلال الفرنسى فان تدخينه وزراعته أخذا يتزايدان باستمرار طوال فترة الاحتلال » .

والأرقام التالية توضح مدى هذه الزيادة فى ٦ سنوات فقط .

سنة ١٩٣٤	٢٩٫٣٢٦ ك . ج
سنة ١٩٤٠	٧١٫٧٣٦ ك . ج

والخمور كانت هى الأخرى احتكارا حكوميا فى الهند الصينية ولكى تزيد أرباح هذا الاحتكار أجبر الأهالى على شراء كميات من الخمور كانت تفرض عليهم ..

ان صحيفة « أورور اندوتشاينا » قد صدرت فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٣٤ وعلى صفحاتها الاعلان الرسمى التالى :

« ابتداء من اليوم تقرر .. انه على كل فرد من السكان أن يستخدم سبعة لترات من الخمر .. وكل قرية لن تستهلك الكمية المحددة لها سلفا من الخمور بواسطة الادارة سوف تعتبر مشتركة فى عمليات التهريب وسوف يعاقب أعيان هذه القرية .. وسوف يتناسب عدد لترات الخمر المخصصة لكل قرية مع عدد سكانها بواقع ٧ لتر لكل فرد .. وسوف تورد الكمية المخصصة للقرية .. وسواء أبيعت هذه الكمية أم لم تبع ـ فانه يتعين دفع ثمنها كاملا .. ان هذا الاجراء سوف يطبق فى كل من تونكين وآنام

فورا .. وسوف يسرى فيما بعد على شوشين الصينية وعلى كل أنحاء الاتحاد » .

ها نحن اذن نشهد الحكام الفرنسيين .. أبنـــاء أول طبقة برجوازية فى أوربا كلها وهم يحاولون أن يثبتوا بالقوة العشب الضار للقوى الاقطاعية .. يحاولون بعد أن اقتلعوا جذور الاقطاعية من فرنسا .. أن يزرعوها فى التربة الأسيوية .. ولكن هذا العشب لم يستمر فى النمو على أية حال .

وبمثل هذا البناء الاقتصادى كان مستحيلا بطبيعة الحال ــ أن ينمو نظام سياسى له أية علاقة بشعارات « الحـــرية والاخـــاء والمساواة » تلك الشعارات التى طالما رددها المستعمرون .

ولعل أخطر مظاهر القهر السياسى التى مارسها الفرنسيون هى تقسيمهم لوحدة البلاد .. لقد قرر الفرنسيون أن يحطموا الوحدة الوطنية ..

ان فرنسا لم تستعمر « ڤيتنام » واكنها من الناحية الرسمية استعمرت « شوشين ــ الصينية » و « آنام » و « تونكين » .. ثلاثة أقسام مصطنعة حتى أسمائها لم يسمح بها الڤيتناميون من قبــل .

وكل واحدة من هذه الأقسام الثلاث كان لها نظامها المختلف عن الأخرى فشوشين الصينية كانت مستعمرة يديرها الفرنســيون بشكل مباشر و « آنام » كانت محمية حيث تركت بعض السلطات للامبراطورية وللادارات الڤيتنامية فى حين كان الفرنسيون فى جميع الادارات وعـــلى جميع المستويات يمسكون بزمام الأمـــور .. أما « تونكين » فقد كانت من الناحية النظرية « محمية » ولكن الفرنسيين كانوا يديرونها من الناحيـــة العملية ادارة مباشرة . وللانتقال من منطقة الى أخرى كان يتحتم عـــلى الڤيتاميين أن يحصلوا على تصاريح بالمرور .

أما كلمة « الڤيتنام » فقد حرم استعمالها .. وكثيرا ما سجن رجال لمجرد أنه قد ضبطت فى حوزتهم خرائط تحمل هذا الاسم « ڤيتنام » .

وفى المدارس القليلة التى افتتحها الفرنسيون .. كان الطلاب الڤيتناميون أحفــاد ينجوكولين ، لى لوا ، كوانج ترانج يحفظون دروسا تقول لهم : « انهم أحفاد الغال » (١) أما اللغة الڤيتنامية فقد كانت لغة أجنبية فى المدارس الثانوية .. بل انها فى امتحان الثانوية العامة كانت لغة أجنبية ثانية بعد اللغة الانجليزية .

ان غالبية الفرنسيين سمعوا لأول مرة فى حياتهم ان هناك بلد ما اسمه « ڤيتنام » فى سنة ١٩٤٥ رغم أن بلدهم كانت مستعمرة منذ ستين عاما ! وهكذا نجح المستعمرون الفرنســيون فى أن يطمسوا بمهارة الوجود القومى « للڤيتنام » فى أذهان الشعب الفرنسى .

ولم تشهد الهند الصينية الفرنسية أى شكل من أشــكال المجالس النيابية .. والمحاولة الوحيدة التى تمت فى هذا الصدد كانت تأسيس مجلس فى شوشين الصينية فى سنة ١٨٨٠ . كانت للفرنسيين السيطرة التــامة عليه مجلس وصف بأن « مهمته هى اعطاء أعضــائه الأمــوال التى يجمعها من أفراد ليس لهم حق انتخابه » .. وهكذا كان الڤيتناميون يدفعون الضرائب ولا ينتخبون ممثليهم .. والفرنسيون لا يدفعون ضرائب مطلقا .. ويتصرفون فى هذه الضرائب .

وبمناسبة الحديث عن الحقوق الديمقراطية فاننا سوف نترك الصحفية « أندريه ڤواليه » تتحدث فى كتابها « انقذوا الهنــد الصينية » لتقول « ان الاعتقال السياسى يتم لأتفه الأسباب ويمكن

---

(١) الغال : هم سكان فرنسا الاول .

أن تستمر قوة الحبس الاحتيـــاطى شهورا طويلة .. وفى بعض الأحيان قد تستمر سنوات .. وقد استمر بعض الأفراد فى السجن الى أن ماتوا دون أن يعرفوا تهمتهم أو حتى دون أن يحقق معهم .. فان أى حديث عن الوطنية .. أو أى توزيع للمنشورات أو تكوين للنقابات أو الدفاع عن مطالب العمال وفقراء الفلاحين بالقـــول أو بالكتابة .. كل هذا يؤدى بصاحبه الى السجن .. وفى العادة تكون تهمته الشيوعية » .

ولقد أصدر المدعى العام فى تونكين تعليمات لمساعديه تقـــول « اذا لم تكن الأدلة كافية اقبضوا على المتهم حتى توافيكم الادارة بالأدلة المطلوبة » .

واستمر نضال الوطنيين رغم كل شيء .. استمر بعد أن بدأ فى اللحظة الأولى ليظل معبرا عن القسمة الأساسية فى حيـــــاة البلاد .. ولنمعن النظر فى هذه الكلمات التى وجدت مكتوبة على ورقة مثبتة عـــلى أحـــد الأشجار فى ولاية شوشين الصينية فى سنة ١٨٦٢ فى اليوم التالى لدخول الفرنسيين المنطقة ..

« اننا وقد فقدنا حكومتنا .. نشبه طفلا فقد أباه وأمه » .

ان بلادكم أيها الفرنسيون تطل على البحار الغربية أما بلادنا فتطل على البحار الشرقية .. اننا نختلف عنكم فى كل شيء .. كما يختلف الحصان عن البقرة .. نختلف عنكم فى اللغة والكتابة والأخلاق .. ان الناس قد خلقوا منذ الأزل من أجناس مختلفة .. وهم متساوون فى كل مكان ولكن طبائعهم تظل مختلفة .. ان ولاءنا للامبراطور يحفزنا الى أن نأخذ بالثأر أو أن نموت دون ذلك واذا صممتم على أن تفرضوا حكمكم بالحديد والنار على بلادنا فان الفوضى سوف تستمر طويلا .. ولكننا نؤمن بعدالة السماء .. وبأننا سوف ننتصر فى النهاية .

اننا نخشى قوتكم .. ولكننا نخشى السماء أكثر منكم .. ولقد صممنا على أن نناضل دون كلل وبلا هوادة .. واذا افتقدنا السلاح فلسوف نسلح جنودنا بفروع الأشجار ولكننا سنقاتل .. كيف يمكنكم اذن أن تحيوا بيننا ؟ اننا نطلب اليكم أن تدرسوا اقتراحنا هذا بعناية فلتضعوا حدا لهذه الأعمال .. لمصلحتنا ولمصلحتكم أيضا .. » .

لقد كان صوت الڤيتنام يتكلم .. منذ اللحظة الأولى ..

وبعد ٨٤ سنة من هذه الصيحة كان هوشى منه يتكلم .. فى ندائه الذى دعا فيه الى المقاومة المسلحة الشاملة فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٦ .

« أيها المواطنون الأعزاء فى كل أنحاء الوطن

حرصا منا على السلام فقد قدمنا بعض التنازلات .. ولكن المستعمرين الفرنسيين يتمادون فى مطالبهم عقب كل تنازل .. انهم مصممون على أن يحتلوا بلادنا من جديد .. ولكننا مصممون على ألا نستعبد من جديد .

أيها المواطنون .. هبوا للنضال ..

كل الرجال والنساء والشباب والشيوخ .. اذا ما كانوا أبناء حقيقيين لشعب الڤيتنام عليهم أن يهبوا لمقاومة المستعمرين الفرنسيين لينقذوا وطن الآباء . هؤلاء الذين يملكون بنادق .. يحاربون ببنادقهم .. والذين يملكون سيوفا يحاربون بسيوفهم .. أما هؤلاء الذين لا يملكون سيفا .. فليحاربوا بالفأس .. بالجاروف .. بالعصى .. على كل فرد أن يقاوم الفرنسيين لينقذ الوطن ..

يا رجال الجيش والميليسنا والدفاع المدنى .. لقد دقت ساعة

الخلاص .. فلنضحى بآخر قطرة من دمائنا فداء للوطن .. وبرغم الصعاب .. وبتصميمنا على التضحية سيصبح النصر محققا .

فلتحيا الفيتنام المستقلة الموحدة .. ولتحيا المقاومة المنتصرة » .

ان هذين الصوتين ليعبران أصدق تعبير عن روح النضال الفيتنامى طوال فترة الاحتلال .. ولقد بدأ هذا النضال منذ اللحظة الأولى للاحتلال .. بدأ بقيادة الامبراطور .. الذى قبض عليه ونفى بعد ذلك .. ثم استمر النضال .. ثورات .. حرب عصابات .. فلاحين يثورون حاملين السلاح .. وفى بداية القرن العشرين بدأت المقاومة السرية بقيادة المثقفين الوطنيين أمثال « يان بواشو » يحفزها الاعجاب البالغ باليابان تلك القوة الأسيوية الناهضة التى أذلت روسيا القيصرية .

وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى استمرت المقاومة السرية التى اتخذت طابعا تآمريا وارهابيا تحت قيادة البرجوازية الفيتنامية ممثلة فى حزبها « فيتنام كوك دان دونج » U. N. Q. D. D Uiet Nam Qaoe Dan Dong الذى كان متأثرا تأثرا عميقا بحزب الكومنتانج بقيادة د . صن . يات . صن .

ولقد تجمعت كل عناصر المقاومة هذه وكل الحركات الوطنية وحركات الفلاحين والعمال .. تجمعت كلها تحت قيادة الحزب الشيوعى للهند الصينية الذى تأسس سنة ١٩٣٠ .

ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان الجو السياسى فى الفيتنام كان طوال فترة الاحتلال على وشك الاشتعال .. فلما تأسس الحزب الشيوعى فى فبراير سنة ١٩٣٠ .. لم يمض سوى أقل من عام .. ثم كانت هناك سلطة سوفييتية تحت قيادته فى المناطق الشمالية .. ولم يتمكن الفرنسيون من التغلب عليها الا بعد عدة أشهر من القتال العنيف استخدمت فيه الطائرات لقصف المناطق الثائرة ..

وفى سنة ١٩٣٣ نجح الشيوعيون فى انتخابات مجلس بلدية سايجون ..

واشتعلت الحركة الوطنية فى كل مكان .. حتى فى الهيئات التى أنشأها الفرنسيون تحت رعايتهم فى الثلاثينيات والأربعينيات .. وحتى حركة الكشافة اندفعت هى الأخرى فى غمـــار النضال .. لدرجة أن عددا لا بأس به من الشخصيات البارزة فى الجمهـــورية الفيتنامية الآن بدأوا أول نشاط لهم فى صفوف حركة الكشافة التى أنشأها الفرنسيون فى الثلاثينيات تحت رعايتهم ..

وقد أعلنت « لجنة الدفاع عن الهند الصينية » التى تأسست بدعوة من « رومان رولان » انه قد بلغ عدد الذين نفذ فيهم حكم الاعدام فى الهند الصينية فى سنة ١٩٣٠ - ٦٩٩ شخصا - ٥٠ منهم ابان ثورة ين باى ، ٣٠ بتهمة الاشتراك فى الاحتفالات بيوم أول مايو ، ٤٠ لأنهم احتفلوا بالذكرى السنوية لثورة أكتوبر ، ١١٥ لاشتراكهم فى احتفالات الذكرى السنوية لتأسيس كوميون كانتون . وكان هناك ٢ر٩٦٣ سجينا سياسيا : حكم على ٨٦ منهم بالاعدام ، ٥٤٦ بالسجن مدى الحياة . وكثير منهم حكم عليه بالأشغال الشاقة ، ٧٩٥ بالسجن لفترات متفاوتة .. وفى الفترة ما بين يناير وأبريل سنة ١٩٣١ قبض على ١ر٤٩١ شخصا جديدا وفى سنة ١٩٣٢ بلغ عـــدد المسجونين السياسيين ١٠ر٠٠٠ شخص .

أما الحزب الشيوعى للهند الصينية الذى كان الهدف الأول للقهر الاستعمارى فقد ضحى بالسكرتيرين الأربعة الأول للجنـة المركزية على أيدى الارهابيين الاستعماريين (١) .

---

(١) هؤلاء السكرتيرين الأربعة هم .. تران فو ، لى هونج فونج ، نيجويان فان شو هاهاى تاب .

وخلال حرب المقاومة الأخيرة ١٩٤٥ ــ ١٩٥٤ قبض المستعمرون على عدة عشرات من المناضلين النقابيين فى مناجم هونجاى ــ فى المنطقة المحتلة ــ وكبلوا أيديهم بالحديد ثم ألقوا بهم .. الى البحر ..

وفى سنة ١٩٥٨ شاهد المؤلف بنفسه بقايا جثث لسجناء وجدت فى قبر جماعى اكتشف عند القيام بهدم أحد السجون لبناء دار للطباعة مكانها .. وكان مليئا بالهياكل العظمية .. بعضها تخترق مسامير عظام صدره وبعضها لا زالت يديه ورجليه مكبلة بقيود صدئة من الحديد .

* * *

وكان تاريخ لاوس وكمبوديا هما أيضا تاريخ نضال ضد المستعمرين .. نضال لا يقل شجاعة عن نضال زملائهم الفيتناميين .

ففى سنة ١٩٠١ ــ سنة ١٩٠٤ اشتعلت نيران الثورة فى جنوب لاوس بقيادة أحد زعماء المقاطعات .. واستمرت الثورات تتوالى هنا أيضا .. ثورة قام بها الـ « كاها » (العبيد) وهم أفراد الأقلية المسماة « لاو لام » ثاروا رافضين دفع ضرائب للفرنسيين واعتصموا بجبالهم حيث كان صعبا على الفرنسيين التغلب عليهم .. واستمرت الثورة مشتعلة ٢٧ عاما منذ سنة ١٩١٠ حتى ١٩٣٧ .. وقد قادها أبطال عظام مثل أونج كو ، كوا دام .. ولم تهزم هذه الثورة الا بحملة قاسية خالية من الرحمة استخدمت فيها الطائرات .. وقتل كوا دام رميا بالرصاص .. ولكن أبناءه ما زالوا حتى اليوم يحاربون فى صفوف « باتيت لاو » .

ولعب الكهنة البوذيون دورا قياديا فى الثورات التى تمت فى كمبوديا .. ففى غداة دخول الفرنسيين كمبوديا سنة ١٨٦٣ دعى الكاهن الأعظم للاله بوذا الشعب للمقاومة .. وقامت الثورة وقامت بعدها ثورات وفى أربعينيات القرن العشرين قبض على كاهن بوذى

كبير ونفى هو ومئـات من أتباعه بتهمة تأليف كتب معـادية للفرنسيين ..

وتطورت المظاهرات التى احتشدت للمطالبة بالافراج عنه الى ثورة مسلحة ..

* * *

١٩٣٠ .. سنة حاسمة فى تاريخ الهند الصينية الحديث ..

ففى فبراير من هذه السنة اجتمع فى استاد هونج كونج ـ خلال مباراة لكرة القدم ـ ثلاثة مندوبين يمثلون المنظمات العمـالية والاشتراكية الموجـودة آنئذ فى ڤيتنام واتفقوا على توحيد هـذه المنظمات .. وقد ترأس هذا الاجتماع الغريب والشديد السرية شخص اسمه نيجى يان آى كوك Ngyenai Qouc وهو نفسـه الرئيس هوشى منه .

وفى ٩ فبراير سـنة ١٩٣٠ اشتعلت نيران الثورة فى المناطق الشمالية الغربية فى ڤيتنام مقاطعة ين باى بقيادة الحزب البرجوازى U. N. Q. D. D ولما كانت الثورة غير معد لها الاعداد الكافى فما لبثت أن أغرقت فى بحر من الدماء .. واعتقل قادة الحزب وأعدموا ..

لقد عبرت ثورة « ين باى » التى تمثلت فيها أقصى الطاقات الثورية لحزب البرجوازية الڤيتنامية .. عبرت عن شجاعة فائقة للحد .. ولكنها كانت تفتقر الى قاعدة شعبية عريضة .

وهزمت الثورة .. ولكن الراية التى أسقطها المستعمرون من أيدى حزب البرجوازية انتقلت فورا الى أيدى الحزب الذى أصبح متحدا .. حزب العمل (الحزب الشيوعى) .

وعلى الرغم من الاختلاف بين هذين الحزبين من حيث التركيب

الاجتماعى .. ومن حيث الطبقة التى يمثلها كل منهما الا أنه من الخطأ تماما تصور وجود عداوة شديدة بين أعضاء هذين الحزبين .

فالراية التى رفرفت فوق رؤوس ثوار ين باى من رجال حزب البرجوازية كانت راية حمراء .. والشعار الذى رفعه حزب العمل عقب حملة القمع التى شنت عقب ثورة « ين باى » كان « فليسقط الارهاب الأبيض » « فلتحى الروح الثورية لهبة بن باى » .

لقد تقاسم أعضاء حزب البرجوازية وأعضاء حزب العمل نفس المصير وهم يكدسون فى السجون فى هـــذه الفترة .. وبفضل المناقشات الأخوية الملتهبة اقتنع كثيرين من أعضاء حزب البرجوازية بضعف حزبهم وانضموا على الفور الى الخلايا السرية التى تكونت فى كل سجون البلاد . وقد أصبح بعض هؤلاء الآن أشخاصا مرموقين فى جمهورية ڤيتنام الديمقراطية .

لقد كانت المنظمات الشيوعية فى الڤيتنام نتاجا لمنظمة الشباب الثورى الڤيتنامى التى أسسها نيجى بان كوك (هوشى منه) فى كانتون بالصين سنة ١٩٢٥ والتى عملت على تدريب الشـــبان الثوريين ثم ارسالهم الى الڤيتنام ليمارسوا عملهم التنظيمى بين صفوف العمال والفلاحين .. ولقد كانت هذه المنظمة ذات طابع ماركسى واضح .

والڤيتنام التى هزتها الأزمة الاقتصادية العالمية .. كانت تغلى بالثورة .. وفى مثل هذا الجو بدأ الحزب الشيوعى الوليد استعداده للاحتفال بعيد أول مايو .. أول عيد يحتفل به فى الڤيتنام .. وانطلقت الشعارات « يا عمال العالم اتحدوا » « تحيا وحدة العمال والفلاحين والجنود » وغمرت احتفالات أول مايو كل أنحاء البلاد .. ولم تستطع كل مقاومة المستعمرين العنيفة أن توقف التيار ..

وجاء يوم مايو .. وذهب .. وتوالت الأيام .. وانتهى شهر

مايو بأسره ثم يونيو .. ثم يوليو ، ولكن الاحتفالات بعيد أول مايو لم تنته .. ولم تؤد محاولات المستعمرين لايقاف الحركة الا الى زيادة النار اشتعالا ..

وفى سبتمبر اندفع الفلاحون فى كثير من أنحـــاء المقاطعتين الشماليتين نيجى آن ، هاتينا وأطاحوا بالجهاز الحكومى الاستعمارى وأعلنوا قيام السلطة السوفييتية ..

وألغت « القوى الحمراء » الضرائب وأوقفت ســداد الديون ونظمت قوات دفاعها الخاصة بها .. ووزعت الأراضى الحكومية على الفلاحين المعدمين وفى كل هذه الخطوات كان عمال السكك الحديدية فى مدينة « ڤينه » الغربية وعمال ميناء بن ثوى يقدمون لهم كل المساعدات الممكنة ..

ولأكثر من ثلاثة شهور صمدت السلطة السوفييتية فى ينجى ـ تينا .. قبل أن تسحقها الضربات الضاربة التى وجهتها لها الادارة الفرنسية .. وغارات الطائرات على القرى الحمراء ..

لقد كتبت الجـــريدة الفرنسية « الدوبنيون » L'Opinésn ، التى تصدر فى سايجون تقول « اننا لا نواجه هنا بتمردات عادية .. ولكنها حركة ثورية شاملة » .

وعلق وزير المستعمرات الفرنسى بول ريتـــوار بدوره قائلا « ان اثارة الحزب الشيوعى قد أثبتت انها أخطر بكثير من اثارة هبة لى باى » .

.. وهكذا وبنفس أقوالهم هم .. ســجل المســـتعمرون الفرنسيون الحقيقة الساطعة وهى ان حركة سوڤيت ينجى ـ تينا كانت تحولا خطيرا فى تاريخ الڤيتنام .. تحولا لم يكن باستطاعتهم .. فى المدى الطويل .. أن يوقفوا زحفه ..

وقد سحقت هذه الحركة بقسوة بالغة .. واعتقل كثيرين من القادة الشيوعيين وأعدموا .. واضطر الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء اللجنة المركزية للحزب أن يعملوا على اعادة بناء الحزب .. من خارج البلاد .

ولكن النكسة التى أصابت الحركة الثورية لم تدم طويلا .. فما ان حلت سنة ١٩٣٣ حتى نبتت من جديد أغصان حزب العمل فى ولايات لانج سونج ، كا أوبانج فى الڤيتنام وفى ساتانا كاهت فى لاوس وبينما كانت الاضرابات تشتعل هنا وهناك فى مناجم لاوس .. كان الشيوعيون فى جنوب الڤيتنام يدعمون نفوذهم بسرعة .. فى صفوف المثقفين وأصحاب الحرف كنتيجة لنجاح عـدد منهم فى انتخابات المجلس البلدى فى سايجون .

لقد لعقت الحركة الثـــورية جراحها .. ودفنت موتاها .. وها هى من جديد تقف على أقدامها ..

وفى ١٩٣٥ – ١٩٣٦ بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الڤيتنـــام الثورى مرحلة النضال القانونى من أجل الديمقراطية ..

ففى سنة ١٩٣٥ حذر جورجى ديمتروف فى اجتماع المؤتمر السابع للدولية الشيوعية من خطر الفاشية ونادى « بتوحيد الطبقة العاملة فى جبهة متحدة » وبتكوين جبهات شعبية فى كل البلدان لمجابهة هذا الخطر ..

وفى مايو سنة ١٩٣٦ قرر الكونفرنس العام للحزب الشيوعى فى الهند الصينية التخلى عن شعاره السابق .. شعار استيلاء الطبقة العاملة على السلطة بقوة العمـــال والفلاحين واستبدله بسياسة الجبهة الديمقراطية للهند الصينية التى تضم العناصر المعـــادية للفاشية فى المستعمرة بما فى ذلك الفرنسيين .

لقد كان الهدف من تأسيس هذه الجبهة هو حمـــاية حكومة الجبهة الشعبية التى كانت موجودة فى فرنسا فى ذلك الوقت .. والنضـــال لكسب حق تكوين النقابات والحقـــوق الديمقراطية للمستعمرة وضمان السلام العالمى الذى تتهدده القوى الفاشية .

ولقد أحرزت الجبهة الديمقراطية نجاحات هامة .. خاصـة وقد ساندتها حركة اضرابات قوية فى شمال وجنوب البلاد ..

وازدهرت صحافة ديمقراطية قانونية .. لأول مرة فى تاريخ البلاد .. ورغم التقييدات الكثيرة لحرية الانتخابات فقد انتخب ديمقراطيون وشيوعيون فى مجالس بلديات متعددة .. وأصـــدرت حكومة الجبهة الشعبية قرارا بتحـــريم السخرة ووضعت لوائح تحكم فترة الاختبار وعقود العمل .. وضمنت حدا أدنى لأجـــر العامل ، ولقد دعم الافراج عن كثير من القادة الشيوعيين وعودة القادة الآخرين من الخارج .. الجهاز القيادى لحزب العمـــل دعما كبيرا .

ولعل أكبر مظهر من مظاهر نجاحات هـــذه الحركة هو ذلك الاحتفال الرائع الذى جرى فى هانوى بعيد أول مايو فى سنة ١٩٣٨ ، فبدعوة من الصحيفة الشيوعية « تن تاك » ومن اللجنة الفرعية للحـــزب الاشـــتراكى الفرنسى .. تحركت مظاهرة ضخمة من ٥٠ر٠٠٠ شخص ترفع راياتها الحمراء جنبا الى جنب مع الأعلام الفرنسية المثلثة الألوان .. وتعالت الهتافات « الخبز .. السلم .. الحرية » وتلى كل الحاضرين القسم التالى : « اننا نقسم نحن العمال الفيتناميين والفرنسيين .. أن نعمل موحدين .. وأن نظل مخلصين للجبهـــة الشعبية .. لكى نحمى المبادىء الديمقراطية ونصون السلام للبشرية » .

ولكن السحب السوداء ما لبثت أن تجمعت من جديد .. ففى

أوربا كانت اتفاقات ميونيخ .. وفى الهند الصينية أغلق المستعمرون الفرنسيون الحدود الصينية ـ الڤيتنامية ليمنعوا جيوش الصين التى تناضل ضد اليابانيين من أن تصل الى مقاطعة يونان .. وأسفرت العناصر العميلة لليابان فى الجهاز الحاكم فى الهند الصينية عن وجهها بصراحة .

وفى بداية ١٩٣٩ سقطت حكومة الجبهة الشعبية .. ووجد المستعمرون المتطرفون فرصتهم ورفعوا رؤوسهم من جديد .

وانتهت تلك الفترة القصيرة التى تنفست فيها الهند الصينية قليلا من الديمقراطية .. فحلت جمعيات الصداقة .. والنقابات وصودرت أملاكها وبيعت بالمزاد ـ وأغلقت الصحف الديمقراطية .. واستؤنفت حملات الاعتقالات ضد الشيوعيين والديمقراطيين .. وفى ١٠ نوفمبر صدر مرسوم باطالة يوم العمل .. وكل مكسب أحرزه العمال مهما كان صغيرا ما لبث أن انتزعته منهم القوى الرجعية من جديد .. وعادت الحالة « الى ما كانت عليه » فى الهند الصينية .. ولكنها لم تعد الى ما كانت عليه تماما .. ففى أوربا كانت الحرب العالمية الثانية على الأبواب .. وفى آسيا كان هناك منافسا خطيرا يستعد لاقتحام أسواق الهند الصينية ليمتص دماء شعبها .. كانت هناك الفاشية اليابانية .

* * *

وخلال الحرب العالمية الثانية .. لم يتفق الثوريون الڤيتناميون مع بوليس الأمن الفرنسى الاستعمارى .. الا فى حقيقة واحدة هى ان الطبقة العاملة الڤيتنامية بقيادة حزب العمل فى الهند الصينية .. كانت القائد الحقيقى للحركة الوطنية الڤيتنامية .

أما كيف تسلمت الطبقة العاملة زمام القيادة فى الحركة الثورية ؟ أو بمعنى آخر لماذا كانت حكومة الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية..

هى الحكومة الوحيدة التى يقودها الشيوعيون اليوم فى كل جنوب شرقى آسيا ؟

لماذا كانت الفيتنام هى البلد المستعمر الوحيد فى العالم الذى نشأت فيه حكومة يقـــودها الشيوعيون وهى بمعزل عن البلدان الاشتراكية الأخرى ؟

لقد سأل الكثيرون أنفسهم هذه الأسئلة ؟

وأجاب البروفيسير روبرت ايمرسون أستاذ علم نظم الحكم فى جامعة هارفارد على هذه التساؤلات قائلا « ان العامل الأساسى الذى ميز الوضع فى الهند الصينية عن غيرها من بلدان جنوب شرقى آسيا بل وعن غيرها من كل بلدان العالم » .. كان ذلك التطابق الكبير بين الحركة الوطنية والشيوعية (١) وعزى بعضهم نجاح الشيوعيين فى تسلم زمام القيادة الى الأخطاء التى ارتكبتها القوى الاستعمارية سنة ١٩٤٥ وعزاها البعض الى مهارة الشيوعيين فى انتهاز الفرص.. وعزاها لورد كاسى وزير خارجية استراليا السابق الى « نجاح التآمر الشيوعى » .

أما السير أنتونى ايدن فقد كتب فى مذكراته يقول « لقد كان لدى كل من الهند وأندونيسيا وبورما قادة أقوياء يدعم نفوذهم شعور وطنى جارف .. أما فى الهند الصينية فلم يكن هناك مثل هؤلاء القادة .. » .

والسير أنتونى ايدن وهو خير ممثلى الطبقة الحاكمة الانجليزية عندما يقول « قادة أقوياء » يعنى بالضبط **« قادة برجوازيون »** .. وعلى الانسان أن يكون فى مثل الوضع الطبقى للسير أنتونى ايدن

---

(١) من مقدمة لكتاب « الصراع من أجل الهند الصينية » بقلم آلن . ج هامر مطبعة جامعة ستانفورد كاليفورنيا .

حتى يمكنه أن ينكر أن « هوشى منه » وزملاءه « قادة أقوياء » أو أن ينكر ذلك « الشعور الوطنى الجارف » الذى اجتاح الشعب الڤيتنامى أثناء خوضه لحرب تحرير وطنه .. وهى حرب من أكثر الحروب التى شهدها العالم ضراوة ووحشية .

أما فيليب ديڤلر الشخصية الفرنسية التى وان لم يكن من الممكن وصفها بأنها يسارية الا أنه من الصعب أن توصف بأنها يمينية من طراز ايدن وكاساى فقد وضع الأمر على النحو التالى : ـ

ولقد تمكن الـ ٥٠٠٠ جندى من جنود الميليشيا التابعين للحزب أن يوقظوا أمة بأسرها قوامها ٢٣ مليون نسمة بتشكيل حكومة تسيطر على مقاطعات كاملة .. وبتكوين جيش يحارب فى جميع الأحوال ببطولة نادرة .. ان عشرات وعشرات الألوف من الڤيتناميين .. الذين لا علاقة لهم بالشيوعية قد حملوا السلاح واستشهدوا فى هذا النضال .. ان الحقيقة التى يجب ألا ننكرها مهما كانت غير سائغة بالنسبة للبعض .. هى أنه اذا كان هذا الحزب قد استطاع أن يتسلم زمام القيادة للحركة الوطنية الڤيتنامية من أجل الاستقلال الوطنى .. تلك الحركة التى وجدت قبل أن يوجد هذا الحزب بمدة طويلة ـ فان السبب فى ذلك يرجع الى أن عناصره كانوا أكثر العناصر فعالية .. وأكثرهم وضوحا فى هذه المعركة .. لقد عرفوا كيف يجذبوا الى نضالهم ضد النظام الاستعمارى المستميت فى البقاء .. كل العناصر الحية فى البلاد .. الغالبية العظمى من الشباب والمثقفين وباختصار كل هؤلاء الذين يشكلون ڤيتنام الحديثة .. » (١) .

ولكن الإجابة الدقيقة على هذه الأسئلة تحتاج كثيرا من البحث الذى يتناول عناصر مختلفة .

---

(١) تاريخ الڤيتنام ص ٤٦٧ ـ ٤٦٨ .

ولن يمكن فهم المشكلة دون تتبع جذورها التى تمتد بعيدا فى تاريخ الڤيتنام وخاصة فى تاريخ فترة الاحتلال ..

فعندما وقعت الڤيتنام فريسة للمستعمرين لم يكن بها أية طبقة عاملة على الاطلاق .. أما عناصر التجار التى نشأت خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر فقد كانت مبعثرة وضعيفة وترزح تحت نير الضرائب الاقطاعية ..

وكان خلق طبقة عاملة يمثل ضرورة اقتصادية ملحة بالنسبة للاستعمار الفرنسى .. فقد كان بحاجة الى العمال لتشغيل مناجم الفحم فى هونجاى والعمل فى مصانع النسيج فى نام دن ولمزارع المطاط فى شوشين الصينية ..

وتزايد عدد الطبقة العاملة فى الڤيتنام عقب الحرب العالمية الأولى حتى بلغ فى نهاية سنة ١٩٢٩ وفقا لاحصاء الاستعمار الفرنسى ۲۲۰ر۰۰۰ عامل (٢٤٪ مناجم ، ٢٩٪ فى المؤسسات الصناعية والتجارية الأخرى ، ٣٧٪ عمال فى المزارع الكبيرة) أى ان عدد العمال قد تضاعف أربعة أضعاف بالنسبة لعددهم فى سنة ١٩٠٦ .. هذا بالاضافة الى الحرفيين والخياطين والحلاقين وما الى ذلك .. والى مئات الآلاف من المستخدمين فى المؤسسات الخاصة ومدرسى القرى .. وكل هؤلاء تتشابه ظروف معيشتهم مع ظروف معيشة الطبقة العاملة ...

وكثيرا ما كانت تتعالى شكاوى المديرين الفرنسيين من سرعة ترك العمال للعمل ومن صعوبة ضمان قوة عاملة ثابتة .. والحقيقة هى ان العامل الڤيتنامى كان ما يزال فى كثير من الوجوه فلاحا .. كانت قدمه الأولى فى المصنع وقدمه الثانية ما زالت هناك فى حقول الأرز .

والسبب فى سرعة ترك العمال الڤيتناميين للعمل لم يكن سوى

قسوة ظروف المعيشة فى المؤسسات الفرنسية فأيا كان سوء الأحوال فى قريته فان العامل الذى يذوق مرارة العمل فى مناجم الفحم أو فى مزارع المطاط سرعان ما يجد أن العودة الى قريته أفضل بكثير من هذه العبودية الجديدة (١) .

أما العيب الثانى فى الطبقة العاملة الذى يذكره المستعمرون الفرنسيون أيضا فهو : انه من الصعب ـ تحت أى ظروف ـ تحويل الفلاح الى عامل فى وقت قصير ..

ولكن الحقيقة الواضحة هى أن نقاط الضعف التى حـــددها المستعمرون الفرنسيون كانت هى نفسها عوامل قوة للطبقة العاملة الفيتنامية .. لقد ظلت الطبقة العاملة ملتحمة بالفلاحين أى بالغالبية العظمى للشعب الفيتنامى .. لقد كان هناك وخصوصا فى دلتا النهر الأحمر أكبر نوع من التداخل بين العمال والفلاحين .. وهكذا وبينما كان الفرنسيون يحققون أرباحهم عن طريق الاستغلال البشع للعمال . كانوا فى نفس الوقت يضعون أسس ذلك التحالف الوثيق بين العمال والفلاحين .. الذى بدأ حزب العمل فى الهند الصينية فى اقامته سنة ١٩٣٠ .

ففى كل قرية كان هناك أفراد عملوا يوما ما كعمال .. ولعل هذا يوضح السبب فى استعداد الريف الفيتنامى باستمرار لوضع شعارات الطبقة العاملة موضع التطبيق .

ولقد كان المستعمرون يقهرون أية بادرة لأى نشاط اقتصادى تقـــوم به البرجـــوازية الوطنية فى الفيتنام .. الأمر الذى أدى

---

(١) جاء فى تقرير سرى يتحدث عن صعوبة ايجاد العمال اللازمين لمناجم الفحم فى تونكين على لسان رئيس مكتب الفحم « ان العمال لا يلجأون للعمل فى المناجم الا فى حالات المجاعة .. ولهذا فان الحل هو افقار الريف .. هو ايقاف المساعدات الحكومية له .. وتخفيض أسعار المنتجات الزراعية .

بالبرجوازية المحلية فى شوشين الصينية الى أن تشكل فى مطلع هذا القرن جمعيات سرية هدفها الأساسى مزيج من المناداة بالاستقلال الوطنى ومن المطالبة بالسماح بالنشاط الاقتصادى الخاص .

هذه الجمعيات السرية التى وصفها بعض المؤرخون بأنها نوع من الرأسمالية التآمرية كانت تعد أعضاءها والمساهمين فيها بأن أموالهم سوف تستخدم فى « اعادة المدنية للبلاد وانهاض الروح الوطنية .. » وبطبيعة الحال كانت تعدهم بأرباح مجزية أيضا .

ولكن هـــذا النشاط الرأسمالى السرى ما لبث أن اكتشفه البوليس الفرنسى .. وقبض على منظميه الأساسيين .. وحلت هذه المنظمات .

ولقد تمكنت البرجوازية الڤيتنامية مثلها مثل كل البرجوازيات الأسيوية من أن تحرز بعض المكاسب فى فترة الحرب العالمية الأولى ولكن أرباحها لم تكن كبيرة على أى حال .. ثم ما لبث المستعمرون الفرنسيون ان سحقوا كل ما أحرزته من مكاسب .

فعلى سبيل المثال أسس أحد التجار أسطولا للنقل فى النهر الأحمر .. ولكن الاحتكار الفرنسى للملاحة « مساچيرى ماريتيم » تمكن من تحطيمه نهائيا بمساعدة الادارة الفرنسية .

وخلال الفترة ١٩٢٤ ـ ١٩٣١ كان هناك فى سايجون وحـــدها ٥٩٣ حالة افلاس فى المؤسسات الڤيتنامية وفى هيابونج ١٢٤ حالة وفى هانوى ٨٨ حالة .

وفى سنة ١٩٤٢ اخترع مهندس ڤيتنامى فرنا لصهر الحديد ينتج ١٠ طن من زهر الحديد فى اليوم ويستخدم فيه كوقود فحم الانتراسيب الموجود محليا وحل ذلك مشكلة من أكثر مشاكل تطور

الاقتصاد فى الفيتنام المستقلة الحاحا ولكن السلطات الفرنسية دفعت هذا المشروع فى طريق الموت ..

وفى سنة ١٩٥٩ أى فى فترة التمويل الاشتراكى للمؤسسات التابعة للرأسمال الوطنى فى جمهورية فيتنام الديمقراطية ــ أبلغنى أحد الأصدقاء المطلعين ــ بأن كل رأس المال الصناعى الذى فى أيدى الرأسماليين فى الفيتنام الشمالية لا يكفى الا لبناء ثلاثة مصانع نسيج حديثة متوسطة الحجم .

وهكذا وبعكس البروليتاريا الصينية والهندية والأندونيسية فان البروليتاريا الفيتنامية لم تجد طبقة وطنية تنازعها قيـــادة الحركة الوطنية .

ولقد كان على البرجوازية الفيتنامية لكى تناضل من أجـل تحسين ظروفها أن تناضل أيضا ضد المستعمرين الذين يعيقون نموها فى كل مكان ولكنها كانت تفتقر الى القـــدرة على قيادة الحركة .. وتحالفت غالبيتها منذ سنة ١٩٣٠ مع الطبقة العاملة بقيادة الحزب الشيوعى .

فاذا ما كنا بحاجة الى سبب جديد فوق كل الأسباب السابقة .. فاليك سبب آخر وهو أن الشعب الفيتنامى الباسل .. ذو التاريخ والمدنية العريقة .. والذى استمر طوال ألف عام يشن نضالا بطوليا من أجل تحرير وتوحيد أراضيه ان مثل هذا الشعب لم يكن ليقبل مطلقا على رأس حركته الوطنية قيادة تساوم مع العدو .. أو قيادة يسهل على العدو أن يخدعها بمناوراته السياسية .

وهكذا يمكن أن نفهم أسباب نجاح الطبقة العاملة الفيتنامية فى قيادة الحركة الوطنية فى بلادها .. وأن نفهم أن هذه الأسباب هى أبعد ما تكون عن التآمر الشيوعى .. كما قال لوردكاسى .

* * *

وفى ١٩٤٠ سقطت فرنسا .. وفى الناحية الأخرى من العالم .. زحفت اليابان نحو الهند الصينية التى أصبحت عزلاء تماما ..

وفى ٢٢ سبتمبر وقعت اتفاقية عسكرية بين اليابانيين وبين الفرنسيين « الذين يحمون الهند الصينية » اعترف بمقتضاها بحقوق الجيوش الامبراطورية فى الهند الصينية .

ولقد كانت هذه الفترة ـ فترة الاستغلال المزدوج للمستوطنين الفرنسيين والغزاة اليابانيين ـ أسوأ فترة فى حياة شعب الڤيتنام.. فلقد سلبت كل ثروات البلاد تماما .. وانهارت اقتصادياتها وتفشت البطالة .. وانخفض مستوى المعيشة وتناقصت الأجور وسبب انتزاع الأرز لتغذية جيش الاحتلال .. وكل الجيوش اليابانية العاملة فى جنوب شرقى آسيا مجاعة حقيقية مزمنة .

وتحرك حزب العمل الذى كان يعمل سرا منذ سنة ١٩٣٩ .. فوزع فى الشهور الأولى للحرب ـ وفى كل أنحاء البلاد ـ منشورات تدعو لتكوين جبهة عريضة معادية للامبريالية ومعادية للفاشية .. جبهة تعمل ضد الحرب ..

ولمصالح الوحدة الوطنية سحب حزب العمل شعار مصادرة الأراضى المملوكة للاقطاعيين وحل محله شعار تخفيض الايجارات .

وفى سبتمبر ١٩٤٠ انتفض سكان مقاطعتى باك سون ، لانج سون فى شمال الڤيتنام ضد قيام الفرنسيين « ببيع » الوطن لليابانيين .. ولكن المستعمرين الفرنسيين تحمى ظهورهم الجيوش اليابانية قاوموا الانتفاضة بعنف .. وسحقت الانتفاضة .. ولكن الأسلحة التى استولى عليها الثوار عند مهاجمتهم للمراكز العسكرية .. لم تفارق أيديهم .. لقد ذهبت معهم الى الأدغال .. انتظارا لثورة جديدة ..

وهكذا تكونت النـــواة المسلحة للجيش الثورى الذى تكون فى شمال الڤيتنام ..

وفى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٠ قامت انتفاضة كبيرة فى شوشين الصينية حيث احتلت المراكز الادارية والمواقع العسكرية وسيطرت القوات الثورية على مناطق واسعة .. ولأول مرة رفرف فى سماء الڤيتنام العلم الأحمر ذو النجمة الذهبية علم جمهورية الڤيتنام الديمقراطية .

وقد ووجه قادة الانتفاضة الذين حاولوا الاستفادة من الفوضى الضاربة أطنابها وسط الفرنسيين .. ووجهوا بالحرب تعلن ضد الهند الصينية من جانب حكومة تايلاند الموالية لليابانيين .

ولقد كان توقيت الانتفاضة خاطئا ـ على أية حال ـ والحقيقة أن اللجنة المركزية لحزب العمل كانت قد وجهت رسالة الى قادة الانتفاضة تأمر فيها بايقاف الاستعدادات للقيام بها ولكن الرسالة تأخرت فى الطريق ..

ولقد سحق المستعمرون الفرنسيون بوحشية بالغة هـــذه الانتفاضة وتمكن الادميرال ديكو بتواطؤ مع العسكريين اليابانيين فى سايجون من أن يسوق مئات من الثوار مربوطين بعضهم الى بعض بأسلاك متينة .. يسوقهم الى الموت .. فقد ألقاهم جميعا الى البحر ..

وفى مايو ١٩٤١ عقد الاجتماع الثامن للجنة المركزية لحزب العمل فى جبال كاو بانج برئاسة هوشى منه وأعلن فى الاجتماع أن الهدف المباشر للثورة هو تحرير الوطن من القهر الفرنسى ـ اليابانى . وأن الواجب هو تكوين جبهة عريضة لا تضم العمـــال والفـــلاحين والبرجوازية الصغيرة والبرجوازية الوطنية فحسب وانما تضم أيضا كبار الملاك الوطنيين . وقررت اللجنة المركزية بناء على ذلك أن تجعل برنامجها الزراعى أكثر اعتـــدالا .. بسحب كثير من الشعارات

السابقة والاكتفاء بشعار .. مصادرة أراضى الخونة وتوزيعها على فقراء الفلاحين ..

وتطبيقا لهذه السياسة بادر الحزب بتشكيل منظمة جديدة هى منظمة استقلال الڤيتنام Uit Nam Doc Lap Dong Minh والتى يختصر أسمها الى « ڤييتمنه » .

وقد أعلن ان هدف هذه المنظمة هو « توحيد كل الوطنيين بغض النظر عن ثرواتهم أو أعمارهم أو جنسهم أو عقائدهم أو آرائهم السياسية .. ليعملوا صفا واحدا من أجل حرية شعبنا وخلاص وطننا » .

وقد نص البرنامج العملى للأهداف المباشرة التى تسعى المنظمة لتحقيقها على أن « تشكل حكومة ثورية لجمهورية الڤيتنام الديمقراطية عقب الاطاحة بحكم الفاشست اليابانيين والامبرياليين الفرنسيين وتستلهم هذه الحكومة روح الديمقراطية الجديدة وتتخذ من العلم الأحمر ذو النجمة الذهبية شعارا لها » .

ان منظمة « ڤييتمنه » كانت من الناحية الواقعية الدعامة الحقيقية للنضال من أجل الاستقلال الوطنى .. ولقد أدرك كل الناس هذه الحقيقة بما فيهم اليابانيون والفرنسيون أنفسهم ..

ولم تكن هذه المنظمة تضم حزب العمل وحده بل كانت تضم أحزابا سياسية أخرى .. وكانت تضم أيضا منظمات جماهيرية أخرى للتحرر الوطنى تكونت فى صفوف العمال والفلاحين والمثقفين والنساء والشباب والبوذيين والكاثوليك والرأسماليين .. الخ .

وقد انتخب نيجويان آى كوك (هوشى منه) رئيسا لهذه المنظمة .

وفى أدغال شمال الڤيتنام بدأت تتكون قواعد ثورية .. وساد نفوذ الحزب الشيوعى ومنظمة « ڤييتمنه » كل أنحاء البلاد .

واشتدت وطأة الهجوم الفاشى .. ثم ما لبث أن انحسر تحت ضربات الجيش الأحمر فى ستالينجراد وهنا وهناك ظهرت بوادر مقاومة فى صفوف الفرنسيين فى الهند الصينية .. وسرعان ما مدت لها القوى الثورية الڤيتنامية أيديها .. لتتعاون معها .. ولكن القوى الوحيدة التى استطاعت أن تربط نضال شعب الهند الصينية بالنضال العالمى ضد الفاشية .. كانت تلك القوى الثورية المتجمعة حول حزب العمل .

وفى النصف الثانى لعام ١٩٤٤ كان النفوذ الفرنسى واليابانى قد سحق تماما فى ست مقاطعات فى شمال الڤيتنام .. وسكان هذه المناطق الست ـ غالبيتهم من الأقليات القومية ـ لم يطيقوا بقاء المستوطنين الفرنسيين الذين استغلوهم لأمد طويل .. ولا هؤلاء القادمين الجدد .. الساعين دائما وراء الأرز ذوى النظرات الشرسة والقامة القصيرة .. اليابانيين .

ولقد ظلت مناطق الأقليات هذه ولأمد طويل مقبرة للحركات الثورية الڤيتنامية ، فلقد استغل الفرنسيون الكراهية الكامنة فى نفوس القوميات الكبيرة والقوميات الصغيرة لبعضها البعض ... تلك الكراهية التى كانت نقطة ضعف خطيرة لكلا الجانبين . ولكن الثورة تسير اليوم فى طريق جديد .. فلقد أعلن برنامج « ڤييتمنه » المساواة التامة بن القوميات الكبيرة والقوميات الصغيرة وتمكن كوادر « ڤييتمنه » من وضع هذا الشعار موضـــع التطبيق الفعلى ..

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٤ دعا ينجويان آى كوك الذى تسمى منذ هذه اللحظة باسم « هوشى منه » دعا الى تكوين فرق دعاية

مسلحة .. فرق رغم انها مسلحة الا أنها تهتم أساسا بالنشاط الدعائى بهدف التحضير لهبة مسلحة تطيح بحكم ڤيشى ــ اليابان .

وفى ٢٢ ديسمبر ١٩٤٤ أقسمت أول مجموعة مسلحة يمين الولاء فى أدغال ڤييت باك .. وبذلك تكونت أول مجموعة فى الجيش الذى أذل بعد أقل من عشر سنوات القوات المسلحة الفرنسية تساندها الولايات المتحدة ..

وكانت هذه المجموعة من ٣٤ رجلا يحملون بنادق من أنواع مختلفة يقودهم قائد حافى القدمين .. يرتدى بنطلون أطول من جسمه بكثير لدرجة انه مضطر الى ثنيه عـــدة مرات .. هو « ڤونيجيان چياب » الذى كان يعمل مدرسا فى مدرسة خاصة فى هانوى ..

وهكذا تكونت الفرقة المسلحة الأولى للدعاية لتحرير الڤيتنام وكانت كل معدات هذه الفرقة ــ التى كانت نواة جيش الشعب الڤيتنامى ــ بخلاف الـ ٣٤ بندقية عبارة عن ٦ قنابل حارقة ولغم واحد وثروة مجموعها ٥٠٠ قرش فرنسى .

وفى ٩ مارس ١٩٤٥ استولى اليابانيون على السلطة فى كل الهند الصينية بانقلاب خاطف .. فان اليابانيين وقد أزعجهم النمو المتعاظم للمقاومة الثورية المسلحة .. والفتور الذى بدأ يبديه نحوهم حلفــاؤهم المستعمرون الفرنسيون كنتيجة لبداية اندحار الفاشية فى ذلك الوقت .. قرروا أن يستولوا على السلطة كاملة بين أيديهم .. وللمرة الثانية خلال خمس سنوات ظهرت للعيان ماذا تعنى كلمة « الحماية الفرنسية » للهند الصينية .

وأعلن اليابانيون قيام حكومة « مستقلة !! » يباركها الامبراطور « باوداى » ويرأسها « تران ترونج كم » أحد القوميين اليمينيين .

وأصدر بادريا بيانا أعلن فيه الغاء اتفاقية الحماية المعقودة مع فرنسا وأعلن ان الحكومة سوف تتبع توجيهات البيان المشترك « لآسيا الشرقية الكبرى » .

ولكن الدبلوماسيين اليابانيين الذى وضعوا مشروع بيان بادريا كانت ترتعد فرائصهم .. ففى اللحظة التى كانوا يصطنعون لأنفسهم فيها حكومة عميلة فى الڤيتنام .. كانت القوى فى العالم وفى الهند الصينية تتجمع لتطيح بهم .

ولقد استفاد الثوار من ضعف قوى الاحتلال بعد اطاحة اليابانيين بالحكم الفرنسى .. ومن التناقضات التى كانت موجودة بينها وبين المحتلين اليابانيين .. ليزيدوا من قوتهم ..

وفى شمال الڤيتنام أنشبت المجاعة أظفارها بعد أن تحالف الفرنسيون واليابانيون على قرضها .. الأولون برفضهم تموين البلاد بالأرز المكدس فى شوشين الصينية والآخرون بمطالبهم الباهظة .

وليس بعيدا أن يكون الفرنسيون واليابانيون على الرغم من اختلافاتهم قد اتفقوا فيما بينهم على فرض المجاعة على تلك المناطق التى كانت تموج بالثورة .. ولكن النتيجة كانت على عكس ما أرادوا .. فقد ازدادت الثورة قوة .. وازدادت اشتعالا ..

وعلى نطاق العالم كانت الفاشية تندحر .. الجيش الأحمر يكتسح القوات النازية أمام طوفان هجومه العام .. واليابانيون يلاقون الهزيمة اثر الهزيمة ..

وهنا أحس حزب العمل ان ظروف الثورة قد نضجت فقرر دعوة كل الشعب للانتفاضة .. وكانت أحد الأعمال الأساسية التى دعا الجماهير الى تنفيذها .. الاستيلاء على مخازن الأرز الحكومية وتوزيعها على الشعب الجائع .

وفى نفس الوقت اختزل الحزب شعاره الرئيسى من « لنطرد الفاشـــيين اليابانيين والفرنسيين » الى « لنطرد الفاشـــيين اليابانيين » .

لقد اندلعت نيران الثورة فى كل مكان .. وقد حكى لى بعض الأصدقاء كيف كان سكان كثيرة يحتشدون حوله ليسألوه .. كيف يمكن أن نتصل بـ « ڤييتمنه » .

وفى ٤ يونيو أعلنت المقاطعات الست المحررة فى شمال الڤيتنام عن تأسيس « منطقة محررة » .

وفى أول أغسطس أعلن الاتحاد السوڤييتى الحرب على اليابان .. وسعى اليابانيون للصلح وأسقطت أمريكا قنابلها الذرية عـــلى هيروشيما وناجازاكى ..

وفى ١٧ أغسطس اجتمع أكثر من ٦٠ شخصا يمثلون كل قطاعات المجتمع ومختلف القوميات فى تان تراد فى شمال الڤيتنام وقرروا تعبئة كل قوى الشعب للاستيلاء على السلطة وتأسيس جمهورية ڤيتنام الديمقراطية ..

وفى ١٩ أغسطس استولى الثوار على هانوى وهزموا السلطة العميلة لليابانيين هناك .. ثم استولى الثوار على « هيو » فى ٢٣ أغسطس .. وسايجون فى ٢٥ أغسطس .

وفى ٢٦ أغسطس وقف الامبراطور « باوداى » فى احتفال كبير ليسلم لمندوبى الجمهورية الديمقراطية شــــعارى الحكم الملكى « الخاتم الذهبى والسيف الذهبى ذو المقبض المرصع بالياقوت » وتحدث باوديا قائلا « ان على كل الأحزاب .. كل الجماعات .. كل الطبقات فى مجتمعنا بما فيهم العائلة المالكة .. أن توحد جهودها وأن تؤيد بلا تحفظ الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية .. لكى نصون

استقلالنا الوطنى . أما بالنسبة لى فلقد قاسيت الكثير خلال فترة حكمى التى امتدت ٢٠ عاما .. ولهذا فاننى لسعيد أن أصبح مجرد مواطن عادى فى بلد مستقل .. ولن أسمح لأحد أن يستخدم اسمى أو اسم العائلة المالكة لبذر بذور التفرقة فى صفوف المواطنين .. لتحيا القيتنام المستقلة .. لتحيا الجمهورية الديمقراطية » .

ومن حدود الصين فى أقصى الشمال .. الى أقصى جنـــوب البلاد .. ارتفعت الراية الحمراء ذات النجمة الذهبية للجمهورية الديمقراطية القيتنامية .. لترفرف فوق أرض متحررة ..

وفى ٢ سبتمبر ١٩٤٥ وقف الرئيس هوشى منه رئيس الحكومة ليعلن رسميا استقلال القيتنام ..

لقد مضى ٨٧ عاما على دخول الفرنسيين .

* * *

وكان لابد لمثال القيتنام أن يحتذى ..

فلقد تحرك اللاوسيون والكمبوديون تحفزهم انتصـــــارات جيرانهم .. والفوضى التى تسيطر على جهاز الادارة فى بلادهم .. ليحرروا أنفسهم .

ففى لاوس تحركت الحركة الوطنية التى أسستها العناصر المتعلمة من أبناء الطبقة الاقطاعية الحاكمة .. لتستولى على ڤينتيان فى أغسطس .. ثم توالى زحفها من مقاطعة الى أخرى حتى أعلنت فى ١٢ أكتوبر تأسيس حكومة مستقلة .

وكان الأمير سوفانا تونج أخو أمير ڤينتيان وزير الدفاع ورئيس أركان حرب الجيش للحكومة الجديدة .. والأمير ســوفاناقوما (وزيرا للأشغال العامة) .

وفى كمبوديا سيطرت القوات الثورية على سلطة الدولة لعدة أسابيع ثم ما لبثت القوات الفرنسية أن احتلت البلاد فى ٥ أكتوبر .

وبدأ الفرنسيون يحاولون العودة .. وحاول الوطنيون منعهم من هذه العودة .

وهكذا بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ البلاد .. مرحلة أكثر اشراقا من سابقتها ولكنها كانت أيضا مليئة بالصعاب والمخاطر ..

ولم تمض عشر سنوات حتى كان العالم كله على حافة الحرب الذرية بسبب هذه البلدان التى لم تكن حتى مجرد أسمائها معروفة لدى الغالبية العظمى لسكان هذا العالم .

الفصل الثالث

حرب السنوات التسع

لقد ظلت حكومة المنفى الفرنسية تردد طوال سنوات ٤٣ ــ ١٩٤٥ تصميم الجمهورية الفرنسية على استعادة نفوذها فى الهند الصينية .. ولكن الفرنسيين تنازلوا وأعلنوا فى مارس ١٩٤٥ أن الفيتناميين يستحقون نوعا جديدا من المعاملة نظرا لبطولتهم فى مقاومة اليابانيين ..

ولكن هذه « المعاملة الجديدة » كانت حبرا على ورق .

لقد صمم الفرنسيون على العودة الى الهند الصينية .. ولكن كيف .. ؟ لقد حسبت البرجوازية الفرنسية حساباتها بدقة فى هذه المرة .. فلقد كان مركز فرنسا السياسى ضعيفا جدا .. وعار التعاون مع الفاشيست فى أوربا وفى شرق آسيا يجلل رأسها ..

ولم يكن هذا هو الذى يقلق بال المستعمرين الفرنسيين الذين لا يحســـون ولكن الذى كان يقلقهم فى الحقيقة هـــو افتقارهم « اوسائل » العودة للهند الصينية .

افتقارهم للسفن .. للدبابات .. للبنادق ..

وكان لابد من مساعدة سريعة ..

وسرعان ما اكتشف البريطانيون ان مصلحتهم فى مســـــاعدة الفرنسيين على العودة .. ومن السفن الحربية الانجليزية نزلت القوات الفرنسية الى سايجون فى ٢١ سبتمبر ١٩٤٥ وبالرصاص الانجليزى .. والبنادق الانجليزية .. انطلقت نيران الفرنسيين فى ســـايجون بعد ذلك بيومين وهم يقتحمون مكاتب الحكومة الجمهورية الديمقراطية الفيتنامية .. وبهذا الرصاص الانجليزى والبنادق الانجليزية .. وضعت الهند الصينية على أبواب حــرب السنوات التسع ..

ولكن من هم هؤلاء الرجـــال الذين ترأسوا حكومة الفيتنام

الجمهورية الديمقراطية .. التى نشأت عقب هزيمة الفاشـــية اليابانية .. وماذا كان وضع البلاد عند وصول قوات الحلفاء ..

فى مقدمة هؤلاء جميعا .. هوشى منه .. ذلك الرجل الذى كانت حياته تلخيصا دراميا لحياة شعبه ..

ولد فى ١٩ مايو ١٨٩٠ فى مقاطعة ينجى آن فى شمال الڤيتنام وكان أبوه أحد حكام المقاطعات ولكنه طرد لمقاومته للفرنسيين .. ولم يكن الشاب ينجويان دين كونج (وهــذا هو الاسم الحقيقى لهوشى منه .. على قدر ما استطعت أن أعرفه فان حياة ذلك الرجل كانت مليئة بالأسماء المستعارة) لم يكن هـــذا الشاب « مغرما لا بالاطلاع الكثير ولا بالعمل الكثير » على حد قول ابن عمه وهو يحدثنى عنه .

وككل الڤيتناميين الصغار لعب حافى القدمين بكرة من جذر شجر الموز .. وتلقى تعليما أوليا . وفى خلال هذا كله كان يحمل من حين لآخر رسائل للثائرين من أبناء الاقطاع المستنيرين الذين كانوا على صلة بأبيه .

ولكن وعلى الرغم من طفولته العادية جدا فانه ما لبث حين أصبح شابا أن تجلت فيه صفات نادرة ..

فبعد أن عمل بيديه لفترة على ظهر سفينة فرنسية وبعد أن أمضى بعض الوقت فى أعمال وضيعة فى لندن وباريس .. فاننا .. فى يناير ١٩١٩ نجده وقد أصبح شابا فى سن الثمانية والعشرين يكتب الى الرئيس ولسون وكليمنصو ولويد جورج المجتمعين آنئذ فى فرساى فى مؤتمر الدول المنتصرة فى الحرب العالمية الأولى .. مقدما مطلبا من ثمانى نقاط لتحقيق استقلال الڤيتنام .. ويوقع الطلب باسم « نيجويان آى كوك » (أى) « نيجويان الوطنى » وهو

الاسم الذى ظل هوشى منه مشهورا به فى الهند الصينية سنوات عديدة .

وفى ٢٠ ديسمبر كان نيجويان آى كوك هو المندوب الوحيد للمستعمرة الذى حضر المؤتمر الشهير للحزب الاشتراكى الفرنسى فى « تور » وفى هذا المؤتمر صوتت الأغلبية الى جانب الانضمام الى الدولية الثالثة ووافقت على تأسيس الحزب الشيوعى الفرنسى .. وصوت « نيجويان آى كوك » مع الأغلبية .. وهكذا كان أول رئيس لجمهورية الڤيتنام .. هو نفسه أول شيوعى ڤيتنامى .

ثم أمضى نيجويان آى كوك عدة سنوات فى باريس قائما بأعمال الدعاية التى تركزت أساسا فى رئاسته لتحرير صحيفة « المنبوذ » Le paria .. ولقد كانت الوخزات الساخرة والقاتلة فى نفس الوقت التى وجهها على صفحات هذه الجريدة قادرة على أن تدمى ذلك الجلد السميك للاستعماريين الفرنسيين ..

وفى ١٩٢٣ حينما بدأ البوليس السرى الفرنسى يتعقب نشاطه باهتمام بالغ .. هرب نيجويان آى كوك من فرنسا .. ولم يعد اليها الا بعد ٢٣ سنة عندما عاد رئيسا للجمهورية الڤيتنامية الديمقراطية ونزل ضيفا على الحكومة الفرنسية ..

وعقب خروجه من فرنسا أمضى نيجويان آى كوك عدة سنوات فى الاتحاد السوڤييتى وفى الصين حيث عمل مع دكتور صن يات صن فى فترة التحالف بين الكومنتانج والشيوعيين .

وفى ١٩٢٥ أسس نيجويان آى كوك منظمة الشباب الڤيتنامى الثورى .. التى انبثق منها الحزب الشيوعى للهند الصينية ..

وهكذا وقبل أن يبلغ سن الأربعين كان قد ألم الماما كبيرا بالأحوال فى فرنسا والاتحاد السوڤييتى والصين .. فاستوعب

بذلك كل العوامل العالمية التى تؤثر فى الثورة الفيتنامية .. ولقد تمكن بفضل اجادته التامة للغات الفرنسية والروسية والصينية قراءة وكتابة وبفضل اطلاعه على ثقافة هذه البلدان الثلاث من أن يحوز كل المؤهلات التى تمكنه من أن يضمن للثورة الفيتنامية نجاحها طوال أعوامها التسع ١٩٤٥ ـ ١٩٥٤ .. والى ما بعد ذلك أيضا ..

وكانت خيانة شيانج كاى شيك للثورة الصينية ١٩٣٧ تعنى بالنسبة لنيجويان آى كوك بداية فترة من النشاط السرى فى كثير من بلدان جنوب شرق آسيا .. فترة حدثنى عنها هو نفسه فى سنة ١٩٥٨ قائلا « هناك شيئان لا يمكن أن أتذكرهما جميعا .. أسمائى المستعارة .. والأماكن التى سجنت فيها .. » .

وفى ١٩٢٩ حكمت عليه محكمة فرنسية عقدت فى مسقط رأسه بالاعدام غيابيا .. وفى فبراير ١٩٣٠ كان يحضر مباراة كرة القدم فى استاد هونج كونج حيث عقد الكونفرنس التوحيدى للشيوعيين الفيتناميين .

وفى ١٩٣٣ ألقى البوليس الانجليزى القبض عليه .. فى هونج كونج وبتحريض من أصدقائهم الفرنسيين ـ الذين كانوا يعانون فى ذلك الوقت من الموجة العاتية للثورة الفيتنامية الحديثة ـ اتهم الانجليز الرجل بأنه « عميل سوفييتى » وكانت العقوبة هى ترحيله الى الفيتنام .. حيث ينتظره حكم الاعدام .

ولكن محاميا بريطانيا اسمه روبرت لوسبى دافع عنه بشجاعة نادرة ولم يكن هذا المحامى ثوريا ولكنه كان مجرد شخص اقتنع ببراءة نيجويان وقد نجح المحامى فى الحصول على البراءة بعد أن عرض القضية على مجلس البلاط .

وفى ١٩٦٠ زار محام عجوز قادم من هونج كونج .. هانوى

بدعوة شخصية من رجل كان هذا المحامى قد دافع عنه يوما ما .. هذا الرجل هو « هوشى منه » .

وفى ١٩٤٠ عاد نيجويان الى وطنه .. عاد بعد عشرين عاما من المنفى .. عشرين عاما كان كل همه فيها هو .. استقلال الڤيتنام .. ولكن الظروف وحدها هى التى منعته من أن يمارس هذا النضال على أرض الڤيتنام ذاتها .

ولكن كل ما قاساه نيجويان من سجن وتشريد فى هذه الأعوام العشرين لم يكن نهاية المطاف بالآلام ..

ففى أغسطس ١٩٤٢ وبعد عامين أمضاهما نيجويان فى الڤيتنام فى كهوف و « أكواخ » فى منطقة كاو بانج .. غادرها سيرا على الأقدام الى شونج كنج لينظم الاتصال بين حرب العصابات الآخذة فى النشاط ضد اليابانيين فى منطقة ڤييت باك وبين الحلفاء .. ولكى يتخفى عن أعين عمـــلاء الأعـــداء تسمى بأشهر اسم عرف به حتى الآن « هوشى منه » ومعناه « الرجل المستنير » .. وفى ٢٨ أغسطس ١٩٤٢ قبض عليه بوليس شيانج كاى شيك فى مدينة لا تبعد كثيرا عن الحدود الڤيتنامية .. ونقل من سجن الى سجن فى طول مقاطعة كوانج سى وعرضها .. وخلال هذه الرحلات كان يسحب ويداه مربوطتان خلف ظهره بالسلاسل .. مريضا .. جائعا .. ولم ير أرض ڤيتنام من جديد الا فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ .

وقد ألهم كرم هذه « الضيافة » التى استقبل بها شيانج كاى شيك أحد حلفائه فى النضال ضد اليابانيين .. ألهم هوشى منه .. كتابة الشعر .. وفى الذكرى الخامسة عشرة لتأسيس جمهورية ڤيتنام الديمقراطية .. نشرت مجموعة أشعار لهوشى منه تضم أكثر من مائة قصيدة كتبت بالصينية ثم ترجمت الى الڤيتنامية .

وهذه القصائد لا تعبر فقط عن سعة أفق هوشى منه واتساع

وعمق ثقافته وانما تعبر أيضا عن بساطة وطيبة ذلك « الثـــورى النموذجى » .

وفى حديث صحفى قمت به مع هوشى منه فى عيـــد ميلاده السبعين أجاب على بعض أسئلتى قائلا .. « ان الدروس الأساسية التى تعلمتها من حياتى كثائر تتلخص فى : أن تكون مخلصا اخلاصا تاما وغـــير مشروط لقضية تحـــرير بلدك ووحدته ، ولخلاص البروليتاريا والجماهير الكادحة .. ولانتصار الاشتراكية وللتضامن الأخوى واستمرار السلام بين كل الشعوب » .

وكان هوشى منه .. بأعوامه الســـبعين .. وشعره الفضى وبشرته الوردية وصوته الذى يثير الدهشة بعمقه والذى تبـدو الضحكات فيه قريبة المنال .. كان يبدو صورة مجسمة لرجل أدى رسالته .. ولكن سر نجاح هذا الرجل يرجع الى أنه يحس أنه لم يؤد واجبه بعد .. ان الرجل الذى أدى كل هذه الأمجاد فى الماضى .. يحس انه ما زال عليه أن يؤدى واجبات أخـــرى فى المستقبل ..

« ان المستقبل ملك للشباب » « أن المستقبل هو الثـــورة المندفعة أبدا الى الأمام » كانت هذه هى كلماته لى فى عيـــد ميلاده السبعين ..

ولكن ماذا عن « هوشى منه » بعد أن أصبح رئيسا للحكومة فى ١٩٤٥ ؟

لعل الوحدة السياسية المنقطعة النظير التى شملت كل الأمة الفيتنامية فى هذه الأيام تتضح بأجلى معانيها فى قبول الامبراطور (السابق) باوداى نفسه .. أن يقبـــل كمواطن عادى منصب المستشار السياسى لهوشى منه .

وهكذا جلس أول شيوعى ڤيتنامى مع آخر امبراطور ڤيتنامى جنبا الى جنب فى أول حكومة مستقلة للڤيتنام .

والشىء الغريب فى وجهة نظرى لم يكن هو خيانة « باوداى » لحكومة الثورة فيما بعد .. ولكن الشىء الغريب كان دائما .. كيف اشترك الامبراطور فى هذه الحكومة .. لقد كان أمرا مفهوما منذ عدة شهور فقط أن يلقى بكل ثقله فى التعاون مع اليابانيين الفاشست فهم على أية حال يمثـــلون قوى اجتماعية محافظة بطبيعتها .. وهو بتعاونه هذا معهم انما يستمر فى نفس منهجه الرجعى الذى سار عليه طوال حياته .. ولكن الأمر الغريب حقا .. هو أن يتعاون ذلك الامبراطور ويؤيد حكومة تنبع من صـــفوف الفلاحين وتتمتع بتأييدهم .. حكومة تضم بين صفوفها شيوعيين بارزين .

وعلى الرغم من أن هذا التعاون لم يستمر طويلا الا أنه ظل باستمرار دليلا على اتساع وقوة ثورة أغسطس ١٩٤٥ .

وقد اشترك كثيرون من أبناء الطبقة الاقطاعية الحاكمة فى تأييد الحكومة الديمقراطية أيضا .. ولسنا بحاجة الى القول بأنهم جميعا سرعان ما هجروا صفوف الثورة فى اثر الامبراطور باوديا .. وحتى يومنا هذا ما زال يشغل منصب وزير الداخلية فى حكومة الڤيتنام الديمقراطية « ڤان كى ثويا » مندوب الامبراطور السابق فى تونكين ابان ثورة أغسطس .

ولقد شملت الثورة أيضا .. أفضل العناصر المثقفة فى البلاد .. رجال أمثال « نيجويان ڤان يودان » عالم الأجناس المشهور فى كل أنحاء العالم والذى ما زال حتى الآن يشغل منصب وزير التعليم .. والعالم « تاكوانج » خريج كبمردج والرئيس السابق لحركة الكشافة والذى يعمل اليوم نائبا لوزير الدفاع .. و « ڤام نجوك تاش »

الطبيب البارع وأحد قادة حركة الشباب فى جنوب ڤيتنام بل وأحد قادة الثورة كلها .. وهو الآن وزير الصحة فى الحكومة ويحمل لقب بطل العمل فى الجمهورية الديمقراطية ..

ولقد شملت الثورة أيضا قادة سياسيين بارزين .. مثل رئيس الوزراء الحالى « ڤام ڤان دونج » وهو أحد الشخصيات المحبوبة جدا لدى الشعب .. وهو ابن لأحد حكام المقاطعات الاقطاعيين وقد عمل مدرسا ثم محترفا ثوريا .. وأمضى ست سنوات من حياته سجينا فى جحيم « پولوكوندور » .

وهناك أيضا «ڤونيجويان جياب » الذى توج رأسه بالانتصار الباهر فى معركة دين بيان فو .. المعركة التى جرت بعد تسع سنوات .. وقد اشترك فى الحكومة منذ اليوم الأول وزيرا للداخلية .. وقد وصفه چين سانتينى (وهو أحد خصومه السياسيين) بأنه « من أحسن العبقريات التى تمخضت عنها « ثقافتنا » الفرنسية » .

ومثلت الطبقة العاملة فى الحكومة أيضا برجال من أمثال « تون دوك ثانج » نائب رئيس الجمهورية حاليا .. وقد عمل فى ميناء سايجون ثم أصبح بحارا فى الأسطول الفرنسى .. وهو الذى رفع الراية الحمراء فوق احدى السفن الحربية الفرنسية ابان التمرد الشهير الذى جرى فى أسطول البحر الأسود خلال الحرب العالمية الأولى .. ثم قضى ١٧ عاما فى جزيرة پولوكوندور .

وكان هناك من العمال أيضا « هوانج كوك ڤييت » الرئيس الحالى لاتحاد النقابات الڤيتنامى و « نيجويان ڤان ثاو » وزير العمل حاليا .

وهكذا مثلت الثورة الڤيتنامية كل قوى الشعب .. كل الشعب الذى كان يرفض بكل قواه أن يعود الفرنسيون من جديد .. ولهذا

فشل الفرنسيون فى أن يكونوا حكومة منافسة لحكومة الجمهورية الديمقراطية لسبب بسيط وهو ان الثورة قد ضمت الى صفوفها كل شيء ذا قيمة .. ولم يبق خارجها الا هؤلاء الذين لا يساوون شـــيئا .

وطوال عدة سنوات ابتكر البعض مودة جديدة هى الادعاء بأن حكومة الفيتنام الديمقراطية ما كان يمكن لها أن تقوم مالم تقم حكومة الثورة فى الصين .. ولقد ردد نيكسون نائب رئيس الولايات المتحدة هذا الزعم فى حديث تليفزيونى له فى ٢٣ ديسمبر ١٩٥٣ .. فقال « اذا لم تكن الشيوعية قد غزت الصين .. لما كان هناك شيء اسمه الحرب فى الهند الصينية » .

ولكن هل كان بامكان حكومة الجمهورية الديمقراطية الفيتنامية أن تعتمد على أية مساعدة خارجية .. فى هذا الجو الدولى العاصف الذى نشأت فيه فى عام ٤٥ ـ ١٩٤٦ .

لقد صمد الثوار الفيتناميون وهم معزولون تماما عن أى صديق يمكن أن يمد لهم يد المساعدة . صمدوا فى وجه تحالف قوى دولية عاتية .. وفى وجه العملاء الفيتناميين .

لقد اتفق الحلفاء فى بوتسدام على انه ـ لكى يمكن قهـــر اليابانيين .. تقسم الهند الصينية قسمين يفصلهما خط العرض ١٦° .. على أن تحتل القوات الصينية المنطقة الشمالية وبريطانيا المنطقة الجنوبية ولهذا السبب اهتمت الحكومة البريطانية بأن تساعد علنا القوات الفرنسية على العودة ..

ولكن الجمهورية الديمقراطية الوليدة لم تكن تواجه الضغط الفرنسى والانجليزى وحده .. بل كان هناك أيضا شيانج كاى شيك وأفكاره الخاصة عن مسئوليات الصين فى نزع سلاح اليابان .. ومع القوات الصينية التى دخلت الفيتنام .. دخل عدة مئات من

الساسة القيتناميين .. بقايا حزب البرجوازية U. N. Q. D. D ..
الذين فروا الى الصين فى الثلاثينيات وارتبطوا نهائيا بالكومنتانج ..
ثم استمر معظمهم مرتبطا به حتى النهاية .

وكانت الخطة الصينية الشاملة تتلخص فى الاطاحة بحكومة الجمهورية الديمقراطية وانشاء حكومة من هؤلاء الرجال .. الذين يرون كل شيء من وجهة نظر الكومنتانج .. ولتحقيق هذه الخطة أنشأت فى الصين لجنة « دونج منه هاو » كمنافس لـ « ڤييتمنه » ثم حاول الصينيون أن يقيموا هذه اللجنة فى تربة القيتنام .

وكان للأمريكان مطامعهم هم الآخرون .. فقد بدأوا أول الأمر يعرضون خدماتهم على هوشى منه .. عن طريق الماچور چنرال شانجر الذى كان يعمل « مستشارا رسميا لقيادة قوات الاحتلال » بدأ يعرض مد خطوط السكك الحديدية ورصف الطرق وانشاء شبكة من المطارات وقد رفض هوشى منه كل هذه المساعدات التى كانت مربوطة بالفعل بشروط سياسية .

وفى هذه الأيام كانت هانوى تموج بالمؤامرات السياسية .. وبالنضال ضد هذه المؤامرات .

ولقد كان فى هانوى ٢٠٫٠٠٠ من الفرنسيين المدنيين يمثلهم الدبلوماسى چين سانتينى وهو الذى دبر فى الأسبوع الأخير من أغسطس تلك الخدعة الخالية من الشرف التى تمثلت فى الاستيلاء على شمال القيتنام دون حتى الاتفاق مع الأمريكيين والصينيين .

وتآمر الأمريكيون والصينيون بدورهم ضد الفرنسيين ..

واليابانيون أيضا .. وكانت لا تزال لديهم عدة عشرات من الألوف من الجنود فى المنطقة .. حاولوا أن ينتزعوا أى مكسب من خلال هذا الدمار الشامل الذى أصابهم فى الحرب .. فتآمروا

بدورهم على كل من الفرنسيين والصينيين والأمريكيين على السواء .

وكل هذه القوى المتصارعة كانت مجمعة فيما بينها على التآمر ضد الحكومة الڤيتنامية الجديدة .

ولطالما حاول الساسة الڤيتناميون من أعضاء حزب البرجوازية ، و « دونج منه هوى » هم ومجموعة صغيرة شديدة الصخب من التروتسكيين وحزب ممالىء لليابانيين اسمه « دياڤييت » (الڤيتنام العظمى) .. لطالما حاول هؤلاء جميعا جهد طاقتهم أن ينالوا من الحكومة .. بمهاجمتها تارة من اليمين وتارة من اليسار وسواء أكانت هذه الهجمات ترتدى ثيابا يسارية أم يمينية الا انها فى النهاية كانت تخدم سادتهم المستعمرين .

ولقد أثبتت تلك الطريقة البارعة التى قاد بها هوشى منه ورفاقه سفينة الڤيتنام المستقلة خلال ذلك البحر المتلاطم الأمواج .. أثبتت براعته الدبلوماسية الفائقة .

فالفرنسيون وقد تمركزوا فى سايجون منذ سبتمبر الماضى كانوا يطمحون باستمرار للزحف نحو الشمال ولكن الزحف غير ممكن دون اتفاق مع الصينيين .

والصينيون الذين بلغ تعداد جنودهم فى شمال ڤيتنام ولاوس ٢٠٠ر٠٠٠ جندى لم يكونوا يتعجلون مغادرة البلاد .. فان لهم هم الآخرين اهتماماتهم بالسياسة الڤيتنامية بل انهم جميعا ابتداء من الجنرالات حتى الأتباع كانت لهم مصالح مالية مباشرة فى المتاجرة فى السوق السوداء ..

لقد بدأت المفاوضات لسحب القوات الصينية فى أواخر ١٩٤٥ بناء على طلب الفرنسيين ثم تعثرت طويلا فى « شونج كنج »

و « هانوى » .. ولم يوقع الاتفاق الا فى ٢٨ فبراير ١٩٤٦ فى شونج كنج .. وينص على أن تنسحب القوات الصينية فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٦ .

ولقد دفعت فرنسا ثمنا غاليا لهذا الاتفاق .. فقد تنازلت عن كل ما تدعيه من حقوق ومصالح فى أراضى الصين .. وتعهدت باعفاء التجارة الصينية التى تنقل عبر الخط الحديدى « هاى فونج ــ كن منج » من الرسوم الجمركية وضرائب الترانسيت .. ثم تنازلت فوق ذلك للصين عن ملكية الجـــزء الذى يمر من الخط فى أراضى الصين .

هكذا كان الفرنسيون متلهفين لاخلاء طريق عودتهم الى هانوى التى وصفها چين سانتينى بأنها « المركز الوجه » لكل شبه جزيرة الهند الصينية .

ولكن رحيل الصينيين لم يكن سوى جزء واحد فقط من خطة العودة الى هانوى .. وبقيت هناك مشكلة التوصل الى اتفاق مع حكومة الجمهورية الديمقراطية يسمح بعودة القـــوات الفرنسية ولم يكن الاتفاق الصينى ــ الفرنسى أمرا كريها بالنسبة للحكومة الڤيتنامية .

فلقد استفادت البلاد فائدة عظيمة سواء من الناحية السياسية أو من الناحية الاقتصادية من ازاحة ذلك الثقل الرهيب عن كاهلها .. فلقد جرد أعضاء حزب البرجوازية ومنظمة « دونج منه هوى » من سندهم الحقيقى ــ القوات الصينية المسلحة ــ وهو فوق ذلك قد وضع حدا لعمليات النهب الاقتصادى والمالى التى كان يقوم بها الكومنتانج والتى كانت تهدد اقتصاديات تلك الحكومة الوليدة بالانهيار .

ان تخلص البلاد من ٢٠٠٫٠٠٠ جنـــدى صينى فى مقـــابل

۱٥٫۰۰۰ جندى فرنسى لم يكن بأية حال من الأحوال أسوأ الحلول فى نظر الفيتناميين .

وقد انعكس ذلك فى الاتفاقية المؤقتة التى أبرمتها حكومة الفيتنام مع فرنسا فى ٦ مارس ۱۹٤٦ والتى تعترف فيها فرنسا بالفيتنام .. « كدولة حرة » .. لها حكومتها المستقلة ، وبرلمانها وميزانيتها المنفصلة .. وهى تعتبر جزءا من الاتحاد الفيدرالى للهند الصينية ومن الاتحاد الفرنسى ..

وينص الاتفاق أيضا على اجراء استفتاء عام فى شوشين الصينية حول وحدة أقسام البلاد الثلاثة وعلى ايقاف أعمال العنف التى كانت ما تزال مستمرة فى الجنوب .. وألحق بالاتفاقية اتفاق عسكرى ينص على ان القوات الفرنسية سوف تنسحب بالتدريج من البلاد على أن يتم ذلك نهائيا فى ۱۹٥۲ .

ولقد هوجمت هذه الاتفاقية بشدة سواء من اليمين أو من اليسار باعتبارها بيعا للبلاد .. وفى ۷ مارس وقف « نيجويان چياب » ليدافع عن الاتفاقية فى اجتماع شعبى عقد خارج مسرح بلدية هانوى « لقد وافقنا على عودة القوات الفرنسية .. لأنهم كان بامكانهم أن يعودوا دون حاجة الى موافقتنا .. » .

وتحدث چياب الى المواطنين المتطرفين قائلا « فى هذه الاتفاقية أشياء لصالحنا .. وفيها أشياء ليست فى صالحنا .. والذين لا يوافقون عليها انما يفهمون الاستقلال كشعار .. مجرد حبر على ورق كدامة تقال فقط .. ولكنهم لا يفهمون ان استقلال البلاد ينبع من ظروف موضوعية .. ونحن لم نختر الطريق الطويل .. طريق المقاومة المسلحة لأن الظروف العالمية ليست فى صالحنا الآن .. ولقد دخلنا المفاوضات أولا وقبل كل شىء لكى نحمى ونقوى وضعنا السياسى والعسكرى والاقتصادى .. » .

وعادت القوات الفرنسية .. وفى طريق عودتها وعلى كوبرى دومير .. توقفت احدى الدبابات الانجليزية الصنع .. وتعطل وصول الجنرال لى كايرك الى هانوى ساعتين .

لقد بنى الفرنسيون كوبرى دومير فى مطالع هذا القرن .. وقد أصبح الآن أضيق من أن تمر عليه وسائل النقل الحديثة كالدبابات .. ولكنه ليس وحده الذى كان أضيق من روح العصر .. فقد كانت عقول الساسة الفرنسيين فى الهند الصينية هى أيضا أضيق من أن تتسع لروح العصر .

فالادميرال « ڤيرى دى آر چينليو » أبدى « دهشته » نعم « دهشته » لأن فرنسا وعندها مثل هذه القوات المسلحة فى الهند الصينية .. يلجأ قادتها الى المفاوضات ، ليس الى القتال .

ولقد ثار كثير من الجدل بين الفرنسيين حول كلمات « دى آرچينيلو » هل نلجأ الى العنف أم نتبع أسلوب المفاوضات .. الأسلوب « اللبرالى » الذى يقترحه سانتينى .

ولكن أيا كانت الخلافات بين الفريقين فان كل منهما كان يسعى جادا لاعادة الهند الصينية الى حظيرة الاستعمار الفرنسى بكل الوسائل .. بما فى ذلك استخدام القوة .. وعلى أية حال لقد منحت اتفاقية ٦ مارس لكل من الڤيتنام وفرنسا فسحة من الوقت .. كان كل منهما بحاجة اليها ليلتقط أنفاسه .

* * *

ان الأغنية الوحيدة التى يجيدها « هوشى منه » هى أغنية « التضامن » وأنا أعلم انه لم تتح له فرص كثيرة لأن يقود غناء الجموع .. ولكنه فى كل مرة أتيحت له هذه الفرصة كان يغنى أغنية « كن دون آن » أى « التضامن » .

ان فكرة الوحـــدة الوطنية الڤيتنامية .. أو كما يســـميها الڤيتناميون أحيانا « الوحدة العظمى » للبلاد .. ان هذه الفكرة كانت تسيطر تماما على ذهن ذلك الرجل .. بل هى سيطرت ـ فوق ذلك ـ على كل عمل قامت به الحكومة التى قادها ..

ان دعوة الامبراطور « باوداى » للاشتراك فى الحكومة فى ١٩٤٥ وتمثيل أعضاء حزب البرجوازية و « دونج منه هوى » فى الحكومة والجمعيـــة الوطنية فى ١٩٤٦ .. ان استبدال جبهة « ڤييتمنه » لجبهة أكثر اتساعا هى « لى ين ڤيت » (الجبهة الوطنية الڤيتنامية المتحدة) فى مايو ١٩٤٦ .. والموقف الذى اتخذته الحكومة من الاقطاعيين والبرجوازيين ابان حرب المقاومة والموقف الحازم الذى لا زالت تتمسك به الحكومة الديمقراطية موقف اعادة توحيد الوطن سلميا .. عن طريق المفاوضات وعلى أساس الاستقلال والديمقراطية وعلى ضوء المصلحة المشتركة للطرفين .. كل هذه المواقف توضح تمسك هذا الرجل والحكومة التى يقودها بفكرة « الوحدة الوطنية ».

وليس هناك أدنى شك فى انه بدون ذلك الاحساس العميق بالحاجة الى توحيد كل الشعب وبدون ذلك التنقيب المستمر عن طرق توحيد العناصر المختلفة وربطها بقضية عامة واحدة .. بدون ذلك الموقف القائم على الحنكة السياسية وعلى الاعتبارات الانسانية لمحاولة كسب المختلفين معه فى الرأى .. بدون كل ذلك لما استطاعت الجمهورية الديمقراطية أن تحافظ على بقائها فى الأشهر الأولى من حياتها .

ولقد أدت هذه السياسة التى اتبعتها الحكومة تجاه العناصر المختلفة الى توحيد الشعب من الناحية السياسية توحيدا رائعا ..

فعندما استولت الحكومة الديمقراطية على السلطة فى هانوى كانت خزائن الحكومة خاوية تماما .. كانت هناك رواتب الموظفين لشهر واحد فقط .. ولا شىء أكثر من ذلك ..

ولقد اتبعت الحكومة أسلوبا نموذجيا للتخلص من الأزمة الأولى التى واجهتها .. لقد وجهت نداء الى الشعب دعت فيه الى بدء « أسبوع الذهب » بهدف التغلب على الأزمة المالية .. دعت الشعب الى أن يعطى الحكومة ما يملكه من ذهب .

وفى كل مكان .. قدم كل من يملك ذهبا ذهبه .. واذا كان أغنياء أوربا يضعون ثرواتهم فى البنوك فان أغنياء بلدان عديدة من آسيا ومن بينها الڤيتنام يحتفظون بثرواتهم الذهبية فى بيوتهم .. وخلال أسبوع واحد جمعت كميات هائلة من الذهب .. لقد تبرع كبار الكاثوليك بل وأحد القساوسة الكاثوليك .. والبرجوازيون الاقطاعيون تبرعوا جميعا بجزء من ثروتهم للحكومة الجديدة ..

ولقد اتبع نفس الأسلوب فى اعادة بناء الجيش الوليد للجمهورية الديمقراطية .. فقـــد تبرعت كل مقاطعة بالغذاء والملابس لفرق الجيش المقيمة بها . وتأسست فى كل مكان « لجان التموين » التى تجمع الأرز والنقود للجيش (ولقد أبدى سانتينى امتعاضه من ان بعض فرق الجيش كانت تعسكر فى أرض فضاء قريبة من منزله فى هانوى) .

وليس هناك من شك فى أن هذه الوسائل **هى وحدها التى كان يمكن اتباعها** فى مثل هذه الظروف .. ولم يكن بامكان أية حكومة ــ فى مثل هـــذه الظروف ــ أن تستمر فى الوجود اذا رفضت ــ أو حتى اذا لم تدرك أهمية ــ توحيد كل قوى الأمة والاعتماد عليها .

ولنستمع الى كلمات « هوشى منه » لأعضاء حكومته فى أول اجتماع لهم فى ٣ سبتمبر ١٩٤٥ .

« أيها الأخوة والأصدقاء الأعزاء ..

لا أنا ولا أى واحد منكم يجيد فن الادارة .. لقد حرمتنا من تعلم ذلك ، ثمانين عاما من القهر والظلام .. ولكن ذلك لا يزعجنا فلسوف نتعلم ونحن نعمل .. ولسوف نعمل ونحن نتعلم .. ان المران يمنحنا الصواب .. ولسوف نرتكب أخطاء . لا شك فى ذلك .. ولكننا سوف نصححها وستكون لدينا الشجاعة الكافية لذلك » .

ثم وضع « هوشى منه » أمام مجلس الوزراء مهمتين أساسيتين : التغلب على المجاعة .. والأمية .. وقال :

« ان الشعب جائع .. ان مواطنينا يعانون نوعين من المجاعة .. مجاعة يفرضها المستعمر .. ومجاعة تفرضها الطبيعة .. » .

« ان اليابانيين والفرنسيين فوق انهم يحتجزون الأرز عن الشعب بطريقة غير انسانية يجبرون مواطنينا على الاقلال من زراعة الأرز ليتمكنوا هم من زراعة الخروع والكتان .. وغيرها من المحاصيل اللازمة لاستمرارهم فى الحرب .. لقد اكتشفنا مؤامرتين دبرتهما الادارة الفرنسية بهدف خلق مجاعة مصطنعة حتى يسببوا المتاعب للحركة الوطنية وليدفعوا مواطنينا الى العمل عندهم كعبيد » .

لقد راح مليونان من مواطنينا ضحية لهذه السياسة الشيطانية ، ثم جاء الفيضان الحالى ليغرق مقاطعاتنا الثمانية التى تنتج الأرز .. وهكذا أصبح الموقف سيئا للغاية .. ان الذين نجوا من المجاعة بحاجة الى الطعام .. ويجب أن نوفر لهم هذا الطعام ..

« وأنا أقترح أن تبدأ الحكومة حملة لزيادة الانتاج .. وحتى تنضج الذرة والبطاطا والمحاصيل الأخرى ــ ويتطلب ذلك ثلاثة أو أربعة أشهر ــ فاننى أقترح أن نفتح اكتتابا يتبرع الناس فيه بوجبات يوم كامل من طعامهم كل عشرة أيام .. وعلينا أن نجمع الأرز الذى سوف يكتتب به وأن نوزعه بسرعة على الفقراء ..

أما بالنسبة للجهل فانه أحد الوسائل الاجرامية التى يحكمنا بها المستعمرون .. ان ٩٠٪ من مواطنينا أميون .. ان بامكان الانسان أن يتعلم لغتنا المكتوبة بحروف لاتينية .. أن يتعلمها قراءة وكتابة فى ثلاثة أشهر فقط .. ان الرجل الجاهل انسان ضعيف ولهذا فاننى أقترح أن تبدأ حملة للقضاء على الأمية » .

وهكذا وببساطة شديدة وفى ارتباط وثيق بالحقائق الأساسية فى حياة الجماهير بدأت حكومة الجمهورية الديمقراطية عملها .. لقد كانت تطل بالفعل على نافذة المستقبل .

لقد نجحت حملة زيادة انتاج الغذاء .. لقد زرعت كل مساحة يمكن زراعتها ليس فى الريف فحسب وانما فى المدن أيضا .. لقد زرعت كل الحدائق .. كل أرض فضاء .. ولم توجه الجهود لزيادة انتاج الأرز فحسب وانما أيضا لزيادة انتاج البطاطا والذرة وفول الصويا .. وبذلك أمكن تجنب المجاعة التى كانت تبدو فى بداية الأمر أكبر من أن تقهر ..

أما المشكلة الثانية .. مشكلة القضاء على الأمية فقد كانت هى الأخرى فى طريقها للحل عندما نشبت الحرب الوطنية .. وخلال الـ ١٥ شهرا التى تفصل بين الاستيلاء على الحكومة وبين اشتعال الحرب الوطنية .. تعلم مليونان من الڤيتناميين القراءة والكتابة .

وفى نفس الوقت شنت حملة ضد التقاليد الاقطاعية الكريهة التى كانت لا تزال تفرض نفسها على حياة الناس .. فضريبة الرأس ألغيت ، وألغيت احتكارات الأفيون والخمور وخفضت ايجارات الأرض وفوائد الديون بنسبة ٢٥٪ ووزعت الأراضى الحكومية وأراضى المتعاونين مع اليابانيين والمستعمرين الفرنسيين على الفلاحين الفقراء .

وهكذا وفى أشهر قليلة تحطمت أساليب القهر التى ظلت سائدة

قرونا طويلة .. وكانت الڤيتنام بحاجة الى أنظمة ديمقراطية لتحل محل الأنظمة القديمة .. فمنح العمال يوم عمل من ثمانى ساعات فقط وحق تكوين النقابات وشجع النشاط النقابى ..

وفى ٦ يناير توجه الڤيتناميون لأول مرة فى حياتهم لينتخبوا فى اقتراع عـــام مندوبيهم الى أول جمعية وطنية للجمهـــورية الديمقراطية .. وفاز مرشحو قائمة « ڤييتمنه » ب ٢٣٠ مقعدا من ٣٠٠ . وفى هانوى حصل هوشى منه فى دائرته الانتخابية على ١٦٩ر٢٢٢ صوتا من مجموع الأصوات البالغ عددها ١٧٢ر٧٦٥ .

وحتى فى سايجون ـ حيث الاحتلال الفرنسى ـ اشترك أكثر من ٨٠٪ من الناخبين فى الانتخابات التى جرت هناك سرا .. ولقد كانت مقاومة الفرنسيين لهذه الانتخابات وحشية .. فقد أعدم أكثر من ٤٠ من منظمى الحملات الانتخابية بأيدى البوليس الفرنسى .

ولكن العقبة الأساسية التى كانت تواجه الجمهورية الديمقراطية فى الشمال كانت تتمثل فى نشاط أعضاء الحـــزب البرجوازى و « دونج منه هوى » ومن يشدون أزرهم من الصينيين ..

ولتفادى ضربات هذه العناصر المعادية هى وســـــادتها من الصينيين فقد صدر قرار « بحل » الحزب الشيوعى للهنـــد الصينية فى نوفمبر ١٩٤٥ .. ولعلها كانت أول وآخر مرة « يحل » فيها حزب شيوعى نفسه وهو فى السلطة .. وهذا الحل يختلف بطبيعة الحال عن « الحل » الذى اقترحه براودر فى الولايات المتحدة .. فالحزب الشيوعى فى الهند الصينية لم يحل على الاطلاق من الناحية العملية .. ولكنه فقط مارس نشاطه بصورة سرية .

ولما كانت الحكومة تدرك ضعف فرص نجاح أعضاء الحـــزب البرجوازى فى المعركة الانتخابية أمام مرشحى « ڤييتمنه » فانها

قد وافقت على أن تخصص لهم عددا من المقـــاعد فى الجمعية الوطنية ..

ومضى يوم واحد .. وفى اليوم التالى استقال قادة الحزب البرجوازى وقادة « دونج منه هوى » من الحكومة .. ان هؤلاء القادة الذى نسى معظمهم اللغة الڤيتنامية قد أصابهم سير الأحداث بارتباك شديد لقد كانوا يتصرفون أكثر فأكثر مثل أمراء الحـــرب الصغار .. أما سكان هانوى فقد كانوا من الذكاء بحيث اكتشفوا بسرعة طبيعتهم الحقيقية عندما شاهدوا هؤلاء العائدين من المنفى وهم يندفعون فى شوارع المدينة بسيارات أمريكية فخمة تحمل على جانبيها حراسا من حاملى التومى ـ جن .

ولما انسحبت القوات الصينية من الڤيتنام .. انسحب معظم هؤلاء القادة معها وبعد أن غادروا البلاد اكتشفت جثث كثيرين من مناضلى « ڤييتمنه » ومعها الأسلحة التى استخدمت فى الجريمة التى دبرها هؤلاء الساسة السفاحون فى هانوى .

وعلى أية حال فان انسحابهم قد زاد من قوة حكومة الجمهورية الديمقراطية .

ولقد مكن مجرى الأحداث التى تلت توقيع الاتفاقية المؤقتة مع فرنسا فى ٦ مارس .. الحـــكومة الديمقراطية من أن تستجمع قواها : ولكن سرعان ما اتضح ان هذه الفسحة من الوقت التى كفلتها الاتفاقية المؤقتة لن تستمر طويلا .

فان النوايا الحقيقية للفرنسيين قد كشفت عنها تصرفاتهم فى لاوس حيث تمكنت الحكومة المستقلة التى أعلنت فى ١٢ أكتوبر أن تستمر مدة أطول من زميلتها التى قامت فى كمبوديا .

وفور توقيع اتفاقية ٦ مارس مع ڤيتنام شنت فرنسا حربها

ضد لاوس لاعادة احتلالها وتدفقت القوات الفرنسية من كبموديا وعبر وسط الڤيتنام مستخدمة نفس الخبرة القديمة التى طالما استخدمتها .. خبرة ضرب دول الهند الصينية ببعضها البعض ..

وكانت المعركة الأساسية فى مدينة « ثاكن هست » (ولاية فى كونج) فى ٢١ مارس ١٩٤٦ ودمرت المدينة تدميرا شاملا .. وجرح الأمير سوفانا فونج الذى كان يقـــود بنفسه قوات لاوس جرحا خطيرا .. ولكنه قاد انسحابا رهيبا عبر النهر الى تايلاند .

والى نفس الاتجاه ما لبثت الحكومة نفسها أن انسحبت .. وبعد عدة أشهر أعاد الفرنسيون « ساڤانج ڤونج » الى عرش لاوس .

ان تجربة لاوس قد أوضحت ان الفرنسيين لم يفاوضـــوا حكومة الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية الا لأن توازن القوى بين الجانبين لم يسمح فى ذلك الوقت بأى حل آخر .. ففى لاوس حيث كانت علاقات القوى فى صالحهم .. لم يضيعوا وقتا فى مثل هذه الشكليات .

وقد أكد مجرى الأحداث صحة هذا الاستنتاج .. فالفرنسيون قد رفضوا من الناحية العملية ايقاف اطلاق النار فى قتالهم مع قوات حرب العصابات التابعة للجنة التنفيذية للجمهورية الديمقراطية فى « نام بو » (جنوب الڤيتنام) وأبدوا استخفافهم بنصـــوص الاتفاقية التى تقول باجراء استفتاء عام بشأن وحدة أقسام البلاد الثلاثة .. وذلك بتأسيسهم لجمهورية ذات حكم ذاتى فى شوشين الصينية بل وحتى فى شـــمال الڤيتنام نفسها حاولوا استفزاز الحكومة الديمقراطية بفرضهم على سبيل المثال الحصار على ميناء « هاى ڤونج » .

وأبدى الڤيتناميون صبرا عظيما ..

واستمرت المفاوضات بين الجانبين فى « دالات » بالفيتنام وفى « فاونتن بلو » بفرنسا .. وفى هانوى نفسها ..

وعقب مؤتمر « فاونتن بلو » وقع هوشى منه فى ١٤ سبتمبر مع الحكومة الفرنسية « اتفاقا عمليا » أكد اتفاقية ٦ مارس وترك باب المفاوضات مفتوحا لمحادثات مقبلة . ولكن موقف فرنسا من مشكلة توحيد الفيتنام ومسألة العلاقات الدبلوماسية بين الجمهورية الفيتنامية والاتحاد الفرنسى .. وفوق كل ذلك مواقفهم العملية فى الفيتنام .. وفى مجرى المفاوضات لم يترك سوى القليل من الأمل فى اجراء مفاوضات ناجحة ..

والمتبع للوثائق المتعلقة بالمفاوضات يلاحظ سمتين أساسيتين أولهما الموقف الوفائى للفيتناميين واستعدادهم لتقديم ضمانات لحماية المصالح الاقتصادية والثقافية الفرنسية فى الفيتنام واستعدادهم لاعطاء الخبراء الفرنسيين الأولوية فى عملية التنمية الصناعية .. وثانيهما هو العجز الواضح من جانب الفرنسيين عن ادراك طبيعة التغييرات السياسية الجديدة التى حدثت فى الفيتنام .

وخلال مفاوضات « فاونتن بلو » قال هوشى منه فى حسم لأحد الدبلوماسيين الفرنسيين « اذا أجبرنا على القتال .. سوف نقاتل .. سوف نقدم عشرة شهداء مقابل كل قتيل منكم .. ولسوف تكونون أنتم أول من يتعب » .

ثم أزفت الساعة ..

وما ان حل شهر أبريل حتى أحس الفيتناميون أن هناك توجيهات تعطى من الجنرال « فاللى » القائد العام للقوات الفرنسية فى شمال الفيتنام الى قادة الوحدات الفرنسية تدعوهم أن يتخذوا الاجراءات الكفيلة بالمحافظة على الثروات الفرنسية وأن يضعوا خطة

محكمة هدفها تغيير خطة عملهم تدريجيا للتحول من مجرد قوات « للاحتلال » الى « انقلاب للاستيلاء على السلطة » .

وبعد ستة أشهر .. وبالرغم من المفاوضات و « الاتفاقات » بدا ان الفرنسيين يستعدون لوضع هذه الخطة موضع التطبيق .

وفى ١٩ نوفمبر منع الفرنسيون مكاتب الجمارك الڤيتنامية من تحصيل الرسوم فى « هاى ڤونج » وتبودل اطلاق النار .

وفى ٢٣ نوفمبر قصفت السفن الحربية ميناء « هاى ڤونج » فقتلت ٦٠٠٠ ڤيتنامى .

واستمرت حدة التوتر فى الزيادة .. وفى منتصف ديسمبر احتلت القوات الفرنسية عددا من مكاتب الحكومة الڤيتنامية وطالب الفرنسيون بتجريد قوات المليشيا الڤيتنامية من السلاح .

وفى ١٧ ديسمبر فتحت الدبابات الفرنسية نيران مدافعها على أحد الأحياء السكنية فى هانوى ..

وفى ١٩ ديسمبر شنت القوات الفرنسية هجوما عاما على الڤيتناميين .

وفى ٢٠ ديسمبر وجه هوشى منه ـ ذلك الرجل الذى يشهد له حتى الفرنسيون بعدم لجوئه الى العنف الا مكرها ـ وجه نداء للمقاومة الوطنية ..

وامتد العدوان الفرنسى .. الذى بدأ فى جنوب الڤيتنام منذ ١٥ شهرا .. امتد الى كل أنحاء البلاد .

أى حرب كانت هذه الحرب .. التى كتب عنها الكثير وتضاربت حولها الأقوال ؟

عندما وصلت الى الهند الصينية كنت أعتقد اعتقادا خاطئا هو ان هذه المقاومة المسلحةكانت مجرد عملية حربية خالصة .

ولكن الحقيقة هى ان تلك المناطق التى تشتعل فيها المقاومة كانت مجتمعا متكاملا تقوده حكومته الفيتنامية الخالصة .. وقد استمرت هذه الحكومة فى البقاء .. حتى انها كانت تجمع الضرائب من المناطق المحتلة .. ولم يكن الأمر كما حاول الفرنسيون أن يصوروه وكما صورته الصحافة المحترمة فى البلدان الرأسمالية لم تكن حرب الفيتنام مجرد مجموعة من العصاة يثيرون المتاعب وانما كانت فى حقيقتها حكومة شرعية تقاوم غزاة يتلخص كل ما يدعونه من حقوق فى أن أجداد أجدادهم قد احتلوا هذه البلاد فى القرن الماضى .. وفى انهم بالنسبة للجيل الحاضر ـ يملكون من القوة ما يمكنهم من استعادة هذه الأراضى .

وكان هناك اعتقاد خاطىء آخر يسيطر على .. لعل سببه هو اننى استرالى وتسيطر على مخيلتى تلك المساحات الشاسعة التى يتكون منها بلدى .. فعندما كانوا يقولون ان « فييتمنه » تتمركز فى داخل البلاد .. كنت أتصور ان هناك مسافات شاسعة تفصل بين القواعد الرئيسية للفرنسيين وبين القوات الفيتنامية .. ولكن الحقيقة هى انه لم يكن يفصل بين مقر القيادة الفرنسية فى هانوى وبين المكان الذى يمكن أن توجد فيه حكومة الجمهورية الديمقراطية .. الا مسافة ٨٠ ميلا تقريبا أى بضع دقائق بالطائرة ..

ان حروبا قليلة هى التى يبدو الطابع الانسانى واضحا فى أحد أطرافها .. والطابع الهمجى واضحا فى الجانب الآخر ..

وفى هذه الحرب كان الناس يقتل بعضهم بعضا .. بالعشرات والمئات والآلاف .. ونحن عندما نقول ان الطابع الانسانى كان يطبع

الجانب الڤيتنامى فى الحرب وان الطابع الهمجى كان يدمغ الجانب الفرنسى فيها .. لا نعنى بطبيعة الحال ان كل محارب فى صفوف الڤيتناميين كان انسانا خالصا .. وان كل محارب فى صفوف الفرنسيين كان وغدا خالصا .. ولكننا نعنى ان الطابع السياسى والاجتماعى للحرب كان ايجابيا فى جانب وسلبيا فى الجانب الآخر .

ان المكان الذى يتخذه كل محارب يحدد طبيعة الحرب التى يشنها ..

فالفرنسيون يريدون العودة ليعيدوا النظام الاستعمارى القديم معتمدين على القوة .. ولقد قال ديجول فى ١٩٤٦ « لسوف نعود الى الهند الصينية .. لأننا **أقوى** » .

أما الڤيتناميون فقد كانوا يدركون بدورهم ان هذه هى فرصتهم التاريخية .. وان الاستعمار الفرنسى تشد أزره القوى الأمريكية سوف يعيدهم بالتأكيد الى عهود الذل التى عانوا منها طويلا ..

لكى يحيا الڤيتناميون كانوا بحاجة الى الخبز .. الى تعليم الشعب .. الى ايقاظ القيم الثقافية والروح الوطنية فى ارتباط بالأممية .. الى تغذية المشاعر الانسانية النبيلة فى شعبهم .

أما الفرنسيون فقد كانوا بحاجة الى عكس كل ذلك تماما .. ودمغ هذا حربهم بطابع معين ..

لقد أخذت المقاومة فى تعليم الشعب القراءة والكتابة .. فالجهل حليف مخلص للمستعمرين .. أما الفرنسيون فقد كانوا يدمرون فصول محو الأمية فى المناطق المحتلة .. ويطاردون مدرسيها بنفس الحماس الذى يطاردون به كوادر الحكومة الڤيتنامية .. أما الطائرات الفرنسية فقد كانت تتصيد تجمعات الأهالى خارج القرى التى يبدو انها حلقات دراسية .. وحينما يحتل الفرنسيون أية قرية .. كانت

المدرسة هى أول مبنى تشتعل فيه النيران .. ولقد كان على الأطفال فى المناطق المحررة أن يذهبوا الى مدارسهم ليلا .. لأن الطائرات الفرنسية كانت تجعل استمرار الدراسة أمرا مستحيلا أثناء النهار .

ولقد شنت المقاومة الحرب ضد الجوع .. فالجوع هو أيضا الحليف المخلص للمستعمرين الفرنسيين .

« كيف ندمر محصول الأرز » كانت هذه هى المشكلة الأساسية التى تواجه المستعمرين الفرنسيين .. تماما مثلما كانت مشكلة « كيف نزيد محصول الأرز » تشغل بال قوات المقاومة ..

لقد وصف الصحفى الفرنسى روبرت جوبليان فى احدى برقياته عن الحرب تلك الجهود المضنية التى كان يبذلها الفرنسيون لكى يكتشفوا ويدمروا مخازن الأرز السرية المتناثرة فى كل أنحاء البلاد .. لتؤمن الغذاء اللازم لرجال العصابات والقوات النظامية عند انتقال عملياتها من مكان لآخر .. لقد وصف الصعوبة البالغة التى كانت تواجه الفرنسيين فى الحصول على معلومات من السكان المحليين عن أماكن هذه المخازن .. وحتى عندما تكتشف مثل هذه المخازن فان المشكلة لم تكن قد حلت بعد .. « فكميات الأرز الكبيرة لا يمكن أن تشتعل فيها النيران بسهولة .. وأية كميات من الجاز أو النابالم لم تكن تضمن احتراق كل الأرز » ويستطرد الصحفى قائلا « ومن أحسن الوسائل التى اتبعوها ذبح بقرة ثم تركها تنزف دماءها فوق كومة الأرز .. ولكن الانسان لا يجـــد فى جميع الأحـــوال .. لا البقرة .. ولا الوقت الكافى لذلك » (١) .

هـــذا ما كان يشغل بال حاملى لواء المدنية من الفرنسيين والأمريكيين .

---

(١) روبرت جوبليان ص ٢٢ La Fin do illusiano .

وأنشأ الفرنسيون « مناطق بيضاء » حول هانوى حرمت فيها زراعة الأرز .. ومن يزرع الأرز .. يحكم عليه بالاعدام !! ولأن الفلاحين العاملين فى حقولهم فى مناطق المقاومة كانوا يحصدون برشاشات طائرات ممثلى أرقى الحضارات فان أعمال الزراعة كانت تمارس ليلا ..

وكانت نيران الحرب تزداد حدة واشتعالا بين الجانبين فى أوقات حصاد الأرز ..

وقد تميز هذا الصراع المرير من أجل المجاعة من جانب وضد المجاعة من جانب آخر .. تميز بتدمير الفرنسيين المستمر للخزانات وأعمال الرى وبمثابرة رجال المقاومة على اعادة بنائها من جديد .

ولقد صورت حقيقة المنطق الفرنسى وحقيقة تصرفاتهم فى فترة الحرب .. صورته بجلاء وسفور فى تلك الكلمات الغريبة فى صراحتها التى قالها « چوزيف بيتنجر » عن الوضع عقب معركة « دين بيان فو » قال « ان انقاذ كل البلاد من خطر الشيوعية ليس ممكنا فى هذه المرحلة الا بابادة كل الشعب الڤيتنامى هم وماشيتهم وأرزهم .. الا بقصف كل الأماكن الآهلة بالسكان .. فان عصابات « ڤييتمنه » الحسنة التسليح تحدق بكل قرية وبكل مدينة فى البلاد » (١) .

لكى « ننقذها » يجب أن « ندمرها » .. هل هناك ما هو أوضح من ذلك ؟

ولكن النصر لم يكن لحارقى الأرز ، وانما كان لزارعى الأرز .. لم يكن لهادمى المدارس وانما لبنائيها ..

---

(١) ڤيتنام : السنوات الخمس الأولى ص ١٤٠ .

ان الفيتنام بلد صغير زراعى متخلف يفتقر الى الصناعة والخبراء وكل شىء يمكنه من أن يكون قويا من الناحية العسكرية .. وفى مواجهة الفيتناميين كان الفرنسيون بصناعتهم المتقدمة جدا .. تساندهم الصناعة الأمريكية الضخمة .. ومع ذلك فقد كسب الفيتناميون فى النهاية » .

ولقد صدر كتابان بالانجليزية يتحدثان عن هذه الحرب ويتعين على كل من يريد أن يفهم هذه الحرب وأسباب انتصار الفيتناميين فيها قراءتهما وهما « سوف تنتصر المقاومة » بقلم « ترونج شينه » و « دين بيان فو » بقلم « فو ينجويان جياب » (١) .

وكتاب « سوف تنتصر المقاومة » وهو كتاب ضرورى لكل رجال المقاومة أصدره فى ١٩٤٧ أحد القادة المرموقين فى الحكومة الديمقراطية الفيتنامية .. وهو ملىء بالشجاعة والذكاء .. وقد كتب فى بداية الحرب حينما كان طريق النضال أبعد من أن يكون واضح المعالم بالنسبة لكل الناس .. ولكنه برغم ذلك يحدد بثقة مطلقة .. لا نظير لها طريق المستقبل .. ويؤكد انتصار الفيتناميين ..

وفى هذا الكتاب يتحدث « ترونج شينه » عن حرب الفيتنام قائلا « اننا نخوض حربا ثورية .. حربا عادلة .. حربا شعبية وشاملة وطويلة الأمد » .

هى حرب ثورية لأنها ضد الامبراطورية وضد الاقطاع .. وهى حرب عادلة لأن الفيتناميين يحاربون على أراضيهم ليصدوا غزاة أجانب .

وهى حرب شعبية لأن وحدة كل الشعب والتفافه حول الحرب هى أول شرط من شروط نجاحها ..

---

(١) أصدرتهما دار النشر باللغات الأجنبية .. هانوى .

وهى حرب شاملة لأنها لا يجب أن تشن فقط فى المجال العسكرى وانما أيضا فى المجال السياسى والاقتصادى والثقافى ..

وهى حرب طويلة الأمد لأنه فى بداية الحرب كانت قوات المقاومة أضعف من قوات الأعداء .. وكان عليها أن تعزز قواها وهى تحارب وأن تضعف من قوى العدو .. وأن تتحول من مركز الضعف الى مركز القوة .

ان تناقضات مستحيلة الحل تكبل العدو .. فهو لا يمكن أن يحقق هدفه الأساسى من الحرب ــ أى احتلال البلاد ــ الا اذا بعثر قواته فى كل المناطق المحتلة . ولكنه سرعان ما يضع نفسه فى مأزق ببعثرة هذه القوات .. التى ستصبح فريسة سهلة للفرق الفيتنامية .. واذا ما حاول من ناحية أخرى أن يجمع قواته للهجوم فانه يصبح مستحيلا عليه أن يسيطر على كل مناطق البلاد .. وبهذا يفشل فى تحقيق الهدف الأساسى لخوضه غمار الحرب .

« اننا اذا ما بدأنا من تحليل التناقضات التى تصيب الأعداء تحليلا دقيقا .. واذا ما ألهبنا حماس جيشنا ــ الذى ما زال ضعيفا من الناحية العسكرية ــ ولكنه أثبت فى المعارك بطولة نادرة .. اذا ما بدأنا بذلك فان استراتيجيتنا تتلخص فى أن تجمع قواتنا فى مواجهة قطاعات العدو المكشوفة نسبيا فى تدمير قواه البشرية وفى تحرير جزء من الأرض .. واجباره على بعثرة قواته وبذلك نخلق ظرفا مواتيا لتحقيق انتصار حاسم » .

ان كتابات « تورنج شينه » و « ڤونيجويان چياب » بالاضافة الى التطبيق العملى لأساليب الحرب الڤيتنامية تعتبر فى الحقيقة تطبيقا خلاقا للعلم العسكرى الثورى الماركسى اللينينى .. مطبقا على الواقع الڤيتنامى .. ولقد أمكن تطبيق هذه المبادىء فى كل من

الفيتنام والصين لأن الحرب كانت فى هذين البلدين .. ذات أهداف ثورية .. ولأنها كانت مؤيدة من الشعب .

لقد درس ـ هؤلاء الذين خاضوا حروبا ضد شعوب البلدان المستعمرة أو التى كانت مستعمرة . درسوا باهتمام كتابات ماوتسى تونج عن الشئون العسكرية .. والجنرالات الفرنسيين يتبعون فى حرب الجزائر خطط ماوتسى تونج .. ووفقا لما يقوله الكاتبين الأمريكيين « وليام . ج ليدرز » ، « يوچين بيردك » (١) فان تطبيق خطط ماوتسى تونج العسكرية هو السبيل الوحيد لانقاذ قضيته « العالم الحر » فى آسيا .. وفى جنوب الفيتنام يدعى الأمريكيون أنهم يتبعون مبدأ « ان الحرب هى السمك .. والبحر هو الجماهير » فى حروبهم لقهر شعب جنوب الفيتنام (١) .

ان ذلك أمر يبعث الآلة نفسها على الضحك .. فطالما ان أى جيش يشن حربه ضد الشعب فان أى « تطبيق » لتعاليم ماوتسى تونج لن يعدو أن يكون مزيجا مشوها لاستراتيجيات وخطط عسكرية مختلفة ولن يحقق تطبيقها بأى حال من الأحوال الا نقيض ما هدف اليه مؤلفوها .

فطالما ان **المنهج السياسى** لم يتغير فى الجزائر وفى جنوب الفيتنام سيظل الشعب هو « الماء » أما جيوشهم فستظل باستمرار « الزيت » .

كيف تم بناء قوات المقاومة ..

كتب « ترونج شينه » « ان نضالنا الشعبى المسلح يتخذ فى الفترة الراهنة ثلاثة أشكال : ميليشيا الدفاع عن النفس .. قوات العصابات .. القوات النظامية . وفصائل الميليشيا وقوات العصابات

---

(١) فى كتاب « الأمريكى القبيح » .

وكل الشعب هدفها هو حماية ومساندة القوات النظامية . وفصائل الميليشيا الآتية من قرى وأحياء مختلفة والتى تتجمع مع بعضها لتحارب العدو بامكانها أن تكون فرقة عصابات محلية .. وفرق العصابات القوية التى تتجمع مع بعضها لتقاتل العدو بامكانها أن تكون فرقا نظامية وفى مجرى صراعنا الطويل الأمد بأن هناك أمام كل الناس من الشخص العادى الى الجندى النظامى مراتب لانهائية من تطوير عملهم » .

وهو يصف هذه الحرب بأنها **حرب قوات متداخلة** فكل فريق يوجه ضربات نفاذة الى مؤخرة الآخر .. والتداخل بين قواتنا وقوات العدو يشبه مشطين تداخلت أسنان كل منهما فى الآخر . وهى **حرب غير نظامية** : اتلاف المحاصيل .. وتدمير الحصاد وبعثرة المناطق المحررة فى منطقة وسط الڤيتنام الضيقة .. ان الحرب تتسم بأنها غير نظامية .. مليئة بالخسائر والوحشية .. وهى أيضا **حرب بلا جبهة** . فجيشنا وقوات الميليشيا يحاربان العدو فى كل مكان .. أحيانا فى مؤخرته .. وأحيانا فى وسط تجمعاته .. وفى بعض الأحيان يتقدم العدو الى مناطقنا فتهاجم قواتنا أجنحته وأطرافه بدلا من أن تشن هجوما على نطاق جبهة واسعة .. فنجبره بذلك على أن يرهق نفسه بمحاولة تجنب هذه الضربات الجانبية .. انها حرب بلا مؤخرة ولا خطوط قتال محددة وهى أيضا **حرب تطويق** فالعدو يحاول أن يستولى على مدن كثيرة وعلى خطوط المواصلات الرئيسية ليتمكن بذلك من محاصرتنا .. ولكنه عندما يخترق نطاق الحصار الذى نفرضه على المدن والمراكز التى يحتلها « عندما يتقدم الى الريف فانه لا يلبث أن يصبح محاصرا بقواتنا .. ان قواعد فرق العصابات الموجودة فى المناطق التى فى قبضة العدو قد تبدو وكأنها جيوب يحاصرها العدو .. ولكن هذه العصابات تشكل مع المناطق المحررة شبكة هائلة تحيط العدو .. وحربنا أيضا **حرب احراق الأراضى** « فكل ما هو مفيد للعدو وضار لنا يجب

أن يحرق وأن يدمر اذا لم يكن بامكاننا أن نستفيد منه نحن .. وتاكتيك الأرض المحروقة ليس ابتكارا ڤيتناميا .. ولكن المدى الواسع الذى نطبق به نحن هذا التاكتيك يدهش الكثيرين .

ويلخص « تورنج شينه » كلماته قائلا .. « وباختصار فان الحرب ضد الفرنسيين حرب ابادة شاملة .. حرب مخيفة .. ان العدو متوحش ونحن لا نهاب .. ان الطرفين يشتبكان فى صراع متلاحم مميت ولسوف يحسم هذا الصراع مسألة النصر أو الهزيمة .

ولكن المقاومة كانت شاملة .. فالنصر فى النضـــال المسلح مستحيل اذا لم تمهد له انتصارات أخرى ذات طابع سلمى .

فخلال فترة الحرب تعلم تسعة ملايين من السكان القــراءة والكتابة فى المناطق المحررة .. ان الروح التى ألهمت الحــكومة الجمهورية الديمقراطية فى الأيام الأولى لتأسيسها .. قد استمرت تلهمها طوال حرب المقاومة وصاح « هوشى منه » « كل من يعرف حرفا واحدا يعلمه لجاره » .

وقد استخدمت وسائل غاية فى الذكاء والمهارة فى تعليم الناس .. فاليوم تعلق لوحة كبيرة عليها حرف « أ » خارج القرية .. وغدا يعلق حرف « ب » وهكذا حتى تكرر حروف الأبجدية حتى يتمكن كل السكان من معرفتها .. واجادتها اجادة تامة .

ولكى يحفز الأميون على التعلم ولكى ينمى فيهم تقدير العلم كانت تخصص فى بعض مداخل القرى أبواب لدخول الأميين وأخرى لدخول المتعلمين .

ويقوم الشبان والأطفال باختبار بعضهم البعض .. فالشبان الذين لا يقبلون على التعلم تمتحنهم فتيات فى مثل سنهم فلا يلبثون أن يهتموا بدروسهم ويستذكرونها . واستمرت أيضا الجهود التى

بذلتها الجمهورية الديمقراطية فى أيامها الأولى لزيادة الانتاج الزراعى .. استمرت طوال فترة المقاومة .

وفى الأيام الأولى للحرب .. كان فى كل بيت من بيوت الڤيتناميين « وعاء لأرز المقاومة » ليضع فيه السكان كل يوم حفنة من الأرز يحتجزونها من طعامهم .. وفى نهاية كل شهر يمر رئيس القرية ليجمع هذا الأرز ويسلمه لقوات المقاومة . وفى كثير من الأحيان كان الڤيتناميون يحتفظون « بأوعية أرز المقاومة » فى أكثر الأماكن تقديسا فى منازلهم .. فى مذبح الأسلاف .. فيوضع هناك تحت صورة هوشى منه .. وهكذا كان الڤيتناميون يعبرون عن ايمانهم العميق بحركة المقاومة .

وكان على كل كادر من كوادر الحكومة أن يزرع بنفسه حديقته ليتكفل بحاجته من الخضراوات . وبالرغم من كل ما ارتكبه الفرنسيون من تخريب فان الانتاج الزراعى فى مناطق المقاومة كان فى نهاية الحرب أضعاف أضعاف ما كان عليه عند بدايتها .

لقد كتب « تورنج شينه » يقول « ان المدن التى كانت فيما مضى مراكز للثقافة قد أصبحت الآن وقد احتلها العدو أماكن مظلمة وموحشة » أصبحت مرتعا « للثقافة » الوضيعة للمعتدين وعلى العكس من ذلك فان الريف الذى كان فيما مضى مكانا مظلما ومتخلفا يصبح الآن مكانا متحضرا ومتقدما » (١) .

ربما لم تكن الروح الوطنية الحقة للمقاومة الڤيتنامية واضحة فى أى مجال وضوحها فى مجال الثقافة .. فمن الناحية العملية لقد غادر كل المثقفين البارزين المدن الى مناطق المقاومة .. وعندما وجه « بولاريه » الحاكم العام الفرنسى نداءه فى ١٩٧٤ الى « الصفوة

---

(١) « سوف تنتصر المقاومة » ص ٦١ .

الڤيتنامية » élite لمساعدته فانه كان فى الواقع يبذل جهـــدا ضائعا لأن كل هذه « الصفوة » كانت هناك مع هوشى منه .. فى الأدغال .

لقد كان مؤلفوا الأغانى يغنون أغانيهم بأنفسهم لأفراد الجيش والشعب .. ثم يناقشوها مع مستمعيهم ويجرون فيها التعديلات المقترحة .. وبهذه الطريقة كانت أغانى المقاومة تأخذ طريقها الى الملايين .

وازدهر الشعر ازدهارا عظيما ..

فقد أصبحت أشعار « توهيو » أنشودة فى أفواه الأمهات .. يغنينها لأطفالهن .. أما « تومو » مؤلف الكوميديات والشـــعر الفكاهى .. فقد شاهد الملايين وهى تضحك من فكاهاته .

واستمر الرسامون فى الانتاج رغم نقص الامكانيات . وكان كل فنان منهم يحمل معرضه على ظهره فى لوحة ويجوب بها من قرية الى أخرى ولقد قتل « تونجوك ڤان » أحد مشاهير الرسامين خلال عمله فى معركة « دين بيان فو » .

أما « نام كا أو » وهو واحد من مشاهير الكتاب القصصيين الڤيتناميين فقد قبض عليه وهو يعمل فى احدى المناطق .. وأعدم رميا بالرصاص .

ان الثقافة الڤيتنامية القائمة على أساس « وطنى وشعبى وعلمى » ــ وكان هذا هو شعارها ــ كانت أقوى من أن تحطمها الحـــرب .. بل هى عـــلى العكس من ذلك .. نمت وتقـــوت فى مجرى النضال .

وقد كان تدريب الأطباء يستغرق أربعة سنوات .. يدرسون فى الجامعة ستة أشهر ويعملون فى ميدان القتال الستة أشـــهر

الأخرى .. وكانت نسبة الخسائر عالية جدا بين هؤلاء الطلاب .. ولكن الأطباء الذين تخرجوا منهم كانوا على درجة عالية من الخبرة وأنتجت معامل الأدوية التابعة للمقاومة والمقامة فى الأدغال أنتجت الكينين والبنسيلين .. وطبق الأطباء أساليب فلاتون فى العلاج عن طريق ترقيع الأنسجة (١) .

أما من ناحية الصناعة فقد كان الاهتمام الأساسى للمقاومة هو انتاج الأسلحة لقد انتزع الڤيتناميون كثيرا من الأسلحة من الفرنسيين ولكن المعركة كانت تتطلب مزيدا من السلاح .

وفى أدغال « ڤييت باك » كان رجال المقاومة يحصلون على الحديد الزهر من أفران صغيرة للصهر تشبه تلك التى استخدمتها الصين فيما بعد فى سنة ١٩٥٨ فى حركة « القفزة الكبرى فى الانتاج » وصنعت القذائف والخراطيش من السكاكين والآلات الحادة وأسلحة المحاريث .

وفى المعامل التى أنشئت فى كل أنحاء البلاد كان كل متر ينتزعه رجال المقاومة من قضبان السكك الحديدية يتحول الى أسلحة .

وكانوا يحصلون على البارود بكثرة من القنابل الفرنسية التى لم تنفجر .. ولكنهم أيضا كانوا ينتجونه على نطاق واسع بوسائل حرفية .

وفى معركة صنع السلاح برز اسمان لامعان هما « نيجوجيا كا هام » وهو عامل فى ورش السكك الحديد فى « جيالام » والمهندس « تران ديانجيا » وهو مهندس تلقى تدريبا فى مصانع الأسلحة

(١) طريقة العلاج بترقيع الأنسجة طريقة حديثة ومعقدة يطعم فيها الجسم بأنسجة حية فى أماكن الاصابة لتنمو مع الجسم من جديد وكأنها قطعة منه . (المترجم)

الألمانية ثم عاد للوطن فى ١٩٤٦ استجابة لنداء هوشى منه وهو الآن نائب وزير الصناعة فى حكومة الجمهورية الديمقراطية . وقد اخترع هذا المهندس عدة اختراعات هامة من بينها صاروخ استخدم بنجاح كبير ضد المواقع الفرنسية فى حملة الحدود ١٩٥٠ .

ولقد كانت المشكلة الخطيرة التى تواجه المقاومة هى مجابهة هجمات الطائرات .. ولم تستطع المقاومة أن تحصل على طائرات طوال فترة الحرب .. ولهذا كان عليها أن تفرض سيطرتها تماما على الأرض حتى تعوض سيطرة الفرنسيين على الجو .

ووضع نظام لبناء مخابىء ضد الغارات فى كل القرى .. وحتى الأبقار والخنازير كانت لها مخابئها .. ويقال ان الأبقار تعلمت كيف تتوجه بنفسها الى مخابئها فور بدء الغارات .

والبيان التالى الذى نشر فى احدى القرى فى منطقة المقاومة فى دلتا النهر الأحمر عقب احدى الغارات الجوية .. يوضح أهمية هذه المخابىء وفاعليتها ويوضح أيضا الروح العالية التى كانت تسود رجال المقاومة .

« فى الساعات .. من يوم .. أغارت ١٦ طائرة على قرية .. وأسقطت عليها قنابلها .. وقد دمرت القنابل مصيدة فيران .. وأصابت دجاجتين صنعنا منهما شوربة على الفور .. » .

امضاء .. « قائد قوة العصابات »

لقد استخدمت كل الوسائل المعروفة وغير المعروفة لوضع كل طاقات البلاد فى خدمة قضية المقاومة ..

لقد حضرت المصايد لتتصيد الفرق الفرنسية وفى قاع الحفرة رشقت عصى البامبو مغموسة فى سم قاتل .. وفى جنوب الفيتنام استخدم رجال العصابات حرابا من البامبو كأسلحة واستخدم

الفرنسيون أجهزة للكشف عن الألغام .. فاستخدم الڤيتناميون ألغاما مصنوعة من البامبو أو الفخار لتضليل هذه الأجهزة ..

لقد كان رجال المقاومة ينتقلون بلا أثقال .. جربندية فوق الظهر تزن عشرة كيلوجرامات هى كل ما يحتاجه رجل المقاومة .. لقد كانوا يحاربون وهم حفاة .. فهناك مثل شعبى يقول « الأقدام هى أحسن حذاء .. فالحذاء سريعا ما يبلى ولكن الأقدام تزداد متانة باستمرار » .

ولم يكن هناك زى رسمى موحد .. ولكن لكل وحدة زيها الخاص بها .. وفقا لطبيعة المكان .. فقد تكون خضراء .. أو صفراء أو بنية بل هى فى بعض الأحيان ذات لون بنفسجى جذاب .

والأرز والملح هما الغذاء الأساسى .. واللحم فى أيام الأعياد فقط .. وقد حكى لى صديق ڤيتنامى انه فى أحد الأعياد ذبحت الفرقة خنزيرا .. وقبل أن يطهى اختطف نمر نصفه .. وقضت الفرقة ليلة العيد بطولها وهى تطارد الخنزير .. وأخيرا عثرت على بقاياه فى الفجر .

وكانت نسبة أمراض سوء التغذية مرتفعة .. كانت تكون ٥٠٪ من مجموع المرضى .. وخاصة فى فصول الشتاء الباردة فى شمال الڤيتنام وقد شنت حملة واسعة بين صفوف الجيش والشعب من أجل نشر العادات الصحية .. وانتشر شعار « الأشياء الثلاثة النظيفة » الملابس نظيفة .. الأكل نظيف .. الحياة نظيفة .. ولقد كان هذا الشعار مفيدا جدا للملايين الڤتناميين .. وشجع كل الناس على النوم داخل ناموسية .

لقد كانت حياة رجال المقاومة حياة قاسية الى اقصى حد .. ولكنها كانت حياة مرحة أيضا .. ففى كل ليلة سبت كانت تقام

حفلات للغناء الجماعى .. وعقب فتح الحدود .. كانت هناك « أعجوبة الأعاجيب » كانت هناك أفلام سينمائية .. ولما كان من غير الممكن أن يحضر الجميع حفلات العرض .. كانت كل جماعة تختار مندوبا أو مندوبين عنها ليحضرا الفيلم ثم يعود المندوب ليحكى قصة الفيلم لهؤلاء الذين لم يحضروه وهكذا دخل الى لغة رجال المقاومة تعبير جديد « أنا ذاهب لأسمع الفيلم » .

واذا ما قارن انسان ما بين حفلات الغناء الجماعى فى ليلة السبت .. وبين حفلات الجنود الفرنسيين فى نواديهم الليلية وبيوت الدعارة وغرز تدخين الأفيون فى هانوى .. تلك الأشياء التى صورت على سبيل المثال فى قصة جراهام جرين « الأمريكى الهادىء » .. اذا ما قارن بين هذه الحفلات وتلك السهرات أدرك قدرا كبيرا من حقيقة الفرق بين الجانبين المتحاربين .

لقد بدأت حرب الڤيتنام والحركات الشبيهة بها فى لاوس وكمبوديا « كمسائل » « محلية » تخص فرنسا وحدها هى ومستعمراتها السابقة .. وقد سميت العمليات العسكرية الفرنسية الأولى ضد قوات الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية بأنها « عمليات بوليسية » وفى فرنسا شنت بعض الدعايات الهامة ضد هذه الحرب تحت عنوان « الحرب التى لا نجرؤ على ذكر اسمها » .

ولكنها فى منتصف ١٩٥٤ أصبحت ذات أهمية عظمى .. أصبحت أهم حدث فى ذلك الوقت وذات تأثير فى التوتر بين المعسكرين الشرقى والغربى .

وعقب معارك استمرت شهرا كان هدفها الأساسى تغطية سحب جميع الأجهزة الضرورية .. انسحبت القوات الڤيتنامية المسلحة من هانوى .. فى يناير ١٩٤٧ .. وانسحبت مصالح الحكومة المركزية الى شمال الڤيتنام فى أدغال « ڤييت باك » وقررت القيادة

الفرنسية أن « تكنسهم » من هناك .. وقيل فى هانوى ان « العملية البوليسية » فى « ڤييت باك » سوف تستغرق حوالى الأسبوع .

وانتظر الفرنسيون انتهاء فصل الأمطار .. واختـــاروا أكثر الأوقات ملائمة للحرب .. ثم هبطت فرق بارشوت فرنسية كبيرة فى منطقة « ڤييت باك » فى ديسمبر ١٩٤٧ .. وبعـد قتال عنيف أمكنهم أن يحتلوا المدن والطرق .. ولكن القرى التى على جانبى الطرق وفى ضواحى المدن ظلت فى أيدى الجمهورية الديمقراطية .. أما المراكز الرئيسية للحكومة الديمقراطية فلم يعثر لها على أثر فقد انسحبت عند وصول الفرنسيين .. ولكنها ما لبثت أن عادت الى مراكزها من جديد عندما عادت الأوضاع الى نصابها .

لقد كانت النتيجة النهائية للعملية البوليسية فى « ڤييت باك » هى احتلال مدينتى « كاو بانج » ، « باك كان » فى مقابل ٣٠٠٠ قتيل خسرهم الفرنسيون .

وكان واضحا أن ثمة شيئا ما كان خاطئا فى حسابات هـــذه الحرب الخاطفة ..

وفى نفس الشهر الذى شهد فشل حملة « ڤييت باك » كتب السفير الأمريكى فى باريس مستر « وليام . س . بوليت » مقالا نشرته جريدة « لايف » الأمريكية تحدث فيه عن وجهة نظره فى الوضع فى الهند الصينية .. وكان الأمريكيون قد اعتادوا أن يدسوا أنوفهم فى السياسة الفرنسية ــ فى ذلك الوقت ــ فبناء على أوامرهم طرد الشيوعيون من الوزارة الفرنسية ــ كتب المستر « بوليت » ليشعل نيران الحملة المعادية « للشيوعية » فى الڤيتنام وليقدم أول اقتراح بتكوين حكومة « مستقلة » لكل الڤيتنام تساندها القــوى الامبريالية لقد كتب المستر بوليت يقول :

« انهم ــ أى الڤيتناميين الذين يقاومون فرنسا ــ قد أصبحوا

الآن « رجال عصابات » (١) .. ولكن نضالهم يمثل مأساة حقيقية .. لأن الشيوعيين قد سيطروا على نضالهم من أجل الاستقلال .. فقلما تجد شيوعيا واحدا بين كل مائة من السكان .. ولكن كل الڤيتناميين يريدون الاستقلال .. وكما التف الفرنسيون حول ديجول لأنه كان رمزا للنضال ضد هتلر .. يلتف الڤيتناميون اليوم حول هوشى منه القائد الشيوعى للڤيتناميين المناضلين من أجل الاستقلال ..

ان ملايينا من الناس يخالفون آرائه السياسية ولكنهم مع ذلك يسيرون خلفه .. « لأنه رمز للمقاومة ضد الفرنسيين » . ويستمر بوليت قائلا « .. ولكن الكارثة سوف تحيق بفرنسا وبالڤيتناميين وكل العالم الحر .. اذا ما خضعت فرنسا لهوشى منه ورفاقه الشيوعيين .. فالڤيتنام وهى امتداد للحدود الجنوبية للصين اذا ما سيطر الشيوعيون عليها سوف يضيفون بذلك اصبعا أخرى لليد الستالينية التى تطبق على الصين » .

ومضى مستر بوليت — الذى أمضى عدة أيام فى سايجون قبل أن يكتب هذا المقال .. — مضى يضع الحلول لمشاكل الڤيتنام فقال :

« ان حل المشكلة الڤيتنامية يتلخص فى قيام نوع من التعاون بين فرنسا والوطنيين الڤيتناميين بهدف القضاء على الشيوعيين » .

« اذا أمكن لفرنسا أن تقتنع أن أيام الاستعمار القديم قد انتهت فان بامكانها أن تحتفظ بكل مصالحها فى الڤيتنام وأن تنهى القتال فى الڤيتنام باتباع هذه الخطوات البسيطة .. » :

١ — منح الڤيتناميين وضعا مماثلا للوضع الذى منحه الرئيس ولسون للفلبيين .. حيث أعلن الحاكم العام فى ١٩١٣ « ان كل

---

(١) ترجمة للكلمة الفرنسية Maquisards

خطوة سوف نخطوها سوف تضع فى اعتبارها استقلال هذه الجزر واعدادها لنيل هذا الاستقلال » .

٢ ـ طرد مندوبى ڤيتنام الذين يمثلون « هوشى منه » الآن فى باريس وأن تعلن فرنسا بصراحة أنها وهى تهدف الى منح الڤيتنام استقلالها فانها لن تسمح بتسليمها لأيدى العملاء السوڤييت .

٣ ـ أن يسمح للوطنيين الڤيتناميين غير الشيوعيين أن يقيموا منظماتهم السياسية والاقتصادية والعسكرية لتسيطر على البلاد ..

٤ ـ وفور تكوين هذه المنظمات نبدأ فى التفاوض مع قادتها حول : ـ

(أ) دستور للڤيتنام يتضمن مادة ـ تشبه تلك التى تضمنها دستور الفلبين ـ تنص على ألا يتخذ الڤيتناميون أية اجراءات ضد المؤسسات والأفراد الفرنسيين .

(ب) معاهدة مثل تلك التى عقدت مع الفلبين تمنح فرنسا بموجبها قاعدة عسكرية وبحرية فى الڤيتنام .

٥ ـ أن يترك للوطنيين الڤيتناميين مهمة كسب القوى الوطنية الأخرى التى تقف الى جانب « هوشى منه » والتى تشكل ثلثى قواته .. وأن تتعاون مع هذه القوى لسحق الشيوعيين الذين هم أشدالناس عداء لنا .. » .

لقد اقتبسنا هذه الفترات الطويلة لا لتبرز ذكاء كاتبها ولكن لنقول ان هذه السياسة قد طبقت بحذافيرها بواسطة الفرنسيين .. وكان نصيبها الفشل الذريع .. وهى ما تزال تطبق الآن على أيدى الأمريكيين فى الڤيتنام الجنوبية ..

واتبع الفرنسيون النصيحة الأمريكية فبدأوا فى الاتصال ببعض الفيتناميين الذين ظلوا بعيدين عن الأحداث طوال السنوات الماضية اذ كانوا يقيمون فى هونج كونج لعدة سنوات وتفاوضوا معهم بشأن تكوين « حكومة » فيتنامية جديدة .. وبدأت المفاوضـــات مع « باوديا » (١) تتقـــدم .. واستمرت المفاوضات طويلا .. بين الفرنسيين وبين مشاهير « الوطنيين الفيتناميين » الأعزاء جدا الى قلب المستر بوليت .. وفى ٥ يونيــو ١٩٤٨ وقعت اتفاقية فى « هالونج باى » فى شمال الفيتنام المحتل بين الحاكم العام الفرنسى و « باوداى » وهى تنص على ان « الفيتنام دولة مستقلة لا تقيده أية قيود الا تلك الناجمة من عضويته فى الاتحاد الفرنسى » .

وفى ٨ مارس ١٩٤٩ وقع « باوداى » فى باريس اتفاقية تعلن تأسيس « دولة الفيتنام » .. وفى ١٤ يونيو ١٩٤٩ أعلن « باوديا » « رئيسا لدولة الفيتنام » .

وهكذا تكونت واحدة من الحكومات « المستقلة » العديدة التى شهدتها سنى الحرب ..

وقد كان لكل هذه الحكومات هدفا واحدا هو أن تكون شيئا ذا وزن يقابل الجمهورية الديمقراطية .. ولكن هـــذه الحكومات جميعا عانت من عيب واحد هو انه سرعان ما اتضح انها جميعا لا وزن لها على الاطلاق ..

وظهر عاملان هامان جديدان .. هما زيادة اعتماد الاستعمارية الفرنسية على أمريكا .. ورد الفعل العنيف الذى أحدثه انتصار

---

(١) لقد ظل « باو داى » يشغل منصب المستشـــار السياسى للرئيس « هوشى منه » حتى ١٨ مارس ١٩٤٦ .. عندما أرسل فى بعثة الى شونج كنج .. ومن شونج كنج .. ذهب الى هونج كونج .. ولم يعد من هونج كونج .

الثورة الصينية فى ١٩٤٩ .. وكان من نتيجة هذين العاملين أن تحولت حرب الهند الصينية وبسرعة الى حرب فرنسية ـ أمريكية .

وشهد عام ١٩٥٠ اعتراف الصين الشعبية والاتحاد السوفييتى ودول المعسكر الاشتراكى الأخرى بحكومة الجمهورية الديمقراطية .. ومن الناحية الأخرى شهد اعتراف أمريكا وبريطانيا والدول الغربية الأخرى « بدولة الفيتنام » .

وفى ٨ مايو سنة ١٩٥٠ أعلن وزير الخارجية اتشيسون ان أمريكا سوف تقدم مساعدات عسكرية لكل من « دولة الفيتنام » ولاوس وكمبوديا ..

ووفى ٢٧ يونيو انتهز الرئيس ترومان فرصة اشتعال نيران حرب كوريا فأعلن وضع « تايوان » تحت حماية الأسطول الأمريكى السابع وأمر بتعزيز القوات الأمريكية فى الفلبين والاسراع بامداد القوات الفرنسية فى الهند الصينية وحكومات هذه المنطقة بالامدادات العسكرية .. وأرسل بعثة عسكرية أمريكية الى هذه البلاد لتعزز العلاقات مع هذه الحكومات ..

وفى ١٩٥٢ أعلن ان المساعدات الأمريكية للقوات الفرنسية أصبحت تغطى تقريبا ثلث العمليات العسكرية فى الهند الصينية وان هذه المساعدات سوف تزاد بشكل خاص .. بهدف مساعدة فرنسا فى اقامة جيوش وطنية لحكومات هذه المنطقة (١) .

وحتى ٣٠ يونيو ١٩٥٤ كانت الولايات المتحدة قد أنفقت ٤٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار على المساعدات العسكرية فى الهند الصينية أى ما يقرب من ثلث مجموع نفقات الحكومات المعادية للشيوعية فى هذه الحرب .

---

(١) نشرة مكتب الاستعلامات الأمريكى ٣٠ يونيو ١٩٥٢ .

وفى المراحل الثلاث التى مرت بها الحرب كانت المرحـــلة التى توازنت فيها قوى الطرفين هى أطول هذه المراحل الثلاث اذ استمرت من بداية ١٩٤٨ حتى ١٩٥٠ .

وقد تميزت هذه السنوات بازدياد مبادرة القوات الڤيتنامية فى الهجوم وأحرزت انتصارات فى الشمال الشرقى (١٩٤٨) والشمال الغربى (١٩٤٩) وفى وسط ڤيتنام (فى معركة ڤان دينه فونج ١٩٤٩) وفى جنوب الڤيتنام (١٩٥٠) .

وعبرت جيوش التحرير الصينية نهر يانجتس واستولت على جنوب الصين فى أبريل ١٩٤٩ ..

وفى ١ أكتوبر أعلنت جمهورية الصين الشعبية ..

وفى سبتمبر ١٩٥٠ شن الجيش الشعبى الڤيتنامى هجمات على المواقع الفرنسية الموجودة على الحدود الصينية فى شـــمال شرق الڤيتنام واستولى على كاوبانج .. واندفعت امدادات فرنسية قوية من لانج سون ولكن الڤيتناميين قطعوا عليها الطريق .. وما لبثت أن تشتت شملها .. أما قائدها الفرنسى الذى كان يسرع بها ليلتقى بقائد الحامية المهزومة على الحدود .. فقد التقى به فعلا ولكن فى معسكرات الأسرى التى أقامها الڤيتناميون .. وعلى الرغم من ان الڤيتناميين لم يهدفوا فى ذلك الوقت الى احتلال « لانج سون » الا أن الفرنسيين وقد تدهورت حالتهم المعنوية .. انسحبوا من هذه المدينة هى الأخرى ..

وهكذا قام اتصال مباشر ولأول مرة بين الجمهورية الديمقراطية والعالم الاشتراكى .. فبعد خمس سنوات من تأسيسها أصبح بامكانها أن تستند ولأول مرة على مؤخرة صديقة .. ان سيطرة الجمهورية الديمقراطية على منطقة الحـــدود تلك العملية التى سميت « فتح الحدود » قد فتحت الطريق أمام مساعدات العالم الاشتراكى.. المادية والمعنوية والسياسية للجمهورية الديمقراطية..

ولقد كتب البرجوازيون كثيرا عن المساعدات العسكرية الصينية للڤيتنام عقب « فتح الحدود » ويدعى بعضهم ان هذه المساعدات كانت العامل الحاسم فى كسب الحرب ولكنهم نسوا انه حتى غلاة الكتاب البرجوازيين يقدرون المساعدات الصينية بعشر المساعدات الأمريكية للقوات الفرنسية .. والواقع انها أقل من ذلك بكثير ..

ومن الناحية العسكرية البحتة نجد مثلا ان المساعدات الصينية لم تشتمل مطلقا على الطائرات .. فطوال فترة الحرب لم تطر الى السماء طائرة ڤيتنامية واحدة .. ومع ذلك فقد هزموا عدوا له سلاح قوى للطيران ..

ان ايمان الڤيتناميين بمبدأ « الاعتماد على النفس » ومقاومة القادة الڤيتنامية للاتجاهات التى كانت تدعو « للاعتماد على الغير » تلك المقاومة التى تتضح فى كثير من خطبهم ووثائقهم لهى خير رد على هؤلاء الذين يؤمنون بنظرية « المساعدات الصينية » .

ولكن ما زالت هناك كثير من الحجج لدحض هذه النظرية منها مثلا .. انه اذا ما كان الاستراتيجيين الفرنسيين والأمريكيين يؤمنون ان المساعدات الصينية كانت تلعب دورا حاسما فى مجرى الحرب .. لسعوا بالتأكيد لبذل أى مجهود لاغلاق الحدود من جديد .. ولكنهم لم يفعلوا .. بل على العكس فان عملية «هادبيان» ١٩٥٢ ثم « خطة ناقار » تؤكدان ان قفل الحدود لم يكن على الاطلاق هدفهم الرئيسى .. لقد كان هدفهم الرئيسى هو تحطيم القوة العسكرية الڤيتنامية على أرض الڤيتنام نفسها لأن هذه القوة كانت بالفعل العامل الحاسم فى الحرب ..

وبينما كانت الحرب تتخذ أكثر فأكثر صفة دولية على نطاق العالم .. كانت هذه الحرب ــ حرب الهند الصينية ــ تتخذ هذا الطابع داخل البلاد نفسها ..

ففى ١١ مارس ١٩٥١ عقدكونفرنس لممثلى قوات المقاومة فى كل من الڤيتنام ولاوس وكمبوديا فى « ڤييت باك » .

وقد كانت حركة المقاومة فى لاوس التى تسمى « باتيت لاو » والتى يقودها الأمير سوفانا فونج .. وفى كمبوديا واسمها « كاميرا أساراك » ويقودها الكاهن البوذى « سون نيجو منه » كانت تمثل استمرارا لحركات التحرر التى قامت فى ١٩٤٥ .

لقد كانت فرنسا تعامل الهند الصينية كلها باستمرار على انها مسرح لعمليات واحدة .. ولقد كان تحالف الجبهات الوطنية فى ڤيتنام ولاوس وكمبوديا .. ذلك التحالف الذى استقبل بنباح الامبرياليين المسعور ، كان دليلا على ان هؤلاء الذين يقاومون العدوان الفرنسى قد أصبحوا من القوة بحيث يستطيعون هم أيضا أن يعتبروا الهند الصينية كلها مسرحا لعمليات واحدة .. ولقد كان هذا التحالف دليلا على تزايد قوى هذه الشعوب الثلاث المتجاورة فى نضالها من أجل الاستقلال وضد المستعمرين .

وفى هذا الشهر أعلن قيام حزب « لاو دونج ڤيتنام » (حزب العمال الڤيتنامى) كاستمرار للحزب الشيوعى فى الهند الصينية .. ولكن ليمارس نشاطه فى الڤيتنام وحدها .

وفى نفس الوقت أعلن عن تأسيس الجبهة الوطنية الجديدة ..

وعقد مجلس وطنى أصدر برنامجا من ١٢ نقطة تتضمن : استكمال التحرر الوطنى .. تدعيم وتطوير الحكم الديمقراطى الشعبى .. اعادة بناء الوطن .

وارتفعت معنويات المناضلين .. وسيطر احساس عميق على الجميع بأن الحرب توشك أن تدخل مرحلة جديدة حاسمة ..

وعقب تحرير مدينة « هاوفين » التى تقع شمال غرب هانوى

والتى كانت القـــوات الفرنسية بقيـــادة الجنرال « دى لاڤار دى تاسينى » قد استولت عليها فى محاولة لشطر المناطق المحررة الى قسمين منفصلين .. كان تحرير هذه المدينة هو البداية الفعلية لذلك الانعطاف الحاسم .

ان ست سنوات من القتال ، والعمل الدائب فى نفس الوقت على بناء الجيش قد فتحت الطريق أمام الحملة الظافرة التى قامت بها جيوش الجمهورية الديمقراطية .. تلك الحمـــلة التى وضعت للحرب نهايتها ..

لقد كانت « خطة ناڤار » هى أكثر الخطط العسكرية التى اتبعها الفرنسيون والأمريكيون فى الهند الصينية وحشية .. فبتوقيع الهدنة فى كوريا فى يوليو ١٩٥٣ .. اندفع الحكام الأمريكيون بحماس شديد فى حرب الهند الصينية .

وفى ٦ أغسطس قال الرئيس ايزنهاور « ان على الولايات المتحدة أن تحارب الشـــيوعية فى الهند الصينية ، فان الشيوعيين اذا ما كسبوا الهند الصينية سوف يؤدى ذلك الى افلات كل جنوب شرق آسيا من نفوذ أمريكا .. وسوف تفقد الولايات المتحـــدة بذلك مصادر ثمينة للمواد الخام » .

وكان هدف الأمريكيين فى ذلك الوقت هو هزيمة تلك الاتجاهات التى أخذت تظهر فى الدوائر الحاكمة الفرنسية والتى تدعو الى قبول العرض الذى طالما قدمه « هوشى منه » باستمرار للدخول فى مفاوضات .. كانوا يهدفون لأن تستمر الحرب مشتعلة وأن يسحقوا تماما الجمهورية الديمقراطية .. فقد وضعت « خطة ناڤار » فى واشنطن قبل توقيع الهدنة الكورية .. وهيأت أمريكا الوســائل العسكرية اللازمة لانجاح هذه الخطة .

وقد سميت « خطة ناڤار » باسم ثامن جنرال فرنسى أرسل

الى الهند الصينية لانقاذ الوضع هناك .. وكان « ناڤار » آخر جنرال يرسل للهند الصينية .

وكانت الخطة تهدف الى انهاء الحرب فى ١٨ شهرا ..

وكانت مقسمة الى ثلاثة مراحل .. المرحلة الأولى : يعاد تجميع قوات قوية سريعة الحركة فى منطقة دلتا النهر الأحمر لتهاجم وتمزق القوات الڤيتنامية الأساسية .. وفى نفس الوقت تحتل مدينة « دين بيان فو » التى كانت فى ذلك الوقت مثلها مثل معظم مدن شمال غرب الڤيتنام فى أيدى الجمهورية الديمقراطية .. وفى المرحلة الثانية : تستفيد القوات الفرنسية من فصل الأمطار فى صيف ١٩٤٥ ـ حيث يعتقد أن القوات الڤيتنامية تكون فى ذلك الوقت قد ركنت الى الراحة ـ لتدفع فرنسا بقواتها الى جنوب وسط الڤيتنام والى جنوب الڤيتنام لتحتل كل المناطق المحررة هناك .

ثم تدخل الحرب فى مرحلتها النهائية فى فصل الحرب .. فى خريف وشتاء ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ حيث تندفع قوات قوية جدا سريعة الحركة من الجنوب الى الجبهة الشمالية فى هجوم قوى ضد مؤخرة القوات الڤيتنامية .. فاذا ما اندفعت الجيوش الفرنسية القوية والسريعة الحركة فى وقت واحد من « دين بيان فو » ومن دلتا النهر الأحمر فانها سوف تطبق على القوات الڤيتنامية وتسحقها وتصل بالحرب الى نهايتها .

ولكن تطبيق هذه الخطة لم يكتمل .. فالحرب قد وضعت أوزارها قبل أن تنتهى الثمانية عشرة شهرا .. وكان النصر فيها للڤيتناميين .

فلقد استخدموا فى ذلك الوقت « سلاحا سريا » كان أقوى من أن نقدر قوته فى غرف الخرائط فى البنتاجون فى واشنطن .

ففى أبريل ١٩٥٣ أصدرت حكومة الجمهورية الديمقراطية مرسوما بتخفيض الايجارات الزراعية وتخفيض الفوائد على الديون .. وفى هذه المرة لم يترك تطبيق المرسوم ـ كما ترك فى ١٩٤٥ فى أيدى الأجهزة الادارية الأمر الذى أدى الى عدم تطبيقه الى حد كبير ـ وانما كلفت جماهير الفلاحين العريضة ممثلة فى تنظيماتها .. بتطبيق هذا المرسوم ..

وفى أشهر قليلة اتضح ان هذه الاصلاحات قد أمكن تطبيقها بنجاح .. وان الفلاحين وقد أحسوا بما أحرزوه من مكاسب اندفعوا أكثر فأكثر ليتخذوا دورا نشطا فى كل أعمال المقاومة .

وفى نوفمبر ١٩٥٣ اتخذ قرار بتنفيذ الاصلاح الزراعى .. وبدىء فى توزيع الأرض على الفلاحين فى ١٩٥٤ .

وقد ألهب هذا القرار حماس المقاومة .. التى نشطت فى حملة أبريل .. والضباط الفرنسيون الذين طالما أزعجتهم روح المقاومة الصلبة لجيوش الجمهورية الديمقراطية قد وجدوا الآن أنفسهم يواجهون عدوا مختلفا تماما عما كان عليه من قبل .. فهذه القوانين التى أظهرت على أحسن وجه الطابع الثورى للحرب الڤيتنامية .. قد ألهبت نضال كل الشعب .. لقد لعبت هذه القوانين دورا كبيرا فى ضمان النصر لحرب المقاومة .. فالجندى الذى يحارب فى صفوف المقاومة .. والذى يتلقى خطابا من أهله فى ٥٣ ـ ١٩٥٤ يبلغونه فيه انهم قد أصبحوا يمتلكون الآن أرضا .. أصبح يحارب بحماس مضاعف لكى يخلص الوطن من المعتدى .. لأن بقاء ذلك المعتدى سوف يعنى فى الدرجة الأولى اعادة سلطة الملكية الاقطاعية .

أما من الناحية العسكرية ـ فان القوات الڤيتنامية لم تقنع بالانتظار لتتخذ موقف الدفاع من هجوم « خطة ناڤار » على المناطق المحررة فى شمال الڤيتنام .. بل هى على العكس من ذلك شنت

هجمات قوية فى أماكن لم يكن يتوقعهم فيها الجنرالات الفرنسيون .. وأجبروا الفرنسيين على أن يبعثروا قواتهم بين النقط التى تهاجم واحدة بعد أخرى ..

ولندع الجنرال ڤو نيجويان چياب القائد العام للقوات المظفرة فى حملة ٥٣ ـ ١٩٥٤ يتكلم بنفسه : فى خريف ١٩٥٣ وضع الجنرال ناڤار « خطته الاستراتيجية الميكياڤللية » تحت شعارى « لتكن المبادرة فى أيدينا دائما » و « لنهاجم دائما » وقد حشدت القيادة العليا للقوات الفرنسية حشدت فى دلتا النهر الأحمر ٤٤ فرقة سريعة الحركة وقد قامت تلك القوات بعمليات ابادة فى مؤخرتنا .. وهاجمت « نينه ڤيته » ، « نهر كوان » وهددت « ثاهان هوا » .. وهبط رجال البراشوت فى « لانج سون » وهددوا « فوثو » ثم قاموا فى نفس الوقت بتسليح عصابات محلية حتى يشيعوا الفوضى فى الشمال الغربى .

وفى ٢٠ يناير ١٩٥٣ أسقط ناڤار رجال البراشوت ليحتلوا « دين بيان ڤو » .. بهدف اعادة احتلال « ناســـان » وتدعيم « لاى شاو » وضم الشمال الغربى الى المنطقة المحتلة .

وفى ديسمبر ١٩٥٣ تحركت قواتنا فى الشـــمال الغربى حيث شتتت شمل جزء كبير من قوات العدو وحررت « لاى شاو » وحاصرت « دين بيان ڤو » .

وفى ديسمبر أيضا شنت قوات « باتيت لاو » تعضدها قوات المتطوعين الڤيتناميين (١) هجوما فى وسط لاوس ومزقت جزءا هاما من قوات العدو وحررت « ثاكت » ووصلت من نهر « مى كونج » .

---

(١) فى هـــذه الفترة كان المتطوعون الڤيتناميون قد دخلوا كلا من لاوس وكمبوديا .. ولقد سمى الفرنسيون والأمريكيون ـ الذين تبعد بلادهم آلاف الأميال عن منطقة القتال ـ سموا هذا العمل بأنه « عدوان ڤيتنامى » .

وفى يناير ١٩٥٤ شنت قواتنا فى المنطقة الخامسة (وسط الفيتنام) هجوما على المرتفعات الغربية وشتتت شمل جزء كبير من قوات العدو وحررت مدينة « كون ثم » واتصلت بذلك بالمناطق التى حررت حديثا فى مرتفعات « بولوفين » فى لاوس السفلى ..

وفى يناير أيضا شنت قوات « باتيت لاو » والمتطوعين الفيتناميين هجوما فى لاوس العليا حيث أبادت جزءا كبيرا من قوات العدو وحررت مستنقعات « نام هد » وهددت « لوانج برابانج » .

وفى خلال هذه الفترة نشطت حرب العصابات نشاطا كبيرا خلف الخطوط الفرنسية فى شمال ووسط الفيتنام وحتى فى أقصى جنوب وسط الفيتنام .. وجنوب الفيتنام .

وفى الأسبوع الثانى من مارس ظن العدو ان هجومنا قد توقف وبدأ يعيد تجميع جزء من قواته ليشن حملة « الاتلانتا » فى جنوب وسط الفيتنام وليحتل كوى نهون فى ١٢ مارس .

وفى اليوم التالى .. فى ١٣ مارس شنت قواتنا **الهجوم الضخم ضد القوات المعسكرة فى دين بيان فو .**

ولقد حاربت قواتنا فى جبهة دين بيان فو معركة استمرت طوال ٥٥ يوما ليلا ونهارا حتى دمرت نهائيا القوات المعسكرة فى المدينة تدميرا تاما فى ٧ مايو سنة ١٩٥٤ .

وهكذا انتهت حملة الشتاء والربيع التى قام بها جيشنا بانتصار تاريخى .

ولسوف نورد هنا تعليقين لشخصين مختلفين .. يعرض كل منهما وجهة نظره باختصار فى طبيعة معركة دين بيان فو .

وأول هذين الشخصين هو سير أنتونى ايدن فقد كتب يقول « لقد أخذت قوات المدفعية الفيتنامية القوية القوات الفرنسية على

غرة فهم لم يتوقعوا مطلقا أن يكون بامكان الڤيتناميين أن ينقلوا قطعة قطعة على ظهور الحمالين كل هذه المدفعية الى ميدان القتال » (١) .

أما الشخصية الثانية فهى الچنرال « ڤو نيجويان چياب » الذى يقول « ان الامبرياليين لا يمكنهم أن يقدروا مطلقا حق التقدير طاقات أمة .. طاقات شعب .. انها طاقات هائلة .. انها تستطيع أن تقهر أية صعوبات .. وأن تقهر أى عدو » (٢) .

ها هما اذن الجانبان المتحاربان .. آلاف من الحمالين تكدح فى دلتا النهر الأحمر .. تحمل فوق ظهورها الأسلحة والامدادات .. أو فى أحسن الأحوال توضع هذه الآلات التى قد تبلغ عدة مئات من الأرطال على عربات لتجرها أيضا القوة البشرية .. هذا فى جانب .. أما فى الجانب الآخر فهناك ضباط الجيش الفرنسى الذين لم تكن لديهم الفرصة مطلقا ليتعلموا شيئا مثل هذا فى كلية سانت سير (٣) .

أما مديري « سانت سير » فقد كان من الصعب عليهم أن يعدوا خريجيهم لمواجهة حقائق ٥٣ ـ ١٩٥٤ لمجابهة هؤلاء الفلاحين الذين كانوا يتنافسون بحماس شديد كى يختار كل منهم ليقوم بهذه الرحلة الشاقة التى يقطعون فيها والاقفال على ظهورهم مسافة ٢٠٠ ميل .. وهم يحاربون باستمرار .. وكان معظم الذين وقع عليهم الاختيار للقيام بهذه المهمة الشاقة من النساء الفلاحات ..

وفى فبراير ١٩٥٤ وكجزء من عمليات الاستعداد لمعركة « دين بيان فو » قام عدد من رجال العصابات الڤيتنامية بعد أن

---

(١) المذكرات ص ١١ .

(٢) دين بيان فو ص ٤٣ .

(٣) كلية سانت سير .. هى الكلية العسكرية فى فرنسا .

اختيروا ودربوا تدريبا خاصا بنسف ٧٨ طائرة فرنسية على أرض مطار « جيالام » فى هانوى ومطار « كات بى » فى هاى ڤونج .

لقد كانت هذه المطارات تبدو وكأن اقتحامها أمر مستحيل .. فقد أحيطت بسبعة خطوط متتابعة من الأسلاك الشائكة المكهربة .. وسدت كل مداخلها سدا محكما بالألغام .. وعلى طول الخطوط كانت توجد مراكز للكشافات القوية وشبكة من مدافع الماكينة .. لا يفصل المركز عن الآخر سوى بضعة ياردات .. وهكذا كانت هــذه المطارات تبدو بعيدة المنال ولكنها لم تكن كذلك فى حقيقة الأمر .. ولقد كان تدمير هذه الطائرات ضربة قوية للفرنسيين فى معركة دين بيان فو .. التى كانت تعتمد أكثر ما تعتمد فى امداداتها على الطائرات .

ان معسكر « دين بيان فو » المقام فى وسط الوادى بطول ثمانية كيلومترات وعرض ثلاثة كيلومترات والمحاط بخنادق لحمايته .. هذا المعسكر قصفته بشدة شبكة المدفعية الڤيتنامية التى تمركزت فى خنادق حفرها المقاتلون الڤيتناميون خلال المعركة نفسها ..

ومن على جوانب الجبل .. أخذت هذه الخنادق تزحف خطوة خطوة يوما بعد يوم .. أقرب فأقرب نحو المواقع الفرنسية .. يحفرها رجال منبطحون تماما على الأرض ليتحاشوا النابالم الذى تمطره الطائرات عليهم .. وقذائف المدفعية الفرنسية ..

ان انتصار « دين بيان فو » .. وهو أول انتصار فى التاريخ تحرزه قوات مسلحة لشعب مستعمر ضد قوى امبريالية هائلة .. ان هذا الانتصار قد استقبلته الجماهير العريضة فى كل العالم بالابتهاج .. أما أعداء الشعب فقد استقبلوه بالحسرة ..

ففى الجزائر البعيدة .. « كان يوم انتصار « دين بيان فو » .. عيدا وطنيا .. كان النــــاس يهنئون بعضهم البعض بحرارة فى

الشوارع .. وقد رفض أصحاب المقاهى باصرار أن يتقاضوا ثمن المشروبات من زبائنهم ابتهاجا بهذا العيد » (١) .

ولم تمض سوى بضعة أشهر حتى بدأ الجزائريون فى ١ نوفمبر ١٩٥٤ هم الآخرون فى حمل السلاح فى وجه السيطرة الأجنبية .

ان تحطيم المعسكر الفرنسى فى « دين بيان فو » الذى كان الاستراتيجيون الفرنسيون يتصورون انه « حصين جدا » قد حدد مصير « خطة ناڤار » لقد تحطم أحد فكى الكماشة التى كان عليها أن تطبق على الڤيتناميين بتحطيم أحد الجيشين الذين تعتمد عليهما هذه الخطة .

وكان على ١٦ ألف جندى فرنسى أن ينسحبوا ..

ورغم ان القتال لم يوقف مباشرة .. فقد كان واضحا للجميع أن الحرب توشك على نهايتها .. وفى الأيام التى أعقبت انتصار « دين بيان فو » .. انضم الى صفوف جيش الجمهورية الڤيتنامية ثمانية آلاف من جيش « باوديا » .

وانهارت معنويات القوات الفرنسية انهيارا لم يسبق له مثيل ..

واتجهت كل الأنظار الى مؤتمر جنيف الذى انعقد فى ذلك الوقت .

***

ففى برلين اجتمع وزراء خارجية أمريكا والاتحاد السوڤييتى وبريطانيا وفرنسا فى فبراير ١٩٥٤ واتفقوا على عقد مؤتمر فى جنيف فى أبريل كمحاولة لايجاد حل للمشاكل المتخلفة عن حرب كوريا ولعقد هدنة فى الهند الصينية .

---

(١) خطاب لكريم بلقاسم نائب رئيس الوزراء فى حكومة الجزائر المؤقتة ألقاه فى هانوى فى ١٩٦٠ .

وفى هذا المؤتمر شاركت الصين الشعبية بمندوبيها — لأول مرة — فى مؤتمر يضم ممثلى الدول العظمى ..

وفى ٢٦ أبريل — ومعركة دين بيان فو تدخل مرحلتها الحاسمة — افتتح المؤتمر .. وحضره جون فوستر دلاس (أمريكا) مولوتوف (الاتحاد السوفييتى) ايدن (بريطانيا) بيدو (فرنسا) شواين لاى (الصين) .

ومنذ اللحظة الأولى بدا واضحا انه من الصعب الاستمرار فى بحث المسألة الكورية .. فمع تحول ميزان القوى فى الحرب كانت مشكلة الهند الصينية تفرض نفسها على المؤتمر .. ان القوات المتحاربة تقترب من بعضها ..

ولم يكن دلاس — أبو سياسة الحرب الباردة — قد حضر الى المؤتمر ليبحث عن السلام فى الهند الصينية .. بل على العكس ليبذل كل جهده ليجمع قوات الدول الستة عشر — التى كونت « قوات الأمم المتحدة » التى حاربت فى كوريا .. والتى كانت ممثلة فى المؤتمر — ليجدد القتال فى كوريا ويطيل من أمد القتال فى الهند الصينية .. ومن هاتين النقطتين ومن تايوان .. يشن هجوما ذا ثلاث شعب على الصين ..

أما بيدو الذى كان يمثل فى ذلك الوقت .. كما كان يمثل فى معركة الجزائر — أكثر القوى الاستعمارية الفرنسية رجعية .. فقد كان يؤيد وجهة نظر دلاس .

ولكن بريطانيا كانت تعارضها .. وعلى حد قول ايدن كانت بريطانيا تخشى أن تكون حرب الهند الصينية « الحرب غير الملائمة .. ضد الشعب غير الملائم .. فى المكان غير الملائم » (١) .

---

(١) مذكرات ايدن ص ١٠٤ .

والغريب فى الأمر أن بيدو لم يكن يمثل حتى وجهة نظر أغلبية الدوائر الحاكمة فى فرنسا .. واستمرت المناقشات طويلا بين أمريكا وفرنسا حول الهند الصينية .. حتى ان الصحفى الأمريكى روبرت دونوڤان كتب يقول « ان حرب الهند الصينية .. التى بدأت كحرب فرنسية خالصة قد أصبحت الآن عملا يخص أمريكا .. » .

ولم تكن كل الدوائر الحاكمة الفرنسية مسرورة بذلك الدم الفرنسى وتلك الثروات الفرنسية التى تستنزف استنزافا رهيبا فى حرب ليس فيها أى بارقة أمل لانتصار فرنسا .. بينما تستفيد منها أمريكا وحدها .. التى لم يشترك جنودها مطلقا فى القتال .

وبعد المعركة كتب الچنرال « ناڤار » يقول « لقد قدم لنا الأمريكيون مساعدات مادية ولكنهم من ناحية أخرى حاربونا حربا معنوية .. فبينما كانوا يستخدمون « القبضة » الفرنسية التى كانت ضرورية لهم فى حربهم ضد الشيوعية .. كانوا فى نفس الوقت يعطلون بل يخربون مصالحنا » (١) .

وقال الرئيس الفرنسى السابق رينو « انكم أيها الأمريكيون تحصلون من الهند الصينية على ٨٩٪ من مطاطها الطبيعى ، ٥٢٪ من احتياجاتكم من الصفيح وهكذا فمن الناحية المادية .. نحن نحارب فى الهند الصينية من أجل مصالحكم أنتم لا من أجل مصالحنا نحن » .

وفى تلك اللحظة كانت المساعدات الأمريكية تتدفق على الهند الصينية كما لم تتدفق من قبل .. ففى السنة المالية ١٩٥٣-١٩٥٤ بلغت هذه المساعدة ١٠٠٠ مليون دولار أى أربع أخماس نفقات الحرب كلها .. ولكن العداوة الأمريكية الفرنسية بلغت أقصى درجاتها

---

(١) L'Agonie de l'Indochine.

فى هذا الوقت الذى ازداد فيه « الكرم » الأمريكى بشكل ملحوظ .. هكذا تكون العلاقات بين الامبرياليين « المتحالفين » .

وبعيدا عن جنيف الهادئة .. وعلى طلقات معركة « دين بيان ڤو » كانت العوامل المساعدة تلعب دورها لتحول ذلك الموقف الذى بدأ على أنه تحالف فرنسى أمريكى الى أكبر هزيمة دبلوماسية حاقت بأمريكا حتى ذلك الوقت .

ولقد شهد عام ١٩٦٠ ظهور عدد من الوثائق التى تتعلق بالأيام الحاسمة فى حرب الهند الصينية والتى ألقت ضوءا جديدا على مؤتمر جنيف وعلى الأخطار التى تهددت العالم فى ذلك الوقت بحرب عالمية ثالثة ..

ففى أوائل ١٩٦٠ نشرت مذكرات ايدن التى تهتم أساسا بتوضيح المعارضة البريطانية الحازمة لمشاريع أمريكا باطالة أمد الحرب فى الهند الصينية وتوسيع رقعتها .. وحكى الكاتبان الفرنسيان « چين لاكوتير » « فيليب وبڤللرز » قصة المفاوضات المضنية التى جرت بين حكومة لانييل وواشنطن لطلب تدخل أمريكى مباشر فى الحرب « لانقاذ » القوات الفرنسية والثروات الفرنسية من الدمار .. حكيا هذه القصة فى كتابهما الذى صدر منذ عدة أشهر بعنوان « نهاية حرب » .. وقد استمرت هذه المفاوضات منذ بداية الحملة الڤيتنامية على « دين بيان ڤو » فى منتصف مارس حتى سقوط المعسكر الفرنسى فى ٧ مايو واستمرت حتى بعد ذلك أيضا .. حتى يونيو ..

أما الاقتراحات الأمريكية فقد كانت تسير فى نفس الاتجاه .. ففى مارس اقترح القائد العام الأمريكى ارسال ٦٠ قاذفة قنابل أمريكية من طراز ب ــ ٢٩ للقيام بسلسلة من الغارات الجوية على دين بيان ڤو لتسقط فى كل رحلة ٤٥ طن من القنابل .. وابتهج

الچنرال الفرنسى « ايلى » بهذا الاقتراح الذى قدم له .. ولكن الكونجرس لم يرسل موافقته على الخطة .. تلك الموافقة التى كانت ضرورية لتنفيذها .

وفى آخر أبريل اقترح دلاس اعلان بيان مشترك تصدره كل من أمريكا و فرنسا وبريطانيا واستراليا ونيوزيلاندا وتايلاند والفلبين .. تعلن فيه استعدادها للقيام بعمل عسكرى مشترك لدحر العدوان الشيوعى على جنوب شرقى آسيا ..

ولكن هذا الاقتراح رفض فى ذلك الوقت من جانب حكومة لانييل خوفا من رد الفعل الذى يحدثه فى الرأى العام الفرنسى .. والمهم فى هذا الاقتراح هو أن حلف جنوب شرقى آسيا لم يظهر الى الوجود الواقعى فى وقت اعلانه الرسمى أى بعد حرب الهنـــــد الصينية وانما ظهر قبل ذلك عندما كان الوضع الدولى قد وصل الى مرحلة حاسمة ..

واقترح الچنرال ناڤار للمرة الثانية تدخل الطائرات الأمريكية ولكن بريطانيا عارضت ذلك بشدة ..

وأخيرا وفى منتصف مايو .. وبعد أكثر من أسبوع من سقوط دين بيان ڤو حاولت حكومة لانييل أن تدفع أمريكا للتدخل المباشر .. ولكن أمريكا رفضت بناء على معارضة بريطانيا .

أما بيدو فقد ظل يطالب فى يأس حتى فى ٢٤ مايو بارسال قوات بحرية أمريكية لمساعدة القوات الفرنسية فى دلتا النهر الأحمر .. ومرة أخرى لم تستطع الدول الغربية أن تصل الى اتفاق ..

لقد كانت تلك الفترة فترة صعبة فى حياة دعاة الحرب ..

وفى ٣ مايو غادر دلاس مؤتمر چنيف .. غاضبا ..

وفى اليوم التالى وصل الى چنيف « فام ڤان دونج أوى » وزير خارجية الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية ليحضر المؤتمر (ويجدر بالذكر انه حتى هذه اللحظة كان يبدو يرفض أن يتفاوض مع أى ڤيتناميين سوى ممثلى حكومة باوديا !) .

وفى نفس الأسبوع سقط « دين بيان ڤو » .

ويبدو ان حكومة الجمهورية الديمقراطية قد أدركت انه من المفيد من الناحية الدبلوماسية أن تصل الى چنيف وفى جعبتها نصرا باهرا .

وفى ١٢ يونيو سقطت الحكومة الفرنسية فقد عارضت الجمعية الوطنية سياسة لانييل وبيدو فى چنيف بأغلبية ٣٠٦ صـــوتا ضد ٢٩٣ .

وتولى منديس فرانس رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية وتعهد بأنه اذا لم يحقق السلم فى الهند الصينية حتى ٢٠ يوليو .. فانه سوف يستقيل ..

وفى الحقيقة لقد وقعت اتفاقية السلم فى الهنــد الصينية فى الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم ٢١ يوليو أى بعـد ثلاث ساعات ونصف من الموعد الذى حدده منديس فرانس لنفسه .

ان اتفاقيات چنيف الذى توصل اليها مؤتمر ترأسه مندوبا الاتحاد السوڤييتى وبريطانيا تعتبر واحدة من أحسن الأمثلة فى تاريخنا الحديث التى توضح ان الاتفاق ممكن بين المعسكرين .. وان التعايش السلمى هو امكانية عملية يمكن التوصل اليها اذا ما رغب الطرفان فى ذلك ..

ان هذه الاتفاقيات قد أمكن تحقيقها بفضل تضافر جهــود ثلاثة ..

القوى المتزايدة لحكومة الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية .. والحركة العارمة المعادية للحرب التى شملت حتى أجزاء واسعة من الأوساط الحاكمة الفرنسية .. وتزايد الضغط العالمى من أجل السلام فى الهند الصينية .. والذى تزايد مع تزايد التهديد باتساع نطاق الحرب حتى تشمل الشرق الأقصى كله .. وتهدد سلام العالم أجمع .

ولعب اللقاء الذى تم فى كولومبو بين الهند وباكستان وأندونيسيا وسيلان وبورما فى وقت انعقاد مؤتمر چنيف دورا هاما فى صف السلام .

ان اتفاقية چنيف قد توجت النضال الطويل الظافر لشعوب الهند الصينية من أجل استقلالها الوطنى .. فقد تضمنت الاتفاقيات اعتراف الدول الكبرى باستقلال كل من الڤيتنام ولاوس وكمبوديا وسيادتها ووحدة أراضيها .

وبالنسبة للڤيتنام فقد اتفق على أنه بهدف الاسراع لاعادة تجميع كل طرف لقواته .. تقسم الڤيتنام الى قسمين يفصلهما تقريبا خط العرض ١٧ .

والأراضى التى شمالى هذا الخط تخضع لسلطة الجمهورية الديمقراطية والأراضى التى جنوبى هذا الخط تخضع لحكم « دولة الڤيتنام » .

وعلى القوات الفرنسية الموجودة شمالى هذا الخط .. والقوات الڤيتنامية الموجودة جنوبيه أن تنسحب من هذه الأراضى خلال ٣٠٠ يوما .

ولا تزاد القوات المسلحة لأى من القسمين ولا يدخل أى منهما فى تحالفات عسكرية ولا تؤسس على أراضيه أية قواعد عسكرية ..

واتفق على أن تجرى فى ٢٠ يوليو ١٩٥٦ انتخابات عامة فى كل من الجزأين بهدف اعادة تأسيس حكومة موحدة للڤيتنام كلها ..

ونص أيضا على تحريم اتخاذ أى من الجانبين لاجراءات عقابية ضد الأنصار السياسيين للقسم الآخر فى أراضيه ..

وتأسست لجنة دولية للاشراف والمراقبة من مندوبى كندا وبولندا ويرأسها مندوب هندى (١) .

وهكذا كفلت اتفاقيات جنيف .. اذا ما أخذت لكل من ناحيتيها العسكرية والسياسية كفلت حلا كاملا يتمشى مع مصالح كل من الڤيتنام ولاوس وكمبوديا .

أما بالنسبة لجمهورية الڤيتنام الديمقراطية فقد شهد العالم هذه الدولة الصغيرة وقد خاضت غمار ثورة عنيفة لم يشهد لها العالم مثيلا فى كل جنوب شرق آسيا .. شهد هذه الدولة الوليدة .. التى ولدت فى غمار الثورة .. تحرز انتصارها من خلال السلام .

لقد شهد العالم كيف ان هذه الدولة التى نادى قادتها أكثر من اثنين وعشرين مرة خلال فترة القتال بالدخول فى مفاوضات سلمية .. شاهدها وهى تقبل توقيع الهدنة وهى فى قمة انتصاراتها العسكرية مع عدو هزم ولا أمل فى قيامه من جديد ..

لقد شهد العالم الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية .. تلك الدولة التى تفتقر الى كل شىء الا الى تأييد ومساندة شعبها .. شاهدها وهى تخوض غمار حرب قاسية طوال تسع سنين ضد عدو أكثر تسليحا .. وتنتصر عليه .

---

(١) سوف نتعرض لاتفاقيات جنيف بخصوص لاوس وكمبوديا فى الفصول الخاصة بهذين البلدين ..

لقد شهد العالم كيف ان جمهورية الفيتنام الديمقراطية .. وبعد أن اتفق أعداؤها لتدميرها مبلغ ١٢٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار فقد خرجت من الحرب وهى أقوى مما كانت عليه ..

حقيقة .. ما زالت هناك فى العالم أشـــياء لا يمكن للمال أن يشتريها ..

أما بالنسبة للفيتناميين فقد كانت اتفاقيات جنيف نصرا عظيما فطول خمسة عشر عاما لم يعش الفيتناميون يوما واحدا دون قتال .. ففى البداية كانت الحرب المعادية لليابانيين وعمـــلاء فيشى .. ثم كانت حرب السنوات التسع التى شملت كل بلادهم من أقصاها الى أقصاها ..

والآن أصبح بامكانهم أن يأملوا فى السلام .. ليبنوا ويحضروا بلادهم ..

ولكن اتفاقيات جنيف لم تكفل السلام وحده لشعب الفيتنام بل كفلت له أيضا شيئا لا يقل أهمية بالنسبة له .. وهو ضمان وحدة بلادهم التى فتتها المستعمرون فى ستينيات القرن ١٨ والتى أعادت ثورة أغسطس ١٩٤٥ توحيدها .

ولكن الفرنسيين ما لبثوا أن حطموها من جـــديد كجزء من خططهم فى انجاح استعادة الهند الصينية .

ان اتفاقيات جنيف التى وقعتها غالبية الدول العظمى فى هذا العالم .. تنص على ان وحدة الفيتنام سوف تتحقق عن طريق انتخابات عامة تجرى بعد عامين من توقيع الاتفاق .. وان هـــذه الوحدة سوف تصان .. الى الأبد ..

هل كان غريبا اذن أن يرفع جنود وكوادر الجمهورية الديمقراطية وهم يتركون عائلاتهم وأصدقائهم فى جنوب الفيتنام ليلحقوا بقواتهم

فى شمالى الخط ١٧ .. هل كان غريبا أن يرفعوا أصابعهم بعلامة V مستخدمين نفس الرمز الذى اقتبس من كلمة Victory ، أى « النصر » واستخدم خلال فترة الحرب ضد الفاشية .. ليعبروا عن ايمانهم بالعودة بعد عامين .. بعد الوحدة ..

اننا على يقين من أن أشعار « توهو » تغنى الآن على أفواه الملايين كما كانت تغنى أيام ثورة أغسطس ١٩٤٥ .. لابد أن الملايين تغنى الآن أغنية « نحن نمضى قدما » التى تحكى قصة مناضلى المقاومة وهم عائدون الى العاصمة .. عقب اقرار السلام ..

وفى غمار هذا الأمل والفرح الذى ساد العالم بتوقيع اتفاقيات چنيف .. كان صوتا ما غائبا ..

فان أمريكا لم توقع اتفاقيات چنيف .. فدالاس قد غادر المؤتمر فى ٣ مايو عندما اتضح له انه ليس بامكانه أن يدفعه فى طريق الفشل لقد غادر المؤتمر قبل أن تبدأ المفاوضات .. وفى الحقيقة لقد كانت مغادرته للمؤتمر ايذانا ببدء المفاوضات الحقيقية ..

ولقد ترك دلاس فى المؤتمر ـ كمندوب لأمريكا ـ الچنرال و . بيدل سميث الذى كان مفوضا فقط بتوقيع البيان النهائى للمؤتمر .. وأن يصدر اعلانا منفصلا تتعهد فيه الولايات المتحدة بألا تستخدم القوة ولا تهدد باستخدامها لافشال اتفاقيات چنيف ..

وفى ٨ سبتمبر ١٩٥٤ وقعت اتفاقية جنوب شرقى آسيا فى مانيلا بواسطة مندوبين من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا واستراليا ونيوزيلندا وباكستان والفلبين وتايلاند ..

وأصدر المجتمعون « بروتوكولا » موجها فى الأساس ضد حكومة الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية وجمهورية الصين الشعبية .. وأعلن فيه وضع كل من « دولة الڤيتنام » ولاوس وكبموديا تحت « حماية » المنظمة ..

لقد استطاع دلاس أن ينال من حلفائه ثمن ما أجبروه عليه من عدم توسيع حرب الهند الصينية واطالة أمدها ..

وهكذا ووجهت اتفاقيات چنيف .. بشيء مضاد لها تماما .. هو حلف جنوب شرقى آسيا .

ولقد أدى وجود هذين النقيضين الى بدء مرحلة جديدة من مراحل نضال شعوب الڤيتنام ، لاوس ، كمبوديا .

الفصل الرابع

فيتنام ..
خط مرسوم على سطح الماء

ان الڤيتنام لم تكن طوال تاريخها محط أنظار العالم مثلما كانت طوال الستة سنوات التى تلت توقيع اتفاقيات چنيف ..

ان سير قضية الڤيتنام نحو أن تصبح قضية دولية .. ذلك السير الذى بدأ خلال حرب الهند الصينية قد استمر فى طريقه قدما خلال سنوات السلم أيضا ..

ان العالم يشهد الآن نظامين فى أرض الڤيتنام .. كل منهما ينضم لمعسكر ويسبب وجودهما هكذا تحـــويل المنطقة الى بؤرة للتوتر بين المعسكرين ..

ان خط العرض ١٧ الذى اختير كفاصل مؤقت ليفصل بين القوتين المتحاربتين قد تحول الى واحد من أشد الحدود صعوبة فى اجتيازها فى العــــالم .. حدود لا يمكن لأى انسان أن يعبرها لا يمكن أن تمر عبرها أية رسالة ..

ولكن من المسئول عن استمرار تقسيم الڤيتنام ؟

كيف يمكن أن نقارن بين النظامين القائمين هنـــاك فى فترة حياتهما التى تمتد منذ توقيع اتفاقيات چنيف . ؟ ما هو مستقبل الأحداث فى هذا البلد الصغير الذى تمكن شعبه بشجاعته وحيويته أن يجذب اليه أنظار كل العالم المتحضر ؟

***

لم يكن حلف شرق آسيا هو الثمن الوحيد الذى تقاضته أمريكا من حلفائها نظير اتفاقيات چنيف .. لقد تقاضت ثمنا آخر قد يبدو صغيرا ولكنه ذا أهمية كبرى ..

كان هذا الثمن .. هو تعيين نيجودين ديم وفى منصب رئيس وزراء « دولة الڤيتنام » .

لقد كان ديم هو الشخص الذى تثق به أمريكا لينفذ خطتها فى افساد اتفاقيات چنيف .. فبوجود ديم مسيطرا على جنوب الڤيتنام كان بامكان الأمريكيين أن يثقوا فى امكانية منع تنفيذ اتفاقيات چنيف وبذلك يصلوا باتفاقيات چنيف التى عارضوا فى عقدها معارضة شديدة .. الى أسوأ مصير ممكن ..

ان نزاع الفرنسيين والأمريكيين حول الوصول بديم الى السلطة لهو خير دليل على تبعية هذا الرجل للاستعمار .

ان الصحافة الفرنسية فى هذه الأيام كانت تتحدث عن ديم قائلة « لقد تحدث أحد رؤساء الوزارات الفرنسيين عن انطباعاته عن مقابلته لرئيس وزراء الڤيتنام فى باريس فقال .. انه رجل جامد التفكير وليس رجل دولة ، ان بامكانه أن يستعيد أمامك من الذاكرة كتابا كاملا فى أصول الطهى ولكنه لا يستطيع أن يقلى بيضتين » .

ولم تكن جهود الأمريكيين للدفاع عن صنيعتهم جهودا ذكية .. فان دلاس قد رافع عن هذه الكارثة الرائعة (أى ديم) فى كلمات شاحبة اقتبست « اليونيتدبرس » منها العبارة التالية « ان ديم يفتقد الكثير من المميزات .. ومع ذلك فان فرنسا وأمريكا لا تعتبرانه كارثة فى مرحلة التكوين » .

وكان ديم مضطرا لأن يعانى فى صمت من هذه المساندة الأمريكية .. فلم يكن أمامه طريق آخر ..

وبينما كان ديم يعامل الفرنسيين بيد ناعمة كالحرير كانت حملة ديماجوجيه تجتاح الصحافة فى جنوب الڤيتنام تصفه فى الشهور الأولى من حكمه بأنه « عدو الامبريالية » ولنقل « عدو الفرنسيين » .. !

فمن هو ديم هذا ؟

فى ١٩٥٩ قابل سيرچى جروسار مراسل « الفيجارو » الباريسية نيجودين ديم .. وقد وصف جروسار المغامرات التى قام بها ليتمكن من دخول قصر الرئاسة ثم وصف غرفة الاستقبال التى قوبل فيها فى القصر .. ثم دخل ديم ذو الوجه المتجهم الى الحجرة.. وبشكل أوتوماتيكى امتدت يد الصحفى لتصافحه ولكن يد « الشخص » الآخر استمرت باصرار فى جيبه ونظر للضيف ببرود قائلا « اننى مصغ اليك » .

انها صورة تنطبق تماما على واحد من هؤلاء الطغاة والديكتاتوريين العديدين الذين تخرجهم الامبريالية الأمريكية عبر السنين .. وتحت ضغط الأحداث القاسية ..

لقد ولد ديم فى سنة ١٩٠١ فى مقاطعة « كوانج بينه » فى وسط الڤيتنام وهو ابن لأحد وزراء البلاط الامبراطورى .. هو « نيجودين كاها » الذى أنجبه من محظيته الأولى .. وهو من عائلة من أكبر العائلات الاقطاعية الڤيتنامية ثراء ونفوذا .. وقد أغرقتها السلطات الاستعمارية بكرمها باستمرار .. كواحدة من أهم العائلات التى تتعاون معها ..

وبعد دراسته فى كلية أبناء الاقطاعيين فى هيو بدأ الشاب نيجودين ديم يتسلق ذلك السلم الطويل سلم الحكام المحليين مبتدئا بوظيفة رئيس لأحد أحياء مقاطعة « كوانج ترى » .

ولكن صعوده على السلم كان سريعا .. أسرع من الكثيرين ففى سنة ١٩٣٠ قامت الثورة الڤيتنامية الحديثة وكانت واجبات قهر هذه الثورة هامة ومعقدة .. ولكن ديم وقد تمتع بالثقة المطلقة للمستعمرين والبلاط .. وجد نفسه يقفز عدة درجات من السلم ليعين رئيسا لاحدى المقاطعات وهو لم يزل فى سن الثلاثين .

ويبدو انه كان يقوم بكل ما يطلب منه لأن « باوداى » سرعان ما عينه بناء على مشورة الفرنسيين وزيرا للداخلية فى بلاطه .. فى فترة العنف المضاد للثورة فى ١٩٣٣ .. وعلى أية حال فان ديم ما لبث أن استقال تحت ضغط منافسة شخصية قامت بينه وبين خادم مخلص آخر للمستعمرين هو « ڤام كونيه » ، ولقد ظل ديم يمضغ مرارة هذه الهزيمة باستمرار .. وظل يكره « ڤام كونيه » والفرنسيين ولقد كان هذا الموقف المعادى للفرنسيين هو أهم الأسباب التى سمحت له فيما بعد أن يعلن عن نفسه كمعارض للنظام الامبريالى ..

وظل ديم معتزلا الأعمال الحكومية حتى ١٩٤٠ .. عندما عرض خدماته على اليابانيين فور وصولهم الى البلاد .. وعمل ديم فى المخابرات اليابانية .. وأسس حزبا « سياسيا » مواليا لليابانيين .. كان نشاطه الرئيسى يتلخص فى تدبير اغتيال الثوريين الڤيتناميين .. وعقب الانقلاب اليابانى فى ٩ مارس ١٩٤٥ عين « نيجودين ديم » عضوا فى لجنة البناء الوطنى التى أسستها حكومة « تران ترونج كيم » التى حكمت البلاد تحت رعاية اليابانيين .. والتى لم تعمر طويلا .

ثم قبضت عليه قوات الميليشيا الشعبية أثناء ثورة أغسطس .. وأمضى فى السجن ستة أشهر ولم يفرج عنه الا بناء على وساطة شخصية من « هوشى منه » فقد كان « هوشى » يأمل أن يؤدى ذلك الصنيع بديم الى أن يربط مصيره بقضية الوطن التى طالما تنكر لها ..

وبقية القصة معروفة .. فان ذلك الشخص الذى احترف خدمة القوى الأجنبية لم يعد يجد مصالحه عند الفرنسيين المتداعين .. ولا عند اليابانيين المدحورين . وفى ١٩٥١ سافر ديم الى الولايات المتحدة ليعمل سكرتيرا خاصا للكردينال « سبلمان» ..

وخلال وجود ديم فى رئاسة الارسالية الكاثوليكية فى « ميرى نول . نيوجرسى » .. تعرف بالسناتور مايك مانسفيلد وبواحد من عملاء المخابرات الأمريكية « ميرى دونوڤان » .

وبعد أن درب ديم على أيدى « سبلمان » و « منسفيلد » و «دونوڤان » . أصبح الرجل المناسب ليقوم بالدور الذى تريده حكومة الولايات المتحدة فى الڤيتنام .

وفى ١٥ يونيو ١٩٥٤ وبعد أن انتهت معركة دين بيان ڤو .. وقارب مؤتمر جنيف على الانتهاء من أعماله استقالت وزارة الأمير « بولوك » الموالية للفرنسيين تحت ضغط الأمريكيين .. وعين ديم ــ الذى عاد سريعا الى البلاد ــ رئيسا لوزراء « دولة الڤيتنام » ان وصول ديم الى السلطة .. لا يعنى الا شىء واحد فقط .. هو بدء مرحلة جديدة من السيطرة الأمريكية على جنوب الڤيتنام .

***

ان الناس الذين يختلفون فيما بينهم حول المسئول عن بقاء كل من ألمانيا وكوريا مقسمتين .. لا يمكن الا أن يصلوا الى نتيجة واحدة .. عن المسئول عن بقاء الڤيتنام مقسمة .. فليس هناك جدال فى أن **سياسة** سلطات جنوب الڤيتنام الرامية الى عدم تنفيذ اتفاقيات جنيف ورفض اجراء الانتخابات العامة على نطاق كل الڤيتنام التى نصت الاتفاقيات على اجرائها .. ان هذه السياسة هى التى تسبب بلا أدنى شك تقسيم البلاد ..

ومن ناحية أخرى فاننا نرى سياسة الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية التى تتمسك باتفاقيات جنيف والتى تنفذ كل ما تفرضه هذه الاتفاقيات من التزامات وعلى رأسها مسألة اجراء انتخابات عامة فى كل أنحاء البلاد .

ولكن لماذا يرفض هؤلاء الذين يتصايحون حول ضرورة اجراء انتخابات حرة فى ألمانيا ـ على سبيل المثال ـ لماذا يرفضون اجراء انتخابات في الڤيتنام ؟ .

لسبب واحد هو انهم سوف يخسرون فى انتخابات الڤيتنام بكل تأكيد ؟

لقد كتب الصحفى الفرنسى « كلير بارسال » يقول « أما بالنسبة لهوشى منه فان المشكلة بالنسبة له ليست فى احراز النصر .. ولكن فى اخفاء مدى ما سيحرزه من انتصارات .. » (١) .

وكتبت مجلة « تايم » الأمريكية كتبت تقول « ان جنوب الڤيتنام غير مستعد الآن للدخول فى هذه المنافسة لا من الناحية العددية ولا من الناحية السياسية » (٢) .

ان التايم تحاول بدهاء أن تذكر الناس بأن شمال الڤيتنام يزيد عدد سكانه عن جنوب الڤيتنام بعدة ملايين من الأفراد .. وكأن هذا هو السبب الأساسى للخطر الذى سيحيق بحكومة جنوب الڤيتنام اذا ما أجريت الانتخابات العامة .. أما الضعف السياسى فهو فى نظر « التايم » السبب الثانى .

ان الحقائق تؤكد انه حتى اذا كانت جنوب الڤيتنام أكثر عددا من شمال الڤيتنام فانها لن تكسب الانتخابات .. ان الضعف السياسى يأتى فى المقدمة .. أما التعداد فانه قد لا يستحق حتى أن يأتى فى المرتبة الثانية .

أما حقيقة الأمر فقد أوردته بايجاز جريدة Christian Science Monitor الصادرة فى ٣١ يوليو ١٩٥٩ فى مقال للصحفى « رونالد

---

(١) Trebune des Nations عدد ١٥ يوليو ١٩٥٥ .

(٢) عدد ٤ أبريل ١٩٥٥ .

ستيد » اذ قالت : « ان قرارات چنيف تنص على ان هذا الخط (خط العرض ١٧) سيكون فقط مجرد خط حدود مؤقت حتى يمكن توحيد الڤيتنام باجراء انتخابات عامة .. ولم يحدث ذلك لأن حكومة جنوب الڤيتنام التى تسندها المساعدات الأمريكية المتعددة الأنواع .. قد رفضت حتى أن تناقش مسألة اعادة وحدة البلاد .

والحقيقة هى ان شعب الڤيتنام بعد سنوات من الصراع الثورى الحاد وبعد سنين طويلة من حرب شديدة القسوة .. ان هـــذا الشعب قد أسس ودعم حكومته الجديدة .. الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية .. فبعد ألفى عام من النضال .. نضال الآباء والأجداد ضد الاحتلال الأجنبى .. وبعد هذه التضحيات التى قدمها آلاف من الرجال الموهوبين من أجل استقلال وسيادة وطنهم .. بعد كل هذه التضحيات أنجب الشعب رجـــله .. رجل مستقبله .. « هوشى منه » .

لقد كانت هـــذه هى ارادة التاريخ .. نسجها من تضحيات الشعب ودمائه . ولكن هؤلاء الذين يتحكمون فى مصير الأمم وهم جالسون فى مكاتبهم .. يرون أن التاريخ قد أخطأ سيره وأن من الواجب اعادته الى طريق الصواب .. وأن الڤيتنام يجب أن تكون لها حكومة **أخرى** « حكومة وطنية » .. وطنية بالطـــريقة التى يريدها « العالم الحر » والڤيتنام يجب أن يقودها رجل آخر ..

« الحكومة الوطنية » الأخرى هى « جمهورية الڤيتنام » .. والرجل الآخر هو نيجودين ديم ..

ولقد حاول الأمريكيون أن يدعموا حكومة جنوب الڤيتنام .. أن يضعفوا من نفوذ حكومة الجمهورية الديمقراطية .. ولكن لندع الكاتب الفرنسى فيليب ديڤللر يتساءل « ماذا بقى لنا فى الڤيتنام » ؟ لم يبق لنا سوى كل من لفظته جبهة ڤيتمنة .. كبار الاقطاعيين

الخائفين على ثرواتهم وصغار الصناعيين ومن اليهم .. وليس هناك أدنى شك فى أن هوشى منه قد استحوذ على ثقة الڤيتناميين وان كل من له قيمة تذكر فى الڤيتنام قد ارتبط بهوشى منه .. واذا كان هناك شخص ما بامكانه أن يحقق الوحدة الوطنية للڤيتنام .. وأن يقود سفينة البلاد الى بحر الأمان .. فان هذا الشخص لن يكون سوى هوشى منه ..

يجب أن نتأكد .. انه بهوشى منه ورجاله .. وبهم فقط سوف يبنى مستقبل الڤيتنام .. وأن أى شىء خالد أو عظيم لن يبن فى هذا البلد دون مشاركتهم .. أو ضد ارادتهم .

ولم يستفد الأمريكيون من خبرة الفرنسيين التى عبر عنها ديڤللر .. ان الأمريكيين يعتقدون أنهم بامكانهم أن ينجحوا فيما فشل فيه الفرنسيين الذين أفسدوا الأمر « بعدم كفاءتهم » و « استعمارهم » .

ولكن هل نجح الأمريكان ؟

لا شك اننا اذا نظرنا الى وضع الڤيتنام الآن (١٩٦٠) لوجدنا اننا ازاء بلدين ليست بينهما أية رابطة سوى رابطة الكراهية ..

ولكن هل اختفى ذلك الكيان التاريخى الموحد ؟ هل حقيقة ان هذين البلدين الموجودين على أرض الڤيتنام واللذين يسيران فى اتجاهين متضادين تماما من الناحية السياسية والاقتصادية .. هل هما بلدان متعارضان فعلا ؟

قد يبدو الأمر كذلك .. ولكن فى المدى الطويل .. يبدو ان هذين الطريقين المنفصلين هما بداية طريق واحد .. طريق يؤدى الى وحدة أكثر وثوقا واندماجا مما كانت فى أى يوم من الأيام .

ان التقسيم حقيقة واقعة .. وان ما يسببه هذا التقسيم من

مآس أكثر من أن يوصف .. ولكن خلف التقسيم الذى تجمده الحرب الباردة .. يتدفق نهر الحياة الدافىء فى الأمة كلها .. فى كل من القسمين ..

ان وحدة الڤيتنام ما زالت حية .. ما زالت حية فى فتيات مثل « تران تهى نام » من مقاطعة وسط جنوب الڤيتنام .. والتى كانت عضوة نشطة فى حركة الشباب فى المنطقة المحررة من بلدها أيام المقاومة .. ثم ألقت سلطات « ديم » القبض عليها فى ١٩٥٥ لأنها قدمت عريضة عليها مئات من التوقيعات الى اللجنة الدولية تدعو الى عقد مؤتمر استشارى بين حكومتى الڤيتنام للاتفاق على اجراء الانتخابات العامة التى نصت اتفاقيات چنيف على اجرائها .

وعذبت الفتاة تعذيبا جمع بين وحشية القرون الوسطى وأحدث تطورات العلم البوليسى الأمريكى الحديث .. ولكنها رفضت أن تخضع .. رفضت أن تعترف بأنها « مذنبة » أو أن تقدم لجلاديها المعلومات التى طلبوها .

وعندما شارفت على الموت .. وجسدها كله تثخنه الجراح .. وبعد أن أصابها تعذيب الجلادين بالعقم .. سلمت بعد كل ذلك الى « اخصائيين » فى تعذيب السيدات ! ورغم كل ذلك فان الفتاة قد نجحت فى أن تصل الى شمال الڤيتنام فى سبتمبر ١٩٥٨ .. بعد عام من الافراج عنها .

ان وحدة الڤيتنام تحيى فى نفوس الشعب .. فى نفوس أفراد لا حصر لهم .. من رؤساء القرى .. من الفلاحين .. من سائقى العربات .. الذين خاطروا بحياتهم وهم يساعدون « تران تهى نام » على الهرب الى شمال الڤيتنام .

ان وحدة الڤيتنام تحيا فى نفوس عشرات الألوف من أبناء جنوب الڤيتنام .. الذين تجمعوا وفقا لاتفاقيات چنيف مع قواتهم

العسكرية فى شمال الڤيتنام والذين ترفض سلطات جنوب الڤيتنام حتى مجرد السماح لهم بمراسلة ذويهم .. وهم الآن يعملون لبناء شمال الڤيتنام .. موقنين ان هذا هو الطريق لتوحيد الڤيتنام سلميا . ان وحدة الڤيتنام تحيا فى حكومة الجمهورية الديمقراطية التى تطالب بلا ملل بعقـــد مؤتمر استشارى لترتيب اجـراء الانتخابات .. والتى تقدم باستمرار مقترحات لاعادة العـــلاقات الطبيعية بين قسمى البلاد .. مثل تبادل الرسائل البريدية والتعاون الثقافى والاجتماعى والتجارى بينهما ..

ان وحدة الڤيتنام تحيا أيضا فى حزب العمال الڤيتنامى الذى أعلن فى مؤتمره الثالث المنعقـــد فى سبتمبر ١٩٦٠ استمراره فى التمسك باعادة توحيد الڤيتنام سلميا والذى جعل الشعار التالى هدفا أساسيا له .. « بناء الاشتراكية فى الشمال واضعين فى الاعتبار الحالة فى الجنوب » .

انها تحيا فى هذا الحزب الذى تقول لجنته المركزية فى تقريرها للمؤتمر الثالث « قد تجف الأنهار .. وقد تندثر الجبال .. ولكن عزيمة شعبنا لاعادة وحـــدته لن تتزعزع ولســـوف تنتصر فى النهاية .. » .

ولن يتصور ان هذه الكلمات ليست سوى محسنات خطابية الا هؤلاء الذين فشلوا تماما فى دراسة وفهم تاريخ الڤيتنام .

ان النضال من أجل الوحدة .. يجمع كل القوى النشطة فى البلاد .. انه يجمع كل الشعب ..

ولا يقف عند الوحدة سوى هؤلاء الذين قال عنهم ديڤللرز أنهم بسبب شهواتهم الى الربح والمناصب .. بسبب عدائهم الدفين للشيوعية أو ببساطة بسبب بعض الأحقاد الشخصية قد أصبحوا على استعداد لتبنى سياسة معادية لمصالح شعبهم ولحرية وطنهم .

وفى زيارة قمت بها للخط الفاصل بين قسمى البلاد .. فى يناير ١٩٦٠ شاهدت لافتات ضخمة على الجانبين تواجه بعضها البعض .. لافتات تضع الشمال فى مواجهة الجنوب .. لافتات تعبر عن طبيعة النظامين .. عن موقفهما من اعادة توحيد البلاد ..

فعلى الضفة الجنوبية لنهر « ين هاى » لافتات الكراهية .. والتحفز والضياع التى تعبر عن نظام ديم .. « من يقسم الوطن الى قسمين ؟ من يخون الأمة ؟ ان الشعب يعرف من هو ؟ » وشعارات تقول : « ان ديم يستطيع أن يفعل مثلما يفعل الآخرون ».

وعلى الضفة الشمالية .. وفى مواجهة لافتات الجنوب .. توجد لافتات تقول « ان الشمال والجنوب تجمعهما سماء وطن واحد وما من قوة تستطيع أن تفصلهما عن بعضهما .. ان شعبنا قد وحده النضال ضد الامبرياليين الأمريكيين » .

وهكذا نرى شعارات أى الجانبين تعبر عن القوة وأى الجانبين تعبر شعاراته عن الضعف ..

وقد يختلف موقف الأجانب وفقا لاختلاف أهوائهم السياسية ووفقا لتفضيلهم لأى نظام من النظامين .. أما الفيتناميون المقيمون فى الخارج فقد أبدوا موقفا محددا يدعو للدهشة ..

ففى ١٩٥٩ أعلنت حكومة تايلاند ـ وهى عضو فى حلف جنوب شرقى آسيا ـ أعلنت أن السبعة عشر أو الثمانية عشر ألفا من الفيتناميين المقيمين فى أراضيها غير مرغوب فى بقائهم ـ وكان هؤلاء الفيتناميين قد لجأوا أثناء الحرب الى هذا البلد الأسيوى الذى كان صديقا .. وكان على استعداد لقبولهم فى هذا الوقت .

واذا ما نظر الانسان الى هؤلاء الناس الذين عاشوا أكثر من عشر سنوات فى هذا البلد الذى يسيطر عليه حلف جنوب شرقى

آسيا .. فى هذا « البلد الحر » .. حيث تعرضـوا لكل أنواع الدعايات المعادية للشيوعية لتخيل للوهلة الأولى انهم سوف يختارون العودة الى البلد « الحر » جنوب الڤيتنام عندما عرض عليهم اختيار الى أى القسمين يفضلون العودة .

وفى الحقيقة ان شخصا واحدا من العائدين الڤيتناميين لم يرغب فى العودة الى جنوب الڤيتنام .. لقد اختاروا جميعا « بلا استثناء العودة للڤيتنام الشمالية .. **واعترضت** أجهزة الدعاية فى جنـوب الڤيتنام .. ولكنها لم **تعترض بشدة** لأن سلطات جنوب الڤيتنام تعتقد ــ كما عبر عن ذلك أحد المراسلين الأمريكيين ــ ان لديها من الشيوعيين فى بلدها ما فيه الكفاية وأكثر .. وانها لن تحتمل مزيدا من الشيوعيين يستوردون من تايلاند » .

لقد أقنعتنا كافة الملابسات التاريخية التى شاهدناها بأنفسنا ان كلمة « شيوعى » تعنى بالضبط كلمة « ڤيتنامى » عند ديم والذين يعطفون على نظام حكمه ..

وحدث نفس الشىء عند ترحيل العمـال الڤيتناميين من المستعمرة الفرنسية « كاليدونيا الجديدة » فى ١٩٦٠ فقد أعلن الجميع رغبتهم فى العودة لشمال الڤيتنام وقد وقعت الحكومة الفرنسية اتفاقا مع حكومة الجمهورية الديمقراطية لتنظيم عودتهم ..

وقبل أن أغادر البلاد كانت الصحافة فى الڤيتنـام الجنوبية ما زالت تتعالى صيحاتها ضد هذه الاتفاقية .. ولكن النتيجة النهائية معروفة ..

ان هؤلاء العائدين باختيارهم الى الڤيتنام الشمالية انما يعبرون بذلك عن ايمانهم بوحدة وطنهم .

ولكن الى أى مدى توضع العقبات فى طريق الوحدة ؟ لقد سبق

للفرنسيين أن استخدموا شعار « ان الجنوب يختلف عن الشمال » واليوم يتردد هذا الشعار من جديد على ألسنة مؤيدى السياسة الأمريكية لتقسيم البلاد ..

لقد كتب الين . ج . هامر : لقد دمر الغزاة الفرنسيون فى منتصف القرن الثامن عشر أجهزة الحكم الاقطاعية فى شــــوشين الصينية وجردوا الشعب من كل حكامه المحليين وتحولت شوشين الصينية الى مستعمرة فرنسية .. وكانت شوشين الصينية هى المقاطعة الوحيدة من مقاطعات الهند الصينية الخمس التى كان لها حق التمثيل فى البرلمان الفرنسى بباريس (وكان مندوبها بطبيعة الحال فرنسيا) لقد نفذ الفرنسيون نظام الادارة الفرنسية المباشرة فى هذه المقاطعة بهدف قطع الصلات التاريخية لشوشين الصينية وتحطيم ثقافتها الخاصة ونظامها الاجتماعى الخاص .. ودمغها بطابع فرنسى .. ولم تجد هذه السياسة الفرنسية مقـــاومة شديدة .. فالحقيقة هى ان الڤيتناميين قد جاءوا الى شوشين الصينية متأخرين عن وصولهم الى آنام وتونكين .. ولم يستقروا هناك استقرارا مستمرا مثلما حدث فى الشمال .. ولم يبق هناك حكام وطنيون ليقودوا الحركة الوطنية .. أما البرجوازية الناشئة فقد كانت شديدة الالتصاق بالفرنسيين الذين أدى وجودهم الى خلقها ورغم كل ذلك فان القومية الڤيتنامية ظلت قوية فى صفوف الفلاحين فى شوشين الصينية (١) .

هل بامكاننا أن نتخيل وصول قوى عظيمة فى القرن التاسع عشر الى المناطق الغربية فى الولايات المتحدة فى الفترة التى كانت فيها هذه المناطق ما تزال قليلة السكان .. وانه قد أمكن لهذه القوى أن تنتزع هذه المنطقة من جسد الأرض الأم « الولايات المتحدة » وأسست فيها حكومة خاصة بها وحكمتها طوال مائة سنة تقريبا

---

(١) الصراع من أجل الهند الصينية ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .

بطريقة تختلف عن بقية البلاد .. فى هذه الحالة سنجد صورة مشابهة للوضع فى شوشين الصينية ..

ونظرا لوجود مساحات شاسعة من الأراضى الخصبة فى دلتا نهر « مايكونج » فقد تمكن المستعمرون الفرنسيون من تشجيع طبقة محلية من كبار الملاك شكلت قاعدة اجتماعية تخدم مصالحهم فى شوشين الصينية .. قاعدة اجتماعية كان من الصعب عليهم أن يخلقوا مثالها فى دلتا النهر الأحمر المزدحمة .. أو فى سهول آنام الساحلية الضيقة .. ولقد ظلت هذه الطبقة الحديثة التكوين من كبار الملاك تخدم الفرنسيين باخلاص لفترة طويلة .. ولا شك فى أن بعضها يعمل الآن فى خدمة الأمريكيين ..

ولا شك فى ان سهولة استغلال الأرض فى الجنوب .. وفى أن المايكونج بمجراه الهادىء .. الذى يختلف تماما عن مجرى ذلك النهر المتقلب الأهواء والشديد التعاريج .. نهر الأحمر فى الشمال .. لا شك فى أن ذلك قد أدى الى نشوء بعض العادات المختلفة لدى سكان الجنوب وجعلهم ينظرون فى بعض الأمور نظرة فيها بعض الاختلاف .. عن سكان الشمال ..

وهناك أيضا ذلك الاختلاف الطفيف فى لغة كل من القسمين .. الذى يوجد مثله بكثرة فى البلدان ذات الماضى الاقطاعى الطويل ..

وبالرغم من كل ذلك فان الاختلافات بين شمال الڤيتنام وجنوبه تقل كثيرا جدا عن الاختلافات الموجودة فعلا بين شمالى ايطاليا وجنوبيها ..

ومع ذلك فان من يطالب بتقسيم ايطاليا بسبب الاختلافات الاقليمية لن ينظر اليه الا على انه داعية مجنون للانقسام ..

ولكن الحقيقة هى ان تقسيم الفرنسيين للڤيتنام كان أقوى ضربة وجهت لاستقلال الڤيتنام ..

والحقيقة هى ان بقاء الڤيتنام مقسمة لا يعنى سوى أن الڤيتنام لم يحرز بعد استقلاله كاملا.. تلك هى الحقيقة الصارخة.. ان القهر القومى لم ينته بعد فى الڤيتنام ..

أما بالنسبة للڤيتناميين فان النضال من أجل اعادة توحيد البلاد هو أول شرط من شروط الوطنية ..

ومهما حاول نيجودين ديم .. فانه لن يستمر طويلا قادرا على أن يحقق حلم الساسة الأمريكيين فى الڤيتنام .. تقسيم البلاد ..

فان خط التقسيم .. مرسوم على طول مجرى نهر « ين هاى » .. انه خط مرسوم على سطح الماء ..

لقد نفذت حكومة الجمهورية الديمقراطية تعهداتها فى اتفاقيات چنيف أما نظام نيجودين ديم فقد تعمد أن يظهر بكل الوسائل استخفافه بهذه الاتفاقيات ..

ان اللجنة الدولية المكلفة بمراقبة تنفيذ الاتفاقيات لم تسجل أى انتهاك للاتفاقيات من جانب الجمهورية الديمقراطية .. أما نظام نيجودين ديم فعلى الرغم من عرقلته لنشاط اللجنة .. تلك العرقلة التى بلغت حد ارتكاب أعمال وقحة ضدها .. مثل نهب مكاتبها فى فندق ماچيستيك فى ٢٠ يوليو ١٩٥٥ — رغم كل ذلك فان اللجنة قد سجلت حتى ١٩٦٠ أن سلطات ديم قد ارتكبت المخالفات التالية ..

• ٩٢ مخالفة للنص الذى يمنع زيادة عدد القوات العسكرية وزيادة تسليحها وزيادة المواد الحربية فى الڤيتنام .

• ٩ مخالفات للمادة ٢٥ من الاتفاقية التى توجب التعاون مع اللجنة لتمكينها من مراقبة هذه الامدادات ..

• ٤٣ مخالفة للمادة السابعة التى تنص على عـــدم اقتحام المنطقة المنزوعة السلاح على خط العرض ١٧ .

• ٤٢ مخالفة للمادة ١٤ فقرة جـ وهى مخالفات تتعلق بسجن ٢٧٤٩ شخصا وتعذيبهم وقتل بعضهم .. والمادة ١٤ فقرة جـ تنص على عدم القبض على الأشخاص الذين سبق لهم أن أيدوا الطرف الآخر خلال فترة الحرب .

وفوق ذلك فان اللجنة قد أرسلت تقاريرا الى الرئاسة المشتركة لمؤتمر جنيف والى الدول التى مثلت فيه تبلغها فيها ان حكومة جنوب الڤيتنام قد رفضت السماح لها بالقيام بتحريات حـــول شكاوى تتعلق بـ ٧٠.٠٢٩ شخصا من الأعضاء السابقين فى فرق المقاومة فى جنوب الڤيتنام .

وفى ١٩٥٩ .. ولتغذية الحملة المعادية للجمهورية الديمقراطية فى صحافة العالم اتهمت بالاعتداء على لاوس .. وقامت لجنة تابعة للأمم المتحدة لا تضم أية دولة صديقة للجمهورية الديمقراطية بتحريات فى أراضى لاوس وأفهمت الناس عقب هذه التحريات انها لم تجد أثرا للتدخل الڤيتنامى .

وقبل ذلك فى يونيو ١٩٥٨ اتهم نظام نيجودين ديم بالعدوان على كمبوديا وقامت اللجنة الدولية ـ التى تضم كندا وهى دولة صديقة جدا لڤيتنام الجنوبية ـ بتحريات أعلنت بعدها تأكيدها لاتهامات كمبوديا .

ان حكومة الجمهورية الديمقراطية قد تبنت باستمرار سياسة اعادة توحيد البلاد سلميا .. بينما نجد نظام نيجودين ديم يرفع شعارا استعاره من الطاغية الكورى السيىء الطالع سينجمان رى ـ شعار « لنزحف شمالا » .. وهى تجعل ضباطها يقسمون فى حفلات

تخريجهم على « الزحف شمالا » يقسموا على أن « يعبروا نهر ين هاى » .

فى شمال الفيتنام توجد متناقضات مثلها مثل أى مكان آخر والتناقض الرئيسى هو التناقض بين الغالبية العظمى للشعب التى تتمثل مصالحها فى الاجراءات التقدمية للمجتمع الاشتراكى وبين الأقلية التى ستطيح الاشتراكية بمصالحها .. وتقف الحكومة الى جانب الأغلبية وتعتمد على مساندتها وتساعدها جهد طاقتها على تحقيق أهدافها .. ونظرا لقوة الأغلبية فان الأقلية لم تجرؤ على أن تلجأ للعنف للدفاع عن مصالحها .. وهكذا تحل التناقضات الاجتماعية بالوسائل السلمية .. وتتم بالتدريج عملية التحويل الاشتراكى للمؤسسات الرأسمالية وتأسيس التعاونيات الزراعية .. ونظرا لقوة الحكومة ولمساندة غالبية الشعب لها فان أشكال السيطرة التى تمارس ضد الأقلية تتخذ طابع الاعتدال فان مجتمع شمال الفيتنام يتميز بالثقة والمثابرة والاستقرار .

أما مجتمع جنوب الفيتنام فقد وصفه ديم بنفسه فى حديثه مع سيرچى جروسارد مراسل الفيجارو فى فبراير ١٩٥٩ وصفه قائلا « اننا فى حالة حرب » . وفى ٢٣ يناير ١٩٦٠ كتبت جريدة « نيجون لى آن » تقول « ليست هناك جبهة محددة .. اننا الآن فى حالة حرب حقيقية » . أما جيش ديم فبعد أن انتهى من هجومه على دولة كمبوديا الصغيرة .. ظل مشغولا باستمرار فى عمليات ضد اخوته الفيتناميين . فمن حرب ٥٤ ـ ١٩٥٥ ضد بعض المذاهب السياسة ذات الطابع الدينى مثل « هاو هاو » ، « كاوديا » وضد الـ « بنيه اكسيين » الاقطاعيين .. الى الحرب الحالية التى يشنها هذا الجيش ضد ريف الفيتنام .. ان نظام ديم لا يخدم فى الحقيقة سوى حفنة من الاقطاعيين والبرجوازيين الكومبرادور . ورغم محاولات سلطات ديم وصراخها من « أعمال التخريب التى يقوم

بها الشمال » محاولة بذلك أن تبرر المعارضة الشعبية الواسعة الموجهة ضدها .. رغم هذه الصيحات فان سلطات ديم لا تريد أن تسأل نفسها « أين كان الشمال » فى كوبا عندما أطيح بباتيستا ؟ أو فى العراق عندما أطيح بنورى السعيد ؟ ان شعب جنوب الفيتنام الذى كان فى وقت عقد اتفاقيات جنيف قد حرر نصف مساحة جنوب الفيتنام من أيدى الفرنسيين لقادر بطبيعة الحال على أن يدافع عن مصالحه ضد الخونة مثلما فعل شعب كوبا وشعب العراق .

ان العمليات العسكرية التى تقوم بها سلطات ديم تشكل نظاما كاملا للقهر .. يوجه ضد كل من يبدى أقل معارضة للحكومة .. فقد قالت « التايم » فى ١١ يوليو ١٩٦٠ ان ديم عنده « عقدة ضد النقد » . لقد أسس ديم مقتفيا أثر هتلر والفاشست « نظاما للحكم » معاديا للشيوعية . وأسفر ارهاب نيجودين ديم عن أكثر من ربع مليون معتقل ، ١٥٫٠٠٠ قتيل أو مفقود .. وفى ١٩٥٩ أصدرت حكومة ديم القانون رقم ١٠ لسنة ٥٩ الذى ينص على تشكيل محاكم عسكرية خاصة ليس من حقها أن تصدر الا نوعين من الأحكام فقط : الاعدام .. أو السجن المؤبد .. وقد زودت هذه المحاكم بمقاصل سريعة .. وتنفذ المحكمة أحكام الاعدام علنا لتبث الرعب فى نفوس المتفرجين الذين يجمعون رغم أنوفهم لحضور الاعدام .. وفى جنوب الفيتنام تعمل أكثر من عشرين مقصلة .. وقد كتبت جريدة « تودد » الصادرة فى سايجون تقول ان الحكومة قررت منح جلاد الجيلوتين « فونج » مكافأة قدرها ١٠٠٠ قرش على كل رأس يقطعه (والجلاد فونج يقوم بهذا العمل منذ أيام الاستعمار الفرنسى) .. وكثيرا ما تنشر الصحف صورا للجيلوتين التى تستخدمها محاكم المادة ١٠ لسنة ٥٩ ..

أما الجمهورية الديمقراطية فقد نفذت قانون الاصلاح الزراعى

ومن خلال التطبيق أمكن تلافى وتصحيح الأخطاء .. وبهذا القانون أصبحت الڤيتنام أول دولة فى تاريخ جنوب شرقى آسيا الطويل تنفذ اصلاحا جذريا .. وتوزع الأرض على الفلاحين ..

أما الطريقة التى وصل بها الاصلاح الزراعى الى جنوب الڤيتنام .. فانها تعبر عن مدى « استقلالية » نظام نيجودين ديم

ففى ١٩٥٤ قدم الچنرال لاوتون . ج . كوملنز المبعوث الخاص للرئيس ايزنهاور الى حكومة ديم برنامجا للاصلاح الزراعى يعبر عن وجهة النظر الأمريكية .. وبعد أن قدمه ـ بل فى نفس اليوم الذى قدمه فيه ـ دعا المندوب السامى الفرنسى حكومة ديم الى أن تنفذ برنامجا شبيها بالبرنامج الأمريكى .. ولم تمض ساعات حتى كان ديم يدعو الى اجتماع حضره اخصائيون زراعيون ڤيتناميون وأمريكيون وفرنسيون .. وأنجز هؤلاء الخبراء عملهم بسرعة وفى ٨ يناير ١٩٥٥ أصدر ديم المرسوم رقم ٢ الذى ينظم عمليات التأجير ويحدد الايجارات ..

وفى ٥ فبراير ١٩٥٥ صدر المرسوم رقم ٧ لتنظيم اعادة زراعة الأراضى المهجورة (١) .

وكان اصلاح « ديم » الزراعى ذا هدفين .. ولم يكن اعطاء الأرض واحدا منهما على أية حال .. بل كان أحد أهداف هذا الاصلاح هو اعادة الأراضى التى وزعتها الجمهورية الديمقراطية على الفلاحين خلال فترة المقاومة .. اعادة هذه الأراضى للاقطاعيين . وكان الهدف الثانى هو شراء بعض الأراضى لبيعها من جديد ـ لا توزيعها ـ على أغنياء الفلاحين .. وذلك للاقلال من عدد

---

(١) ڤيتنام : السنوات الخمس الاولى بقلم بريس چتنجر الذى وصفته U. S. O. M فى سايجون بأنه أخصائى فى الاصلاح الزراعى .

الاقطاعيين وتشجيعهم على أن يتحولوا الى رأسماليين صناعيين .. وبهذا يمكن توسيع تلك القاعدة الشديدة الضيق التى يستند عليها حكم ديم ..

وقد وجهت حكومة الجمهورية الديمقراطية اتهاما صريحا لسلطات ديم بأنها قد سممت عن عمد طعام سجناء معسكر الاعتقال فى « ڤو . لوا » فى ١ ديسمبر ١٩٥٨ الأمر الذى أدى الى وفاة أكثر من ألف منهم ..

وفى شمال الڤيتنام أعلن فى مؤتمر حزب العمال الڤيتنامى الذى عقد فى ١٩٦٠ « أن توسيع الديمقراطية وزيادة اشراك ممثلى الجماهير فى ادارة شئون الدولة أمر يتمشى مع طبيعة سلطة الديمقراطية الشعبية » أما فى الجنوب فقد أعلن « نيجودين نيهو » أخو « نيجودين ديم » ومستشاره « اننا يجب ألا نسأل أنفسنا ما اذا كان الشعب يحبنا أم لا » .

وبينما تبذل حكومة الجمهورية الديمقراطية جهودا متواصلة لكى تجذب عامة الشعب للمساهمة فى أعمال الحكومة .. نجد « ديم » يقيم نظاما عائليا .. فهو حتى لا يجرؤ على أن يشرك أصدقائه معه فى السلطة .. لقد تحدث الصحفى الأمريكى تلمان دروين فى عدد « نيويورك تايمز » الصادر فى ١٩ مايو ١٩٦٠ عن هذا النظام العائلى قائلا : « .. ان العناصر المتعلمة لا توافق هى أيضا على هذا النظام العائلى .. فأحد الاخوة الصغار لديم وهو « نيجودين نيهو » هو المستشار الأعلى لرئيس الجمهورية وهو رئيس الحزب السياسى السرى المسمى « كان لاو » .

و « نيجودين كان » وهو أخو ديم الأكبر يحكم الڤيتنام الوسطى التى كانت تسمى فيما سبق بولاية « آنام » أما الأخ الثالث «نيجودين لايين » فهو سفير الڤيتنام الجنوبية فى لندن والأخ الرابع وهو

الأسقف « نيجودين ثاك » له تأثيره الكبير فى صياغة الأفكار السياسية لهذا النظام . « ولكن نيجودين نيهو هو أكثر هؤلاء الأخوة ضجيجا .. وتثير زوجته . وهى عضو فى الجمعية الوطنية كثيرا من الجـــدل بما تتمتع به من نفوذ وسيطرة على الجمعية الوطنية أو فى المجالات الأخرى .. » .

ويتهم نيجودين نيهو بأنه يستغل منصـــبه لتحقيق مطامعه الشخصية ومطامع أتباعه سواء فى مجال الأعمـــال أو فى مجال السياسة . ويعتقد المراقبون أن الأقاويل التى تشاع عنه وعن زوجته قد تكون مبالغا فيها ولكنهم مع ذلك يوافقون تماما على أن الدولة تتوافر على تزايد الامتيازات الخاصة وعمليات الكسب غير المشروع التى يقوم بها الأشخاص المقربون من نيهو » .

أما نيهو فهو شخص مستهتر .. يدخن باستمرار .. منطو على نفسه يقضى معظم وقته فى استوديو عازل للصـــوت فى قصر الرئاسة .. وهو يعلن أن كل القصص التى تقال ضده انما هى جزء من حملة موعز بها من الشيوعيين لتشويه سمعته .. وهو يقول ان على أعضاء حزبه ـ البالغ عددهم ٧٠ ألفا ومعظمهم من العمال والفلاحين ـ أن يمارسوا نشاطهم الحزبى سرا خوفا من اغتيـــال الشيوعيين لهم » .

وعلى أية حال لقد اتسع نطاق الحملة الموعز بها من الشيوعيين لتشويه سمعته ..

ففى ١٧ يوليو ١٩٦٠ اقترحت « التايم » الأمريكية التى لا يمكن اتهامها بأنها خاضعة للنفوذ الشيوعى .. اقترحت أن يغادر نيهو وزوجته البلاد فى « أجازة طويلة » وأن يحل حزب « كان لاو » الذى قالت عنه ان له « أعماله المريبة وارتباطاته مع البوليس .. » .

وقبل أن أغادر الفيتنام بقليل تلقيت المعلومات التالية عن التقدم

فى مجالى الاقتصاد والتعليم فى الجمهورية الديمقراطية حتى ١٩٦٠ من رئيس الوزراء « ڤام ڤان دونج » .. لقد قال :

« اننا نستطيع أن نورد هنا ـ بكل تواضع ـ بعض النجاحات الهامة التى أحرزناها فى مجالى التطور الاقتصادى والتعليمى .. » .

« لقد اختفت المجاعة .. تلك المجاعة المزمنة التى كانت تصيب البلاد سنويا .. ان الشعب لديه ما يكفى من الطعام .. وفوق ذلك فان لدينا ما يزيد عن احتياجاتنا .. نحتفظ ببعضه كاحتياطى .. ونصدر الباقى .. » .

اننا ننتج سنويا ٤٠٠ كج من الأطعمة لكل فرد من السكان . وهكتار الأرز عندنا ينتج ٢ر٢٨ طن من الأرز الشعير وهو واحد من أعلى مستويات الانتاج فى جنوب شرقى آسيا كلها .

« لقد أقيمت فى الجمهورية الديمقراطية صناعة وطنية وهى تنمو الآن باطراد ، ولأول مرة فى تاريخ البلاد .. بنيت صناعات ثقيلة .. أو هى تبنى الآن .. ويتزايد انتاج الصناعات الخفيفة والحرف زيادة كبيرة ولقد مكنتنا هذه الزيادة من أن ننقص وارداتنا من السلع الاستهلاكية بنسبة الثلثين اذا ما قارناها بوارداتنا منذ خمس سنوات .

وطوال هذه السنوات الخمس كنا نبنى مصنعا كل أربعة عشر يوما فى المتوسط وقد مكنا هذا من أن نحقق زيادة سريعة جدا فى التنمية الصناعية تبلغ ٣٠٪ فى السنة » .

وبامكاننا أن نقول الآن ان معظم سكان الدلتا يعرفون القراءة والكتابة .. وتضم المدارس الثانوية فى شمال الڤيتنام ١٦٪ من مجموع السكان .. أى يبلغون خمسة أضعاف طلاب المدارس الثانوية فى الهند الصينية كلها قبل الحرب .. وهناك ١٠٠٠ر١٠ طالب

جامعى أى عشرة أضعاف الطلاب الجامعيين فى الهند الصينية قبل الحرب أيضا .

ولقد قضينا على البطالة وكافة المساوىء الاجتماعية قضاء يكاد يكون تاما .. وارتفع مستوى معيشة الشعب ارتفاعا محسوسا وشعب شمال الڤيتنام يأكل الآن حتى يشبع ولديه ملابس ومنازل لطيفة .. وبامكان أطفاله أن يذهبوا للمدرسة .. وشبانه أن يجدوا عملا ..

أما فى جنوب الڤيتنام فان النشرة الاقتصادية التى تصدر فى سايجون تقول ان التنمية الاقتصادية فى جنوب الڤيتنام قد زادت فى الثلاثة أرباع الأولى من عام ١٩٥٩ فبنيت ٣١ كنيسة ومعبدا .. ، ١٣ صالة رقص وسينما ومصنع طوب واحد ..

وتقدر الاحصاءات الصادرة فى جنوب الڤيتنام عدد المتعطلين كليا أو جزئيا بحوالى ٥ر١ مليون شخص .

وبينما كان شمال الڤيتنام أحد المناطق التى لا تجود فيها زراعة الأرز فهى تعد الآن من أكبر منتجى الأرز فى جنوب شرقى آسيا كله سواء من حيث غلة الهكتار أو من حيث المجموع الكلى للانتاج ، فقد تضاعف انتاجها للأرز عما كان عليه فى ١٩٣٩ .

أما جنوب الڤيتنام التى كانت فيما مضى مزرعة الڤيتنام كلها .. فانها لم تصل بعد الى مستوى انتاجها ١٩٣٩ . ان سلطات جنوب الڤيتنام تلك المنطقة التى يعتمد سكانها فى غذائهم الرئيسى على الأرز تقف مكتوفة الأيدى تجاه اعلان الأمريكيين ان الولايات المتحدة « تعارض زيادة زراعة الأرز فى الڤيتنام نظرا لأن أمريكا قد أصبحت احدى الدول الهامة التى تصدر الأرز » (١) .

---

(١) مجلة « تايم الڤيتنامية » سايجون ١٣ سبتمبر ١٩٥٨ .

لقد كتب الاقتصادى الفيتنامى « لى ثهان كهوى » .. وهو يعيش فى باريس بعيدا عن كلا النظامين القائمين فى الفيتنام .. كتب فى مجلة « تربيون دى ناسيون» Tribune des Nations فى ٢ مايو ١٩٥٩ .

« لنأخذ هذه الحالة النموذجية كمثال لنا حالة جنوب الفيتنام فهى بلد قد تلقى مساعدات تبلغ قيمتها ٨٠٠ مليون دولار خلال أعوام ٥٤ ــ ١٩٥٨ وهى كمية خيالية بالنسبة لبلد صغير تعداده ١٢ مليون نسمة . ولكن استيراد السلع الاستهلاكية قد استنفذ ٨٠٪ من مجموع هذه المساعدات . والمهم أيضا هو ان صناعة النسيج والسكر والدخان والسجاير .. الخ تعانى فى جنوب الفيتنام أزمة حادة والأهم من ذلك هو أن كل الدخل القومى يستنزف عن آخره ولا يترك أى شىء منه لزيادة رؤوس الأموال المستثمرة .. تلك الزيادة التى لا يمكن الحصول عليها الآن الا بمساعدات خارجية .. ولكن هذه المساعدات تفرض بدورها على الحكومة سياسة للتسليح تلتهم ما يقرب من نصفها فاذا ما أضفنا اليها مصروفات الادارات فانه لا يتبقى من هذه المساعدات سوى ٢٠٪ وهو الذى يستخدم للأغراض الاقتصادية والاجتماعية .. وهذا يوضح السبب فى أن الدخل القومى لهذا البلد لا يزيد مطلقا » .

ان على جنوب الفيتنام أن يواجه الآن المنافسة الاقتصادية لشمال الفيتنام .. ان الشمال يخطو خطوات واسعة نحو التصنيع .. وهو يحقق بتضحيات ملموسة وبمساعدة حلفائه هذا التصنيع على أوسع نطاق .. والمساعدة التى يتلقاها أقل بكثير ــ من حيث الحجم ــ من المساعدة الأمريكية التى يتلقاها جنوب الفيتنام (١) ولكنها أكثر قيمة من المساعدات الأمريكية لأنها مخصصة

(١) وفقا لتقدير تقريبى عن المساعدات المقدمة لقسمى الفيتنام فان شمال الفيتنام ينال الثلث فى حين ينال الجنوب الثلثين .

أساسا لتصنيع البلاد .. انه من السهل التنبؤ بنتاج السنوات المقبلة » .

ان المستعمرين قد خلقوا من البقايا المبعثرة من جيش باوديا قوة حسنة التسليح تبلغ قواتها النظامية وحدها ١٥٠٫٠٠٠ جندى فاذا ما أضفنا اليها قوات الميليشيا وقوات البوليس وحراس الريف لبلغ مجموعها ٤٥٠٫٠٠٠ رجل يمكن تعبئتهم تحت السلاح فى أى وقت .

لقد نشرت صحافة الڤيتنام الجنوبية فى ١٩٥٧ تقاريرا سرية تقول ان ضباط هذا الجيش قد دربوا على استخدام الأسلحة الذرية ..

وبينما تزداد قوة هذا الجيش .. تسرع أمريكا ناحية أخرى فى بناء قواعد جوية فى جنوب الڤيتنام لتحولها مثل الفلبين الى واحدة من أكبر قاعدتين أمريكيتين فى جنوب شرق آسيا .

ولكى لا يصبح انتهاك اتفاقيات چنيف مفضوحا فان أمريكا تتظاهر بأن هذه القواعد تبنى لأغراض مدنية .. فكل الناس مثلا يعلمون أن طريق سايجون ــ بيين ــ هوآ الذى يبلغ طوله ٢٠ ميلا والذى يقال عنه انه ليس سوى « أوتو ستراد » .. الكل يعلمون انه قاعدة جوية ضخمة « متنكرة » . ان تكاليف هذه « المشاريع المدنية » تدفعها « عرضا » البعثة العسكرية الاستشارية الأمريكية .

ان القواعد الجوية والبحرية تنتشر فى كل أنحاء جنوب الڤيتنام .. ان ضباط البعثة العسكرية الاستشارية الأمريكية يقومون بدور القيادة العليا الفعلية لجيش الڤيتنام .. وتقوم البعثة الأمريكية للعمليات بنفس الدور فى السيطرة على اقتصاديات البلاد .. كما تقوم بعثة جامعة ميتشجن بنفس المهام فى الأجهزة البوليسية والادارية فى البلاد .

وكثيرا ما يشـــترك الضباط الأمريكيون اشتراكا مباشرا فى الحملات الارهابية التى تشنها قوات ديم المسلحة .

لقد تحدث الصحفى الانجليزى « داڤيد هوتهام » بغيظ عن نيجودين ديم قائلا « ان الفرق بين كل من فرانكو وأديناور وتيتو وسينجمان رى وبين ديم يكمن فى أن الأربعة الأول كانوا نتـــاجا للتفاعلات الداخلية التى جرت فى بلدانهم .. أما ديم فانه ببساطة مجرد شيء خرج من قبعة المستر دلاس ويبدو فى أحد الأزمات .. انه دخيل على جنوب الڤيتنام .. فحينما كان هوشى منه يحارب الفرنسيين كان ديم يعيش مدعيا الورع فى أسقفية نيو جرسى .. » .

« أما الاستفتاء الذى أجرى فى ٢٦ أكتوبر ١٩٥٥ فى جنـــوب الڤيتنام (لاحلال ديم كرتيس « لجمهورية » « مستقلة » بدلا من الامبراطور باوديا) فقد كان محاولة لاضفاء جو من الديمقراطية على نظام حكم (ديم) » .

ويمضى هوتهام قائلا « ان الڤيتنام الجنوبية أبعد من أن تكون دولة مستقلة انها من أكثر البلاد تبعية فى العالم » .

ولكن ما نوع هذه العلاقة القائمة بين جنوب الڤيتنام وبين أصدقاء ديم « فى العالم الحر » .. عبر الباسفيك ؟

ان هذه العلاقة قد تبدو من جانب أمريكا نوعا من العطف الأبوى على حكومة حرة .. طالما أن كل شيء يسير وفق هداها .. ولكن اذا ما اعترضت حكومة جنوب الڤيتنام أى اعتراض ولو طفيف على سياسة أمريكا فان هذا العطف الأبوى سرعان ما ينقلب الى بلطجة متعالية ..

ويتضح هذان الأسلوبان تماما فى الخطاب الذى ألقاه السناتور الأمريكى جون . ف . كنيدى فى حفل أقامته جمعية « الأصـــدقاء

الأمريكيين للڤيتنام » ألقاه فى ١ يونيو ١٩٥٦ « اننا اذا لم نكن آباءا لهذه الڤيتنام الصغيرة فاننا على الأقل بمثابة الاشبين بالنسبة لها .. لقد أشرفنا على ولادتها .. وساعدناها على أن تستمر فى الحياة وساهمنا فى رسم صورة مستقبلها .. » ولكن اللهجة سوف تختلف عندما يبدى « الطفل » نوعا من « الشقاوة » فقد كتب المراسل الفرنسى « چورچ شافارد » فى جريدة « الموند » فى ٤ يناير ١٩٥١ يقول حينما يريد الچنرال « أودانيال » وهو يقوم بالاشراف على تدريبات الجيش الڤيتنامى أن يخرس أية معارضة يبديها حلفاؤه .. فانه يدق المنضدة بيده ويصرخ متسائلا « من الذى يدفع ثمن كل هذا ؟ » وكل ما فعله الڤيتناميون الذين تجرأوا على الاعتراض هو انهم طلبوا أن ينفض الاجتماع حتى يتشاوروا سويا .. ثم عادوا ليعلنوا موافقتهم .. » .

ان ديم بنفسه قد وصف طبيعة « استقلاله » أحسن وصف فى كلمات قالها خلال زيارته للولايات المتحدة فى ١٩٥٧ قال « ان حدود الولايات المتحدة تمتد حتى الڤيتنام .. حتى خط العرض ١٧ » أما ڤيتنام الشمالية فليس فيها أية بعثات عسكرية أجنبية .. ولا تنفق على الدفاع الا ٢٠٪ فقط من مجموع ميزانيتها ..

ان التعليم يجرى فى جامعات الشمال باللغة الوطنية .. وهذه الخطوة الهامة جدا فى حياة بلد حديث الاستقلال .. لم يخطها جنوب الڤيتنام بعد .. حيث ما زال التعليم هناك يجرى باللغتين الفرنسية والانجليزية .

أى النظامين اذن .. نظام وطنى ؟ .. أيهما يمثل مستقبل الوطن ؟ .

وفى ١٨ يناير ١٩٥٩ أرسل القائد العام لقوات الجيش الشعبى

الڤيتنامى رسالة عاجلة جدا من هانوى الى السفير الهندى س . س . أنصارى (رئيس اللجنة الدولية فى الڤيتنام) فى مقر رئاسته فى سايجون .

وتقول هذه الرسالة .. « اننى أود أن ألفت نظر اللجنة الدولية الى جرائم القتل بالجملة التى ترتكبها سلطات جنوب الڤيتنام فى معسكرات المسجونين السياسيين فى « ڤولوا » .

« فقد أقامت سلطات جنوب الڤيتنام فى قرية فوهوا (بعد أربعة كيلومترات من مدينة « ثيو . داو . موت » التى تبعد ٣٣ كيلومترا عن سايجون) أكبر معسكرات المسجونين والمعتقلين فى جنوب الڤيتنام باسم معسكر « ڤو . لوا » وهى تخفى بشاعة هذا المعسكر تحت اسم « المركز الرئيسى لاعادة التربية السياسية » وقد سبق أن تناولنا موضوع هذا المعسكر فى رسائل عديدة منا الى لجنتكم الدولية .. » .

« .. وفى يونيو ١٩٥٨ جمع فى هذا المعسكر حوالى ٦٠٠٠ مسجون ومعتقل من الجنسين غالبيتهم العظمى من رجال المقاومة السابقين ووطنيين آخرين من شتى الاتجاهات السياسية والمهن .. يجمعهم جميعا شىء واحد .. هو الرغبة فى السلام ، واعادة توحيد الوطن وتطبيق اتفاقيات چنيف » .

« ولقد فرضت سلطات جنوب الڤيتنام على هذا المعسكر نظاما قاسيا أدى الى ارتفاع مستمر فى عدد المرضى الذى بلغ عدة آلاف والى وفيات كثيرة .. تصل كل شهر الى عدة مئات .. » .

ولكن هذه السلطات لم تكتف بأساليب الاغتيال هذه .. ففى أوائل ديسمبر ١٩٥٨ أصدرت أوامرها بتسميم المسجونين .. وبعد أن تناول المسجونون الوجبة المسممة لقى ١٠٠٠ منهم حتفهم وأصيب آلاف منهم بأمراض خطيرة .. وقد حاول بعض المسجونون

أن يتسلقوا سطح المعسكر لينادوا مطالبين بالنجدة ولكن رصاص حراس السـجن انهال عليهم فقتل بعضهم .. وفى الأيام التالية أرسلت السلطات الى المعسكر فرقة مسلحة لمحاصرته .. وقوة من الحرس المدنى لتقيم حواجز بين عنابر المعسكر .. ثم صبوا البترول .. وأشعلوا النيران فى المعسكر .. فالتهمت النيران كثيرا من جثث الذين ماتوا بالسم .. وقتلت مزيدا من الذين بقوا أحيـاء .

« واندفع سكان القرى المجاورة وكان بينهم آباء وأقارب بعض الضحايا .. اندفعوا محاولين انقاذهم ولكن رصاص العمـلاء المسلحين لسطات جنوب الڤيتنام .. ردهم على أعقابهم .. » .

« لقد سبق أن أبلغنا لجنتكم الدولية عن أحداث القتل الجماعى التى ارتكبت فى « داى اكسيون » ، « هونج دين » خلال ١٩٥٥ ضد أعضاء المقاومة السابقين .. واليوم فاننا نبلغها بهذه المذبحة الفظيعة التى تمت تنفيذا لسياسة « معاداة وسحق الشيوعيين » التى تتبعها سلطات جنوب الڤيتنام .. تلك السياسة التى تهدف فى الدرجة الأولى الى اعادة محاكمة أفـراد المقاومة السابقين وقهر الوطنيين الڤيتناميين .. بهدف استمرار تقسيم الڤيتنام وتحويل جنوب الڤيتنام الى مستعمرة أمريكية وقاعدة للتحضير للحرب فى جنوب شرقى آسيا .. » .

« يا سيادة الرئيس : ان المسجونين السياسيين الذين ما زالوا أحياء فى معسكرات « ڤو . لوا » وغيرهم من المسجونين والمعتقلين السياسيين الموجودين فى السـجون والمعتقلات الأخرى .. هم مواطنون ڤيتناميون يحبون السلام والحرية .. ويتمنون لوطنهم الاستقلال ولمواطنيهم أن يستمتعوا بالحد الأدنى اللازم من الحريات الديمقراطية .

وهم لهذا يعارضون التدخل الأمريكى الامبريالى فى الجـــزء الجنوبى من بلادنا ويعارضون الديكتاتورية الفاشية لادارة نيجودين ديم .. انهم أبناء وبنات مخلصون لشعبنا الڤيتنامى .. وهم فوق ذلك رجال ونساء من ذوى المكانة فى بلادنا .. انهم ممثلوا البشرية التقدمية » .

« وأنا فى هذه الرسالة ما زلت أتحرك فى نطاق اتفاقيات چنيف بعرض هذا الأمر على اللجنة الدولية . ان حيـــــاة المسجونين السياسيين فى معسكر ڤو . لوا ، ما زالت تهدد تهديدا خطرا . ومن أجل انقاذ حياة هؤلاء المواطنين الڤيتناميين الشرفاء .. محبى السلام فان القيادة العليا للجيش تطلب من اللجنة الدولية بالحاح أن تنتقل فورا الى المعسكر لاجراء تحقيق عن المذابح التى جرت هناك وأن تتدخل لدى سلطات جنوب الڤيتنام لمساعدة هؤلاء الأبرياء الذين ما زالوا أحيـــاء والافراج عنهم .. الأمر الذى يتمشى مع اتفاقيات چنيف .. ويتمشى مع مصالح الشعب الڤيتنامى » .

وما لبثت هذه الجريمة أن حركت كل صحافة العالم الاشتراكى والصحافة الديمقراطية فى العالم الرأسمالى ..

ولكن هل هذه التهم الموجهة الى سلطات نيجودين ديم بخصوص مذبحة « ڤو . لوا » تهم حقيقية ؟ وقبل أن نحاول الاجابة على هذا السؤال يجب أولا أن نلقى نظرة على شخصية وموقف كل من المتهم والذى يوجه الاتهام ..

من الذى يوجه الاتهام ؟ ان الرسالة التى أشرنا اليها من قبل موقعة بامضاء الچنرال « ڤو نيجويان چياب » .. الچنرال چياب قائد الجيوش المنتصرة فى دين بيان ڤو .. والذى ينظر اليه الجميع كواحد من الأبطال الوطنيين لشعب الڤيتنام .. چياب المثقف الذى تحول الى جندى وارتبطت كل حياته بالاحساس بالمسئولية تجاه شعبه وتجاه التاريخ .

ولكن من الذى ينفى الاتهام : انه الكولونيل « تران فينه دات » قائد معسكر (فو . لوا) نفسه .. ونفاها أيضا الكولونيل هوآنج توى نام ضابط الاتصال باللجنة الدولية فى رسالة وجهها الى اللجنة.

ورغم كل احترامنا لمثل هؤلاء الضباط الا أن كلمتهم لا يمكن أن تقارن بكلمة چياب .

ولكن لنفرض ان شخصيات أكثر أهمية هى التى نفت الموضوع فان الانسان لا يمكنه أن يقرأ فى صحف شمال الفيتنام عبارات مثل « اننا يجب أن نستأصلهم بلا شفقة ولا رحمة .. ودون أن نعتبرهم حتى مجرد آدميين » والحديث هنا خاص بالشيوعيين .. والصحيفة التى نشرت فيها هذه العبارات هى صحيفة « شاش بانج كويك چيا » فى ٣١ مارس ١٩٥٩ .. وهى الصحيفة الرسمية للحركة الوطنية الثورية التى أسسها ديم . ان الصحف التى تحدثت عقب انتشار أخبار مذبحة « فو . لوا » قائلة « يجب أن يوضع حد لاعتقال الشيوعيين وسجنهم .. فان سجنهم وحراستهم يشكلان عبئا على ميزانيتنا .. يجب أن نقتل الشيوعيين . فور القبض عليهم » . ان الصحف التى تقول مثل هذه الكلمات لا تصدر فى شمال الفيتنام .. ولكنها نشرت فى صحيفة « نجون ليان » الصادرة فى سايجون فى فبراير ١٩٥٩ .

ان الجمهورية الديمقراطية تعتبر نفسها مسئولة عن الدفاع عن شعب الفيتنام كله .. وهى موقنة أنه سوف يأتى يوم يحاسب فيه المسئولون عن هذه المذابح .. ان تجربة كوريا الجنوبية تؤكد ذلك .. فاليوم عند كتابة هذه السطور يقدم للمحاكمة المسئولون عن نظام سنجمان ربما ليحاكموا بتهمة تزييف انتخابات ١٩٦٠ .

وحتى الآن لم تسمح سلطات ديم للجنة الدولية بالتحقيق فى هذه المذابح وحتى الآن لم يكشف النقاب عن دور أمريكا فى هذه

المذبحة .. ولكن الجميع يعلمون أن أحد ضباط معسكر «ڤو . اوا» وهو اللفتينانت « هو ڤان تان » كان قد عاد قبل المذبحة بقليل من أمريكا حيث درب هناك على الوسائل « الحديثة » فى « مقـــاومة الجاسوسية » .. ثم ان « اقرار النظام » فى مقاطعة « ثوداد موت » عقب انتشار نبأ المذبحة قد تم تحت القيـــادة المباشرة للچنرال « صموئيل وليامز » رئيس اللجنة الاستشارية للمعونة الأمريكية .. ليس تحت قيادة أى انسان آخر ..

وفى شمال الڤيتنام يرفع الشعب بخبرته الذاتية شـــعار « الاشتراكية تعنى الوطنية » وبالرغم من كل دعايات الأمريكان فان الجماهير الكادحة فى شمال الڤيتنام تحب هذا الشعار ..

وفى جنوب الڤيتنام أيضا تتطاع الملايين الى بناء الاشتراكية فى الشمال .. والى تدعيم البناء الاقتصادى .. فان ذلك هو الضمان الأكيد لأن ينال شعب الڤيتنام من القوة ما يمكنه من اعادة توحيد البلاد سلميا .. ومن قهر هؤلاء الذين يريدون ابعاده عن تحقيق هذا الهدف ..

ان الڤيتناميين ســـواء فى الشمال أو الجنوب يدركون ان الجمهورية الديمقراطية التى خلقوها بأيديهم وحموها بدمائهم .. يدركون ان هذه الجمهورية تمثل مستقبلا يسوده الســـلام لوطنهم .. تماما مثلما تمثل .. تاريخ بلادهم البطولى .

الفصل
الخامس

لاوس ..
بلد الكاديلاك والمهرجين
وحروب الفلاحين

فى وقت انعقاد مؤتمر جنيف نشرت صحيفة بريطانية صورة لجنديين سمينين يضع كل منهما فى فمــه سيجارا فخما ويقفان أمام خريطة لاوس وكمبوديا ويقول أحدهما للآخر وهو يهرش رأسه « ان هؤلاء الشيوعيين يخرجون لنا من أماكن لم أسمع عنها من قبل » .

ان هذا الجندى قد عبر بطريقته الخاصة عن رد الفعل الذى أصاب الملايين فى كل العالم حينما أصابتهم الدهشة لمجرد سماعهم اسم هاتين المملكتين القائمتين فى وقار على ضفاف نهر « المايكونج » واللتان انبثقتا من بين أنقاض الهند الصينية الفرنسية .

ولكن حكومة الولايات المتحدة لم تكن تشارك هذين الجنديين عدم اهتمامهما بهذه البلاد .. فان بروتوكول اتفاقية منظمة جنوب شرقى آسيا يتضمن هذه الفقرة .. « ان جميع الأطراف الموقعة على معاهدة الدفاع عن جنوب شرقى آسيا تعلن أنه وفقا للمادة الرابعة من هذه المعاهدة يمكن أن تتسع حمايتها فتشمل كل من لاوس وكمبوديا والجزء الحر الذى تحكمه دولة الڤيتنام » (تنص المادة الرابعــة على أنه يمكن مد نطاق هــذه المعاهــدة « لتحمى » دولا غير أعضاء فى المنظمة) .

لقــد بدأ البلدان وجودهما الجديد عقب مؤتمر جنيف فى ظروف متماثلة تماما ..

فكل منهما كان يعتبر احتياطيــا للقوى الاســتعمارية .. ولا يملك سوى اقتصــاد يقوم على الأدغال والأرز والسمك .. ليستند اليه فى نضاله من أجل الاستقلال .

وكل من البلديين ظل مفتقدا فى مجرى التطور الاجتماعى لوجود الطبقات التى تلعب دورا حاسما فى المجتمع الحديث .. وهى الطبقة العاملة والبرجوازية الوطنية .. وظل كل منهما يثقل كاهله عبء الحكام الاقطاعيين الذين كانوا فى أغلب الأحوال فى خدمة المحتل الأجنبى .. وعانى كل منهما أيضا من سياط الفئات الاستعمارية ومن سياط طبقة قليلة العدد من الكومبرادور ولكنها عظيمة النفوذ .

وغداة مؤتمر جنيف .. كان كل من البلدين مقسم من الناحية السياسية بصورة خطيرة ..

وكل منهما وقع معاهدة عسكرية مع الولايات المتحدة ١٩٥٥ . وكل منهما كانت أمريكا تنفق على جيشه عقب اتفاقيات جنيف .. وان كانت قد حصلت منذ البداية على حقها فى تدريب والاشراف على جيش كمبوديا .. ولم تحصل على ذلك الحق فى لاوس .. ورغم أن كل من البلدين قد سار فى طريق مختلف فى مواجهة هذه المشاكل الا أن النضال الوطنى فى كل منهما قد تميز منذ اتفاقيات جنيف بالرغبة فى التخلص من ذلك النير الذى فرضه عليهم حلف جنوب شرقى آسيا بالفقرة التى أشرنا اليها آنفا .. ان كل منهما تحاول أن تترجم الاستقلال والحياة الذى كفلته لهما اتفاقيات جنيف الى حقيقة عملية ..

ان دراسة سريعة لتاريخ كل من هذين البلدين خلال السنوات الست الماضية يمكنها أن توضح لماذا سارت كل منهما فى طريق مختلف بينما بدأنا بداية متشابهة .

لاوس .. ! لا يوجد بلد بهذا الاسم .. أنا متأكد من ذلك فلقد عشت هناك طويلا ..

هكذا كان يتحدث الفرنسيون فى تلك الأيام المزدهرة وهم يصفون وضع تلك المقاطعات البوذية واحدة تلو الأخرى تحت الحماية الفرنسية فى ١٨٩٣ .

ولكن لاوس موجودة .. وهى لم تهدأ مطلقا ولم يستقر فيها السلام طوال الحكم الفرنسى الذى دام ستين عاما .. ففى الثلاثينات استخدمت قاذفات القنابل لاخماد الثورة وفى الأربعينات وبداية الخمسينات استخدمت جيوش كاملة لهذا الغرض .

ولقد كانت اتفاقيات جنيف لسنة ٥٤ بأعترافها بسيادة واستقلال ووحدة أراضى لاوس .. كانت فى حقيقة الأمر انتصارا لنضال لاوس من أجل الاستقلال الوطنى .

ومن خلال ضباب الاتحاد الفيدرالى للهند الصينية .. وضباب القهر الفرنسى .. انبثقت شمس استقلال لاوس .

ولكن اتفاقيات جنيف .. تلك الاتفاقيات التى كانت نتاجا لجهود مضنية بذلها ممثلوا كلا المعسكرين العالميين .. فى أصعب مفاوضات جرت فى منتصف القرن العشرين .. قد عانت الكثير من أجل تحقيق استقلال لاوس الوليد ..

فان الوضع الجغرافى للاوس .. وملاحقتها لكل من الصين وشمال الفيتنام يجعل منها موقفا ممتازا لهؤلاء الذين يريدون لأنفسهم مواقع قوية يستخدمونها فى حرب مقبلة الأمر الذى يعطى أهمية خاصة لنص اتفاقيات جنيف على منع هذا البلد من الانضمام الى أية أحلاف عسكرية .. ومنعها من اقامة أية قواعد عسكرية على أراضيها ونصها على ضرورة اتباع لاوس سياسة حيادية جادة فى المسائل الدولية .

وتعرض مؤتمر جنيف أيضا للمشكلة الثانية الهامة التى تعترض لاوس : الوحدة الداخلية .. فلقد شهد مجرى الحرب فى الهند الصينية ظهور معسكرين فى داخل لاوس نفسها .. فمن ناحية كانت هناك الحكومة الموالية للفرنسيين .. وهى الحكومة الملكية فى « ڤنتيان » .. ومن ناحية أخرى كانت هناك القوى الوطنية الجديدة « باتيت لاو » التى ولدت خلال حركة المقاومة الشعبية ضد اليابان ثم ضد الفرنسيين ..

وخلال انعقاد مؤتمر جنيف كانت قوات المقاومة التابعة « لباتيت لاو » تسيطر على أراضى مساحتها نصف مساحة لاوس ويسكنها ثلث سكان البلاد .. لقد كانت تسيطر سيطرة تامة على المقاطعتين الشماليتين « ڤونج سالى » ، « سام نيوا » وعلى المقاطعة الجنوبية « آتومبى » الملاصقة لحدود الڤيتنام الجنوبية .. وفوق ذلك فقد كانت هناك قواعد صغيرة متناثرة فى المناطق الجبلية فى المقاطعات الأخرى .. أما القوات الفرنسية وقوات الحكومة الملكية فقد اضطرت الى الانزواء فى المدن والسهول ..

وقد كان توحيد هذه القوى الوطنية المتنازعة أمر ضرورى لتحقيق استقلال لاوس وحيادها .. تحقيقا فعليا ..

ونصت اتفاقيات جنيف على أن تتجمع كل قوات « باتيت لاو » المتناثرة فى المقاطعات العشر الغير خاضعة لسلطتها .. أن تتجمع خلال ١٢٠ يوما فى المقاطعتين الشماليتين « ڤونج سالى » ، « سام نيوا » .. التى نص على أن تبقى تحت ادارة « باتيت لاو » حتى تجرى انتخابات عامة لانتخاب جمعية وطنية موحدة .. على أن تجرى هذه الانتخابات فى ١٩٥٥ . ثم تشكل عقب الانتخابات حكومة للوحدة الوطنية تضم ممثلين « لباتيت لاو » .

وهكذا فان مؤتمر چنيف لكى يضمن أن تسير لاوس فى سياستها الخارجية بطريقة ملائمة فقد اهتم اهتماما خاصا بالأزمة الداخلية الحادة فيها .. ورأى أن تأسيس حكومة وطنية واحدة تمثل كافة القوى هناك أمر ضرورى لذلك ..

ولكن أية أعمال ضخمة وصعبة تنتظر حكومة الوحدة الوطنية هذه ؟ .

فمن الناحية الاقتصادية كانت لاوس أكثر بلدان جنوب شرقى آسيا تخلفا .. فبعد ستين عاما من سيطرة « حاملى لواء المدينة » لم يكن بلاوس كلها الا طبيبين وثلاثة مهندسين . ولم يكن بها أية صناعة . وحتى السياسة الاقتصادية الاستعمارية الكلاسيكية التى كانت تعمد الى تنمية استغلال المناجم والمواد الخام فى المستعمرات .. حتى هذه السياسة لم تتبع فى لاوس نظرا لصعوبة نقل هذه المواد الى الخارج .. وكان هناك فائض قليل من الأرز للتصدير .. ولكن وسائل الزراعة المتخلفة جعلت هذا القدر ضئيلا باستمرار . أما المواصلات فانها غير موجودة بالمعنى المفهوم فى هذا البلد الذى تبلغ مساحته قدر مساحة بريطانيا ، .. ليس هناك ولا سنتيمتر واحد من السكك الحديدية . وسكان البلاد يبلغ تعدادهم حوالى ٢ أو ٣ مليون نسمة ـ معظمهم من قومية الـ « لاولم » ويبلغ تعدادها أكثر من مجموع تعداد القوميات الثلاثين الأخرى التى تعيش متناثرة فى الجبال والسهول ودون أن تحس فى كثير أو قليل انها تعيش الآن فى بلد متحضر ومستقل ..

ولم تر لاوس أى بصيص من المدنية الا فى المناطق التى احتلتها « باتيت لاو » .. أما فى بقية البلاد فان الفقر والخرافة والجهل والأمراض كانت تسود ذلك المجتمع الاقطاعى المستعمر ..

هذه هى المشاكل التى كان يتعين على حكومة الوحدة الوطنية التى دعت اتفاقيات چنيف الى تأسيسها أن تعمل على حلها ..

ولكن قوى مخيفة قررت أن تتدخل فى لاوس .. لتحول بين شعب لاوس وبين أن يحقق أمنيته فى قيام حكومة الوحدة الوطنية .. هى قوى أقوى امبريالية على ظهر الأرض ..

وليست هناك أرقام موثوق بها عن تلك الكميات الهائلة من الأموال التى أنفقتها الحكومة الأمريكية منذ ١٩٥٥ لتعيق محاولات شعب لاوس لانشاء حكومة تتمشى مع مصالحه .. ولكن صحيفة « أيج » Age الاسترالية تقول نقلا عن مراسلها فى جنوب شرقى آسيا .. تقول ان هذه المبالغ بلغت حتى أوائل ١٩٦٠ (٢٢٥ مليون دولار) .. ولكن هذا الرقم أقل بكثير من الحقيقة .

وأيا كان هذا المبلغ فان الأمريكيين يمكنهم أن يقولوا انهم قد حصلوا على ثمن ما أنفقوه من أموال فى لاوس .

لقد رفض الأمير سوفانا فونج حينما كان وزيرا للتخطيط فى الحكومة الائتلافية ١٩٥٨ رفض رفضا قاطعا عرضا قدمه له أحد رجال الأعمال الأمريكيين يتضمن حصول الأمير على « حصة » من أرباح مؤسسة يقيمها هذا الرجل فى لاوس .. وهذا الرفض أمر متوقع من رجل وطنى مناضل مثل سوفانا ڤونج ولكن بقية الأمراء .. أبناء طبقة « سوفانا ڤونج » قد أثبتوا دائما أن لعابهم يسيل على مثل هذا العرض .. وقد كان من نتيجة المساعدات الأمريكية زيادة تعمق تلك الهوة التى كانت موجودة من قبل .. بين المدينة والقرية .. وقد اعتبر هذا نجاحا باهرا للخطط الأمريكية فى لاوس ..

فان هوة سحيقة تفصل بين ڤنتيان .. بسيارأتها الكاديلاك وآلات التسجيل الحديثة .. ونواديها الليلية .. وبين الـ ١٠٫٠٠٠ قرية .. هوة لا يمكن لسكان البلاد المتقدمة اقتصاديا أن يتصوروها الا بصعوبة .

ان الانفصــال القائم فى كل المستعمرات بين الأقلية المتعلمة والغالبية الجاهلة .. ان هذا الانفصال موجود بشكل أكثر عمقا فى لاوس منه فى أى مكان .. نظرا لصعوبة المواصلات وللمشاكل القومية المعقدة هناك .

وقد ساعدت كل هذه المشاكل جنبا الى جنب مع افتقار البلاد الى سلطة وطنية مركزية .. ساعدت بلا شك على انجاح الجهود التى بذلهــا الأمريكيون وأتباعهم اللاوسيين فى تحطيم الوحــدة الوطنية عقب مؤتمر چنيف ..

ان كل تاريخ لاوس فى الست سنوات الماضــية يتلخص فى الصراع الناشب بين القوى الراغبــة فى تطبيق قرارات چنيف وبين القوى التى تعارض هذه القرارات .

ان ضمان استقلال وحيــاد لاوس .. وتوحيد كافة القوى السياسية على اختلاف اتجاهاتها .. هما الشــعاران اللذان يتجمع حولهما الآن كل القوى السياسية والاجتماعية فى البلاد .

ان تحقيق هــذان الشعاران يفتح المجال أمام حل المشاكل الاقتصادية والاجتماعية للبلاد .

ومزقت رصاصات ارهابى سكون ليل شوارع « ڤنتيان » فى ١٨ سبتمبر ١٩٥٤ . وســقط « كوڤوراڤونج » .. رئيس الحزب الديمقراطى ووزير الدفاع فى حكومة لاوس ..

وهكذا وبعد شهرين فقط من توقيع اتفاقيات چنيف .. وبعد عشرة أيام فقط من توقيع معاهدة حلف جنوب شرقى آسيا .. بدأت عملية القضاء على اتفاقيات چنيف بدايتها العنيفة .

فلقد كان « كوڤورا فونج » نائب رئيس وفد لاوس فى مؤتمر چنيف . وكان قد وافق بحرارة على هـذه الاتفاقيات .. وبدأ يعد للعمل على تنفيذها ..

وكان « كوڤوراڤونج » هو الذى دبر فى ٩ سبتمبر أول اتصال بين الأميرين الأخـوين .. رئيس الوزراء سوفانا فوما . وقائد « باتيت لاو » « سوڤانا فونج » .. حيث توصل الى اتفاق مبدئى حول بدء المباحثات السياسية بين الجانبين .. وكان «كوڤورا فونج» هو الوزير الوحيد الذى فضح الخطة الأمريكية التى عرضت سرا على الدوائر السياسية فى عاصمة لاوس والتى تقول ان أفضل شيء الآن هو أن نشن هجوما مسلحا على قوات « باتيت لاو » خلال قيامهـا بعمليـات اعادة التجمع .. وقبـل أن تستقر فى مناطقها .. وكان « كوڤورا فونج » هو الذى وجه فى الجلسات الصاخبة لمجلس الوزراء وللجمعية الوطنية اتهامات خطيرة لرئيس وفـد لاوس فى مؤتمـر چنيف ـ وزير الخارجيـة « ڤووى سانانيكون » .. الذى رفض توقيع اتفاقيات چنيف (١) .

---

(١) قال « ڤوراڤونج » ان سانانيكون قد قبل مبلغ مليون دولار أمريكى من أحد عملاء أمريكا فى سويسرا .. مقابل رفضه لاتفاقات چنيف . وحتى هـذه اللحظة ما زال الحزب الديمقراطى مترددا فى موقفه من « سانانيكون » ومن مواقفه الاجرامية بما فيها تدبير اغتيال « ڤوراڤونج » .

أما رد فعل حادث اغتيال « ڤوراڤونج » عند بوليس لاوس فقد كان غريبا جدا .. فبدلا من توجيه الشكوك ضد السياسيين المناوئين « لڤوراڤونج » =

وبعد أسابيع قليلة من عودة « ڤورافونج » من أوربا .. كان مشغولا جدا بالعمل على تزعم حركة تدعو لتطبيق اتفاقيات چنيف تطبيقا فعليا .. ولهذا كان « ڤوراڤونج » شخصا خطيرا بالنسبة لأعداء هذه الاتفاقيات . والنتيجة التى يمكن أن نخرج بها من اغتيال « ڤوراڤونج » هى أن حلف جنوب شرقى آسيا وعملاء هذا الحلف لم يكونوا ثرثارين فى أيامهم الأولى .. مثلما يفعلون اليوم .. فقد اتبعوا فى ذلك الوقت وسيلة بشعة لابعاد « ڤوراڤونج » عن مسرح الأحداث .

ان فضيحة التهم الموجهة ضد « سانانيكون » -- والذى استمر على الرغم منها متشبثا بمنصبه الوزارى ـ وما يتبع هذه التهم من اغتيال « لڤوراڤونج » كانت أكثر من أن تحتملها حكومة الأمير « سوڤاناڤوما » التى هزت كيانها الخلافات الداخلية والتى شنت العناصر المعادية لاتفاقيات چنيف حملات ضارية ضدها .. فقدمت استقالتها .

وفى نوفمبر ١٩٥٤ تعرضت الحياة السياسية فى لاوس لأول الخطوات المعادية لاتفاقيات چنيف بتشكيل حكومة « كاتاى دون ساسورث » .. الكاتب الناشىء الذى ألف كتاب « لاوس .. حجر الزاوية المثالى للنضال ضد الشيوعية فى جنوب شرقى آسيا » وهو أيضا الرجل رقم ١ فى نظر مكتب الولايات المتحدة فى لاوس .

= ألقوا القبض على « تاوڤونج سوفانا فونج » وهو أحد مؤيدى اتفاقيات چنيف ! ولكنه أفرج عنه فيما بعد لعدم توافر الأدلة ..

ولكن هذا الاغتيال مكن العناصر المعادية لاتفاقيات چنيف فى حكومة لاوس من أن تحقق أهدافها ..

أما القاتل الحقيقى .. وهو مجرم من « تايلاند » استورد خصيصا للقيام بهذه المهمة .. فقد فتحت أمامه أبواب الهرب عبر نهر « المايكونج » .

ان كاتاى .. الذى كان موظفا صغيرا لدى السلطات الاستعمارية والذى أصبح شديد الثراء وواسع النفوذ بوسائل غير مشروعة .. ينظر لنفسه على أنه « نيجو دين ديم » .. لاوس . وكرئيس للوزراء بدأ فورا فى العمل لتحقيق مطامعه .. لقد كان يعلم أنه من الصعب ـ من الناحية السياسية .. رفض الدخول فى مفاوضات مع « باتيت لاو » ولكنه كانت له طريقته الخاصة حول سير هذه المفاوضات . فعند وصول ممثلى « باتيب لاو » فى ٣٠ ديسمبر الى المكان المحدد لبدء المفاوضات .. عوملوا معاملة المسجونين .. ولم تكن لدى حكومة كاتاى سوى عبارة « التسليم » وهكذا انهارت المفاوضات ..

ان طريقة كاتاى فى معاملة « باتيت لاو » .. قد ووفق عليها وصقلت خلال اجتماعات حلف جنوب شرقى آسيا فى فبراير ١٩٥٥ . التى حضرها كاتاى بنفسه .

ولكن جون فوستر دالاس كاهن الامبريالية الأمريكية الذى لا يكل ، كان هو الذى وصل بهذا الأسلوب الى أقصى مداه .. عندما هبط الى ڤنتيان فى أواخر هذا الشهر فى طريق عودته الى بلاده من تايلاند . لقد وصل دلاس ومعه عصا ذات رأس ذهبية كهدية للملك « سيساڤانج ڤونج » .. ولكنه كان يحمل ما هو أكثر من ذلك .. كان يحمل ـ كالعادة ـ خطة جديدة .

وقد أرسل « روبرت آلدن » مراسل النيويورك تايمز فى ٢٧ فبراير سنة ١٩٥٥ برقية تقول ان وزير الخارجية الأمريكى قد أكد لولى عهد لاوس الأمير « ساڤانج » ان أمريكا سوف تحمى بلاده وفقا لاتفاقية مانيلا .. وقال دلاس ان على لاوس التى تشترك فى حدودها مع الصين الشيوعية وڤيتنام الشمالية عليها أن تشن حربا لا هوادة فيها لتصون مبادىء الحرية .

وقد أكد له الأمير « سافانج » أن حكومته ستنفذ كل ما هو مطلوب منها .

وتبدو نصيحة دلاس بكل وحشيتها وقسوتها اذا علمنا أن المقاطعتين اللتين تجمعت فيهما قوات « باتيت لاو » .. هما المقاطعتان الشماليتان .. الملاصقتان للصين وجمهورية الفيتنام الديمقراطية ..

وهما الهدفان الأساسيان لعدوان حلف جنوب شرقى آسيا . وكانت كلمات « محاربة التخريب الذى يجرى فى البلاد » تعنى عند دلاس شن الجيش الملكى للاوس حربا فورية على هاتين المقاطعتين . فاذا لم يكن من الممكن تحطيم جيش « باتيت لاو » فان بعض الانتصارات التى يمكن أن تحرزها القوات الملكية يمكنها على الأقل أن تقوى المركز السياسى للحكومة الملكية .. فى المفاوضات التى يعترف حتى دلاس بأنها يجب أن تتم بين الطرفين .. وفى جميع الأحوال فان قيام الحرب سوف يعنى تجاهل اتفاقيات جنيف وتجنب اشراك ممثلى باتيت لاو فى الحكم ..

وكما حدث من قبل عند زيارة دلاس لكوريا فى يونيه ١٩٥٠ كانت زيارة دلاس للاوس نذيرا لانطلاق نيران المدافع .

ففى الأيام الأولى من أبريل ١٩٥٥ شنت قوات الجيش الملكى هجومها العام على مقاطعة سام ــ ينوا .

وهكذا قدم نموذج جديد فى تاريخ لاوس .. واستمرت المفاوضات مع « باتيت لاو » فى أماكن متعددة فى لاوس وفى رانجون فى أحد المرات واتفق على وقف اطلاق النار أكثر من مرة .. بل ان اتفاقية لايقاف النار قد وقعت فعلا فى رانجون فى ١١ أكتوبر ١٩٥٥ .. ولكن اطلاق النار لم يتوقف ولا مرة واحدة ..

ولقد كانت هذه الحرب هى أول أشكال المقاومة المسلحة لاتفاقيات جنيف .. وقد خرج منها محور دلاس ـ كاتاى بخسائر فادحة .. فان الانتصارات العسكرية التى كانوا يأملون فيها لتعزز مركزهم السياسى لم تتحقق مطلقا .. ففى ميادين القتال .. وعلى مائدة المفاوضات كانت « باتيت لاو » قوة لا تقهر .. ان عدوان دلاس ـ كاتاى رغم أنه تكلف مئات من أرواح أبناء لاوس وعدة ملايين من الدولارات الأمريكية .. لم يضعف من قوة « باتيت لاو » .. بل على العكس لقد زاد من قوتها .. وزاد من سيطرتها على مقاطعتى « ڤونج سالاى » « أسام نيوا » .

وبدأ كاتاى يحس بحقيقة اتجاه الريح .. عندما هزم مرشحوه هزيمة ساحقة فى الانتخابات التى أجراها هو فى ديسمبر .. وعلى الرغم من اتفاقيات جنيف فان ممثلى « باتيت لاو » قد استبعدوا هذه الانتخابات .. وكل واحد من أبناء لاوس يعلم جيدا انهم لو اشتركوا فى الانتخابات لفازوا فوزا ساحقا .

وبعد شهور من حكم غير مستقر هزمت الجمعية الوطنية صاحب فكرة ايجاد حل عن طريق القوة .. فسحبت الثقة من كاتاى فى ٢٢ فبراير ١٩٥٦ .

وفى ٢٤ فبراير دعا ولى العهد الأمير « سوفانا فوما » مرة أخرى ليؤلف وزارة جديدة (١) .

---

(١) على الرغم من الفشل السياسى الذريع الذى منى به كاتاى .. فقد ظل يوقع على اتفاقيات « المعونة » الأمريكية .. تلك الاتفاقيات التى مكنت أمريكا من أن تصبح تقريبا المسيطر الوحيد على اقتصاد ومالية لاوس .. لقد قدم خدمات كبيرة وناجحة للمصالح الأمريكية متبعا جميع الوسائل لتحقيق هذا الهدف وهو ربط اقتصاد لاوس ربطا وثيقا باقتصاديات تايلاند . وهو فى كل ذلك لم ينس مطلقا مصالحه الشخصية فقد كان كاتاى مديرا لعديد من الشركات اللاوسية التايلاندية المشتركة .. وقد مات فى ٢٩ ديسبر ١٩٥٩ .

ومنذ هذه اللحظة .. اتخذت دولة لاوس وشعب لاوس وضعا جديدا . وبدأت مفاوضات جادة لحل المشاكل السياسية فى المملكة .

وانتهت المفاوضات التى جرت فى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ـ رغم ما اعترضها من عقبات مصدرها الأساسى التدخل الساخر والوقح من جانب الأمريكيين ـ انتهت بتوقيع الاتفاقية المعروفة الآن باتفاقية « ڤنتيان » فى ٢٢ أكتوبر ١٩٥٧ .

وقد كانت هذه الاتفاقيات انتصارا كبيرا للقضية الوطنية .. كما انها أبرزت الى حد كبير دور اللجنة الدولية التى ساهمت مساهمة كبيرة فى انجاز هذه الاتفاقية .

وقد نصت اتفاقيات « ڤنتيان » على أن يشترك ممثلون لباتيت لاو فى حكومة لاوس .. تلك الحكومة التى يجب أن تضع نصب عينيها مهمة « بناء وحدة وطنية عريضة وتضامن وطنى متين » (م ١ الفقرة ١) .

« ان على حكومة الوحدة الوطنية واجب تحقيق وتجسيد التعاون بين الحزبين من أجل بناء وحدة وطنية .. واتخاذ موقف الحياد الفعلى وضمان ممارسة الشعب للحريات الديمقراطية واجراء انتخابات تكميلية » (م ٢ فقرة ١) .

أما بخصوص المقاطعتين الواقعتين تحت نفوذ « باتيت لاو » فانه يتعين وضعهما تحت سلطة الحكومة الملكية وأن يعاد تنظيم أجهزتهما الادارية وفقا للنظام الادارى للحكومة الملكية (م ٣ فقرة ٢) .. ويعين المسئولون الاداريون عن هاتين المقاطعتين من قبل الملك و « باتيت لاو » .. كل منهما يعين ٥٠٪ من الاداريين (م ٤ فقرة ٢).

« وعلى القوات المسلحة التابعة لباتيت لاو أن تنضم للجيش الملكى وفقا للترتيبات التى تتفق عليها اللجنة العسكرية المشتركة (م ٥ فقرة ٢) » .

وفى الوقت الذى كانت توقع فيـه الاتفاقية كانت الجمعية الوطنية تصدر عددا من التشريعات تضمن بها الحقوق المدنية لكل سكان لاوس .. حرية الصحافة .. حرية العقيدة .. اعطاء المرأة حق الانتخابات ..

وفى الاجتماع النهائى الذى وقعت فيه الاتفاقية فى ٢ نوفمبر أعلن الأميران الأخوان « سوفانا فوما » .. و « سوفانا فونج » أعلنا أنه تقرر تأسيس حزب « نيولاو هاكست » ليمثل « قوات باتيت لاو سابقا » وان هذا الحزب « سوف يسمح له بممارسة نشاطه كحزب سياسى يتمتع بنفس الحقوق ويتحمل نفس الواجبات للأحزاب السياسية القانونية الموجودة بالمملكة » .

وكتطبيق لاتفاقية ڤنتيان أعلن عن تأسيس حكومة الوحدة الوطنية فى ١٦ نوفمبر ١٩٥٧ وكان نصيب « باتيت لاو » مقعدين ـ وزارة التخطيط والأعمار وتولاها الأمير سوفانا فونج .. ووزارة الأديان والفنون الجميلة وتولاها « فومى تونجيڤشت » أحد قادة « باتيت لاو » .

وفى ٢٦ نوفمبر أعلن رسميا الى الوجود حزب « نيولاو هاكست » .

وفى ٤ مايو ١٩٥٨ أجريت الانتخابات التكميلية التى نصت عليها اتفاقية ڤنتيان .. وجرت الانتخابات حول ٢١ مقعدا .. قدم « نيولاو هاكست » مرشحين لـ ١٣ دائرة منها .. وكانت نتيجة الانتخابات نصرا ساحقا لأنصار اتفاقيات چنيف فقد حصل حزب « نيولاو هاكست » على ٩ مقاعد من الـ ١٣ التى قدم

مرشحين لها .. وفاز جميع مرشحى حزب السلام والحياد المتحالف مع نيولاو هاكست - وعددهم ٤ . أما حزب كاناى الذى رشح ٢٦ مرشحا (لشغل ٢١ مقعدا فقط !!) فلم يكسب سوى أربعة مقاعد فقط .. أما حزب الاستقلال (حزب سانانيكون) فقد هزم تماما ولم ينجح أحد من مرشحيه وبهذا أصبح فى الجمعية الوطنية بشكلها الجديد - والتى بلغ عدد أعضائها ٥٩ عضوا ٢٣ عضوا من مؤيدى اتفاقيات چنيف (١) .

وكان واضحا أن أصدقاء اتفاقيات چنيف سوف يكسبون الأغلبية الساحقة فى الانتخابات العامة لكل الـ ٥٩ مقعدا .. التى اتفق على اجراءها فى ١٩٥٩ .. وانهم سوف يضمنون تشكيل حكومة قادرة على تنفيذ اتفاقيات چنيف تنفيذا كاملا ..

وكل ما كان مطلوبا لتحقيق هذا الهدف .. هو أن تظل القوى الديمقراطية فى البلاد محتفظة بفاعليتها ..

ولم يكن احراز مثل هذه الانتصارات التى أشرنا اليها فيما سبق أمرا سهلا .. فان أى تقدم للمفاوضات كان يستقبل باستياء كبير من جانب ممثلى الولايات المتحدة فى لاوس ومن جانب خدامها اللاوسيين .

وعندما قام « سوڤانا ڤوما » رئيس الوزراء بزيارة ودية لكل من الصين الشعبية وجمهورية ڤيتنام الديمقراطية فى أغسطس ١٩٥٦ .. مشيرا بذلك الى نوع السياسة المحايدة التى سوف تتبعها البلاد سارع السفير الأمريكى .. ج جراهم بارسونز ليعلن على الملأ أنه من الصعب أن تستمر المساعدات الأمريكية للاوس اذا ما استمرت الأحداث فى سيرها فى الاتجاه الحالى .

---

(١) نيولاو هاكست ٩ ، حزب السلام والحياد ٧ ، الحزب الديمقراطى ٣ ، ٤ من المستقلين كانوا يصوتون باستمرار مع هذه المجموعة .

وفى مارس ١٩٥٧ وفور عودة كاتاى من أمريكا حيث قام بدراسات عن « الشيوعية » هناك .. قدم للجمعية الوطنية وثيقة معادية للشيوعية تتضمن ايقاف المفاوضات مع « باتيت لاو » ورفض اقتراحه رفضا حاسما وعندما وصلت المفاوضات الى مرحلتها الحاسمة فى ١٩٥٧ توقفت المساعدات الأمريكية تماما طوال ثلاثة أشهر .

وفى يناير ١٩٥٨ استدعى الأمير سوفانا فوما شخصا الى واشنطون ليقدم تقريرا عن الموقف .

وقد قدر عدد الذين قتلوا خلال حملات انتخابات ٤ مايو بما لا يقل عن سبعين شخصا .. فقد استخدمت قوات الجيش الملكى لارهاب سكان القرى الجبلية المنعزلة وتهديدهم بأوخم العواقب اذا صوتوا لصالح باتيت لاو .. بل حتى اذا سمحوا لأنفسهم أن يقرأوا قانون الانتخابات فى بعض الأحيان .

وقد دعا كاتاى ـ وكان فى ذلك الوقت وزيرا للداخلية ـ الى اجتماعات خاصة لحكام المقاطعات ليضغط عليهم ويوضح لهم أن « واجبهم » هو منع انتخاب مرشحى « نيولاو هاكست » .. واستخدمت الطائرات والسيارات الأمريكية بأعداد كبيرة لتوزع فى قرى لاوس المنعزلة النشرات الأنيقة التى أصدرها مكتب الاستعلامات الأمريكى .. وقد شاهدت بنفس احدى هذه النشرات وكان عنوانها « الطريق عبر الستار الحديدى » وتتضمن دعايات مرعبة صيغت على الطريقة الأمريكية .. عن المجر ..

ولكن نتيجة الانتخابات كانت هزيمة ساحقة لكل هذه الدعايات .. فان الشعب قد ساند حزب نيولاو هاكست .. وحاز رئيسه الأمير سوفانا فونج فى دائرته الانتخابية فى فنتيان أكبر مجموعة من الأصوات حازها مرشح فى كل لاوس .. ان شعب

لاوس كان حريصا دائما على أن ينتهز أية فرصة للتعبير عن رأيه بحرية .. ليعلن عن تأييده لهذا الحزب .

وكان رد السفير الأمريكى الجديد « هوراس سميث » (الذى خلف جراهام بارسونز فى يناير ١٩٥٨) كان رده بسيطا .. « اذا فشل مرشحونا .. واذا كانت الانتخابات لا تضمن « السلامة » للولايات المتحدة .. فان على شعب لاوس أن يتعلم كيف يعيش بلا انتخابات » .. ان سميث وهو رجل ذا خبرة طويلة فى العمل فى قلاع « العالم الحر » مثل كوريا الجنوبية والملايو والفلبين كان خبيرا فى تصدير « الديمقراطية » .

وبدأ الأمريكيون يعملون بسرعة .. وعلمهم فشلهم فى الانتخابات وتحليلهم لأسباب هذا الفشل أن الانقسام فى صفوف القوى الرجعية قد أتاح فرصة النصر « لنيولاو هاكست » .. ثم ان الصيحات التى تعالت حول الفساد والاختلاسات التى شابت استخدام المساعدات الأمريكية المقدمة للاوس قد ساعدت هى الأخرى على تحقيق هذه النتيجة .

وكان يتحتم أولا توحيد هذه الأحزاب الرجعية .. وتحت لسعات السياط الأمريكية اضطر حزب كاتاى ، ڤووى سانانيكون الى أن يعلنا فى ١٣ يونيو ١٩٥٨ اتحادهما فى « اتحاد شعب لاوس » .

وثانيا : بما أن الساسة القدامى من أمثال « كاتاى » و « سانانيكون » كثيرى الخلاف فيما بينهم وحيث انهم « فشلوا فشلا ذريعا فى انتخابات ٤ مايو ، وحيث أن أسمائهم قد ارتبطت دائما بالحديث عن الفساد فى استعمال المعونة الأمريكية .. فانه يتحتم قيام قوى سياسية جديدة لتحل محلهم .. قوى يمكن للأمريكيين أن يعتمدوا عليها » .

ولم يكن بامكان الأمريكيين العثور على بغيتهم سوى بين بعض العناصر فى الجهاز الادارى وخاصة فى الجيش .. الجيش الذى تنفق عليه دولة أجنبية .. والذى يعلم أفراده جيدا أن دولة أجنبية تنفق عليه (١) ..

وهكذا وفى ١٥ يونيو أى بعد يومين فقط من تكوين « اتحاد شعب لاوس » أعلن عدد من ضباط الجيش الشبان وعدد من موظفى الحكومة .. أعلنوا الى العالم تأسيس « لجنة الدفاع عن المصالح الوطنية » .

وهكذا أوجدت الولايات المتحدة لعبة ثانية تحركها للدفاع عن المصالح الأمريكية فى لاوس لعبة ثانية .. سمع عنها الناس من الآن فصاعدا ..

لقد وصف الصحفى الأمريكى .. « أرنست . ك . ليندلى » الذى أبدى عطفا شديدا على « لجنة الدفاع عن المصالح الوطنية » وصف هذه اللجنة بأنها « تهدف الى تنظيف الحكومة .. وانقاذ لاوس من الشيوعية » (٢) .

ولكن ما هو مدى التحالف بين القادة السياسيين القدامى وبين هؤلاء الشبان الجدد « ذوى الطباع التركية » الذين قاموا من صفوف الجيش والجهاز الحكومى ! لم يحتل ذلك أية مشكلة بالنسبة للمستر سميث ورجاله .. فقد رتبوا فى أذهانهم جيدا أمور جبهتهم الجديدة المعادية للشيوعية .

يجب أن تبعد اللجنة الدولية من على مسرح الأحداث .. والانتخابات المفروض اجراؤها فى ١٩٥٩ ويجب أن تؤجل بأى حال

---

(١) فورمان ديفان « الاستيتسمان ــ كلكتا » ١ مايو ١٩٥٩ .
(٢) نيوزويك ١ يونيو ١٩٥٩ .

من الأحوال . ويجب أن يوضع حد لوجود وزراء يمثلون « نيولاو هاكست » فى الحكومة ويجب أن يمنع نشاط هـــذا الحزب . وللتخلص من هذا الحديث المتزايد عن فضائح التلاعب بالعملة ولزيادة تدعيم قبضة الولايات المتحدة الاقتصادية على البلاد فقد تقرر تخفيض قيمة العملة اللاوسية « الكيب » .

ولارهاب أية محاولة من جانب صنائع أمريكا للاعتراض على هذا البرنامج الأمريكى الذى خشوا من خطورته ومن ترتب متاعب سياسية جمة على تنفيذه .. فقد أوضحت أمريكا لهم أن فشلهم فى تنفيذ هذا البرنامج انما يعنى حرمان لاوس من أية مســـاعدة أمريكية (١) .

وعلى الفور بدىء فى تنفيذ خطط المستر سميث ولم يكن باستطاعة الساسة اللاوسيين الذين تعودوا على الطعم اللذيذ لأوراق البنكنوت الخضراء .. لم يكن باستطاعتهم أن يتخلصوا من هذه العادة .

أما اللجنة الدولية فقد قررت الضغط الشديد للمندوب الكندى تأجيل جلساتها الى أجل غير مسمى ..

وفى ٢٢ يوليو وبعد مؤامرات قذرة أجبرت الجمعية الوطنية ــ التى يقال ان بعض أعضائها قد قبضوا مبلغا يقارب الـ ١٠٠٫٠٠٠ دولار ــ أجبرت حكومة « فوما على الاستقالة » ..

---

(١) كانت المســـاعدات قد قطعت فعلا لمـــدة ثلاثة أشهر وقد أعلن والتر س . روبرتسون نائب وزير الخارجية لشئون الشرق الأقصى «أعلن فى الكونجرس» أن الوضع السياسى فى لاوس تعمـــه فرص شاملة حتى أن جميع المساعدات الأمريكية يساء استعمالها .. ولهذا فان جميع المساعدات قد توقفت من يوليو الى أكتوبر ١٩٥٨ » « جريدة المانيشى (The Manicni) » ٢١ مايو ١٩٥٩ .

وفى هذا الوقت كانت لجنة الدفاع عن المصالح الوطنية تلعب دورا أساسيا فى الحياة السياسية فى لاوس .. وقد حطم قادتها حكومة فوما بتقديمهم طلبات غير معقولة كثمن لمساندتهم لها .. ولكن هذا الثمن ما لبث أن خفض كثيرا حينما بدأ « سانانيكون » فى تأليف الوزارة ..

وفى أغسطس شكلت حكومة ســـانانيكون وعين كاتاى وزيرا للداخلية ولأول مرة كان نصيب « لجنة الدفاع عن المصالح الوطنية » أربعة وزارات .. وزارة الخارجية والعدل والدعاية والمالية وطرد وزراء « نيولاو هاكست » أما موقف حكومة « سانانيكون » من مسألة الوحدة الوطنية للاوس فقد عبر عنه هو نفســـه عند توليه للسلطة بقوله « ان حصانا واحدا لا يمكن أن يسوقه راكبان أحدهما يوجهه ناحية اليمين والآخر نحو اليسار » (١) .

وليس هناك أو فى شك حول الاتجاه الذى يريد سانانيكون أن يوجه اليه الحصان ..

وفى ١٠ اكتوبر تحقق الهدف الذى طالما نشده الأمريكيون فخفض سعر « الكيب » العملة اللاوسية .. فبعد ان كان الدولار الأمريكى ٣٥ كيبا أصبح سعره ٨٠ كيبا .. (ومع ذلك فقد استمر سعره فى السوق السوداء ١٠٠ كيب وأكثر) .

وفى ديسمبر ــ وهنا فقط يبدو جمال الموقف فى غيبة اللجنة الدولية ــ بدأت مناوشات على الحدود ضد جمهورية الڤيتنـــام الديمقراطية .

وفى ٢٩ يناير ١٩٥٩ كتبت الصحيفة الباريســـية « تربيون دى ناسيون » تقول « فى الأسابيع الأخيرة اكتشفت سلطات لاوس

---

(١) نقلا عن المجلة الهندية « لنك » ٧ يونيو ١٩٥٩ .

فجأة ان قرية هونج لاب الڤيتنامية تقع ضمن ممتلكات لاوس .. فهاجمت القرية وأرغمت السلطات المحلية على الرحيل .. والغريب فى الأمر ان مكتب الاستعلامات الأمريكى فى بانكوك كان قد أعلن . وقبل أن تفتح حكومة « ڤنتيان » فمها عن الموضوع ـ أعلن أن جيش الجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية قد انتهك حرمة الأراضى اللاوسية ..

وليس سهلا توضيح مثل هذه المسألة ..

ففى ١٢ يناير ١٩٥٩ وتحت ستار من الصرخات العالية حول « العدوان الڤيتنامى » صوتت الجمعية الوطنية على منح سلطات استثنائية لمدة سنة لحكومة سانانيكون .. وأعلن سانانيكون أن الحكومة سوف تحكم فى هذه السنة عن طريق « جهــــازى الدولة المستقلة .. الجيش والجهاز الادارى » .

أما الانتخابات التى كان متفقا على اجرائها فى چنيف ١٩٥٩ فلم يكن هناك مجال للتفكير فيها ..

وهكذا خيم شبح المستر هوراس سميث وأصدقاؤه اللاوسيين على كل البلاد ..

وقد كتبت مجلة « تايم » الأمريكية ذات الخبرة العالمية فى محاولة لها لتبرير السلطات الديكتاتورية « لسانانيكون » كتبت تقول « ان سانانيكون مثله مثل كثيرين من القادة الآسيويين يريد أن تتاح له فرصة الحكم بمفرده ولو لعام واحد حتى يستطيع أن يحسن أوضاع البلاد الاقتصادية والسياسية » أما سانانيكون نفسه فقد كان يستلهم فى خياله .. صورة ديجول ..

وفى ١١ فبراير أعلنت الحكومة رسميا أنها ترى ان اتفاقيات چنيف قد استنفذت أغراضها . وترى أن منظمة الأمم المتحدة هى وحدها المرجع لحل أية خلافات دولية .

ورغم كل الدعايات التى نظمتها حكومة سانانيكون عن العدوان الأجنبى .. فان هذه الحكومة لم تكن تعير القوات المسلحة الڤيتنامية أى اهتمام .. لسبب بسيط وهو أنها ـ هى وكل متتبع لأحوال الهند الصينية ـ تعلم جيدا ان قوات ڤيتنام الديمقراطية لم تدخل أراضى لاوس على الاطلاق .. ولكن الحكومة كانت تهتم بنوع آخر من القوات المسلحة ..

وقد بدأت الآن تنفذ النصيحة الأمريكية فى توجيه الضربة القاصمة لتحطيم نفوذ حزب نيولاو هاكست وذلك بتجريدها من الفرقتين المسلحتين التابعتين لقوات باتيت لاو (سابقا) والتى اتفق فى اتفاقية ڤنتيان فى نوفمبر ١٩٥٧ على ضمها للجيش الملكى .

وقد ظلت هاتين الفرقتين وكل منهما مكونة من ٧٥٠ جندى .. « مجمد نشاطها » فى سهل القوارير .. أكثر من عام .. ولم تعط مطلقا طوال هذا العام أية مسئولية من المسئوليات الرسمية (١) .

ولم تكن فى هذه المعاملة التى عومل بها محاربى « باتيت لاو » من قبل الحكومة .. ما يدعو الى مزيد من الثقة فى نوايا الحكومة نحوها .. ففى أول الأمر كان التموين يوزع شهرا بشهر .. ثم أصبح التموين لا يقدم لهم الا أسبوعا بأسبوع .. وفى النهاية كانت الحكومة تعطيهم تموين يوم واحد فقط .

ولم يقتصر الأمر على ذلك .. بل ان كميات التموين نفسها قد أنقصت .. فعلى سبيل المثال خفضت مخصصات الفرد من الأرز

---

(١) وتوضح الكلمات التى نشرتها الأيكونومست البريطانية فى ٢٤ يناير ١٩٥٩ حقيقة المعاملة التى كانت تعاملها هاتين الفرقتين كتبت الأيكونومست تقول يبدو أن هاتين الفرقتين « محددة اقامتهما » ..

أما النشرة الاقتصادية للشرق الأقصى الصادرة فى هونج كونج فقد كتبت فى ١٨ نوفمبر ١٩٥٩ تقول « لقد كانت هاتين الفرقتين موضوعتين تحت المراقبة » .

من ٨٠٠ جرام يوميا الى ٤٠٠ فقط .. وكل ما قدمته الحكومة من وسائل للترفيه عن هاتين الفرقتين كان انشاؤها لنواد للقمار وبيوت للساقطات بالقرب من ثكنات هاتين الفرقتين .. فاذا لم تفلح المحاولات الوقحة لتحطيم هاتين الفرقتين أخلاقيا فلتتبع وسائل أخرى .. وهكذا .. أمرت الفرقتان فى يناير بأن تعسكر كل منهما فى مكان منخفض حدد لها .. وفى المكان الجديد حوصرت كل منهما بثلاث فرق من القوات الملكية .. عسكرت فى المرتفعات التى تشرف على هذا المنخفض .

وفى ٩ مايو ١٩٥٩ صدرت أوامر قيادة الجيش الملكى للفرقتين بأن تتجمع كل منهما فى مكان منفصل فى ١١ مايو .. حتى يتم « تنظيمهم داخل صفوف الجيش » .. ويوم ١١ مايو هو الذكرى السنوية لاعلان دستور لاوس .. وكان مغزى هذا الطلب واضحا ..

وكانت أوامر قيادة الجيش الملكى تقضى بأن تغادر كل فرقة ثكناتها .. تاركة فيها كل أسلحتها .. وأن تتجمع فى أماكنها الجديدة بلا أية أسلحة .. وألا يرتدى أفرادها أية ملابس سوى الشورت والحذاء .. وسرعان ما سمعت الفرقتين أن النقط المطلوب منهما التجمع فيها عبارة عن أماكن محاطة بالأسلاك الشائكة ومحاصرة بفرق قوية من الجيش الملكى مسلحة بأسلحة ثقيلة .

وقابل ضباط باتيت لاو هذه « التعليمات الشاذة » بمزيد من الحذر وفى سهل القوارير تجمعت الفرقة الثانية بكامل أسلحتها واصطفت أمام ثكناتها وطلب ضباطها الى الجنرال « راتبيكوين » أن يعطى للجنود مزيدا من الايضاحات حول التعليمات ..

ووصل الجنرال « راتبيكوين » تصحبه ثلاث فصائل « كحرس شرف » ودعا قادة الفرقة الثانية للغذاء معه ..

وحضر الفـذاء أحد المستشارين الأمريكيين بالجيش الملـكى وكان شديد الثرثرة .. وأوصى ضباط الفرقة الثانية « أن يتركوا أسلحتهم » و « ألا يثـيروا مزيدا من المتاعب » وقال « ان لاوس ستصبح مثل تايلاند » .. حيث يسيطر الجيش على السلطة .. وفوق ذلك فقد قال لهم ذلك « الأمريكى غير الهادىء » أنهم اذا ما وافقوا على تسليم أسـلحتهم فان مسـتقبلا باسما سـوف ينتظرهم .. سـتكون لديهم سـيارات .. وسوف « يتعلمون الانجليزية اذا أرادوا ذلك » .

وقال ضباط باتيت لاو أنهم لا يستطيعون أن يقرروا ذلك الأمر وحدهم .. وطلبوا مهلة من الوقت لبحث هذا الموضوع مع قادة حزب نيولاو هاكست فى « ڤنتيان » .. ورفض طلبهم .. وتبع ذلك أسبوع حافل بالأحـداث والمفاوضات والمؤامرات .. لابد أن شعراء لاوس سوف يتغنون بأحداثه كثيرا ..

أما ضباط الفرقة الثانية .. فقد شاهدوا عند عودتهم من تناول الفذاء مع الجنرال .. شاهدوا الفرقة الثالثة التابعة للجيش الملكى وهى تحكم حصارها حول ثكناتهم .. بحيث لم يعد يفصل بين مواقع فرقتهم ومواقع الفرق الملكية سوى ١٥ ياردة فقط فى بعض الأماكن .. وكانت أسلحتها مصوبة نحو ثكناتهم .. وبدت كل الطرق وكأنها مغلقة .

وفى ١٤ مايو أضيفت فرقة من رجال البراشوت وفرقة مدفعية الى القوات التى تتولى الحصار .. ووجهت قيادة الجيش الملكى انذارا للفرقة الثانية بأن تسلم أسلحتها خلال ٢٤ ساعة والا فان القوات الملكية سوف تطلق عليها النيران .. وفى نفس الوقت كانت الحكومة الملكية تقبض فى ڤنتيان على الأمير « سوڤانا ڤونج » وغيره من قادة حزب نيولاو هاكست ..

وبدا أن الأزمــة تسرع نحو قمــة اشتـعالها .. ولا يمكن لأى انسان .. الا اذا كان جاهلا .. وجاهلا بشئون السياسة الأسيوية على وجه التحديد ـ لا يمكن له أن يتوقع أن تخضع هاتين الفرقتين فى ذلة لهذا الانذار ..

لقد عطلت جلسات البرلمان .. وألغيت كل مظاهر الديمقراطية فى البلاد .. وقبض على زعماء حزب نيولاو هاكست ووضع أعضاؤه فى جميع أنحاء البـلاد تحت المراقبة الشديدة .. وبدأت حملات ارهابيــة ضــد بعضهم وأخــذت دعايات الحكومة تصف أعضاء نيولاو هاكست بأنهم « عملاء لدولة أجنبية » .

وكان ضباط الفرقة الثانية يتذكرون الطريقة التى عومل بها ممثلوا باتيت لاو فى الأجهزة الادارية .. يتذكرون كيف حشد كل هؤلاء المندوبين فى مبنى واحد فى وزارة الداخلية .. وتركوا دون أى عمل .. سوى اجبارهم على سماع كورسات أمريكية معادية للشيوعية .. كانوا يتذكرون كيف أنقصت القــوات المسـلحة لباتيت لاو من ٨٠٠٠ جندى عند وقف القتال الى ١٥٠٠ جندى فقط .. أما الباقون فقد سرحوا وفقا للاتفاقيات التى وقعت مع الحكومة الملكية .. كانوا يتذكرون كل ذلك قبل أن يجيبوا على الانذار الموجه اليهم ..

لقد كان مطلوبا منهم أن يلقوا بالسـلاح الوحيد الباقى فى يد الشعب ليعارض به السياســة الشديدة الرجعية التى توجهها النصائح الأمريكية .. سياسة حكومة فووى سانانيكون ..

واتخذ أفراد الفرقة الثانية القرار الوحيد الذى كان يجب أن يتخذ .. قرروا اختراق الحصار .. محاولين بكل الوسائل تجنب أية اراقة للدماء ..

أما كيف اخترقت الفرقة الحصار .. والقصة التفصيلية لهذا الاختراق فانني أعتقد أنه من المستحسن أن نتركها لأحد شعراء لاوس .. ليرويها هو ..

انها أسطورة هوميرية .. هذا الاختراق للحصار .. ولكن كل ما نعلمه هو أن هـــذه الخطة قد نفذت .. وبدون اطلاق رصاصـــة واحدة ..

وفى الســـاعة التاســـعة من صباح ١٩ مايو ـ وعندما وصل الجنرال « أوبان راتيكون » الى ثكنات الفرقة الثانيـــة لتعلن له « استسلامها » .. ولم يجد هناك أى أثر لأى محارب من محاربى باتيت لاو .. وأصدر الجنرال الهائج أوامره الى أربع فرق لتسرع فى مطاردتهم .. ولكن الوقت كان قد فات .. والطائر .. قد غادر العش منذ وقت طويل ..

ثم سمع الناس عن الفرقة الثانيـــة من جديد .. فى ٣١ مايو عنـــدما وصلت الى أحـــد مراكزها الجبليـــة القـــديمة فى مقاطعة « اكسيينج كهو وانج » وهى منطقة جبلية وعرة تبعد ١٧ ميلا عن المكان الذى غادروه ..

ومن محطة الاذاعة التى حملوها معهم أثناء رحيلهم .. وجهوا نداءا يطالبون فيه بالشيء الذى رفضت الحكومة الملكية منحه لهم .. وهو « مهلة من الوقت ليتفاوضوا مع قادة حزب نيولاو هاكست حول مسألة دمجهم فى الجيش الملكى » (١) .

---

(١) وأعلنت الفرقة الثانية أن مجموع خسائرها فى الرحلة بلغت ٢ من القتلى ، ٤ جرحى .. وذلك نتيجة لبعض المناوشات مع قوات من الحرس المدنى جرت على بعد أميال عديدة من مكان رحيلهم .. وقد كانت سرعة هذه الفرقة الفائقة فى الحركة فى هذه المناطق الجبلية الوعرة أمرا يدعو الى الدهشة حقا .. خصوصا اذا علمنا أن الـ ٧٤٠ رجلا الذين غادروا سهل القوارير كانوا يصحبون معهم =

ولكن حكومة لاوس ما لبثت ـ بعد فترة من التخبط وبعد أن تأكدت من استعداد ڤيتنام الجنوبية وتايلاند والولايات المتحدة لمساعدتها .. ما لبثت أن أعلنت فى ٢٦ مايو أنها تعتبر أفراد الفرقة الثانية « عصاة » وانها سوف تسحقهم نهائيا ..

وبدأت الحرب الأهلية فى لاوس من جديد .

وفى منتصف ١٩٥٩ عادت لاوس الى نفس الوضع الذى جهد مؤتمر چنيف أن يخلصها منه .. فقد أصبحت من جديد عاملا لزيادة التوتر بين المعسكرين وهددت سلام العالم .. ولكن وحتى بعد أن هدأت الأزمة .. ظل التوصل الى حل لمشكلة لاوس أمرا شديد التعقيد .

وكان اعلان ٢٦ مايو الذى أصدرته حكومة لاوس وأعلنت فيه الحرب ضد الفرقة الثانية .. كان اشارة البدء لموجة قهر شديد ضد أعضاء نيولاو هاكست ومؤيديهم فى كل أنحاء البلاد ..

والضغط يولد المقاومة .. وفى طول البلاد وعرضها بدأ رجال المقاومة القدامى .. يفرون من قراهم خوفا على حياتهم .. وتجمعوا فى الأدغال .. وكانت كل مجموعة .. فى أى مكان

= ٨٩ امرأة وطفلا .. وقد زاد هذا الرقم الى ٩٢ امرأة وطفلا فى نهاية الرحلة .. ففى الطريق لحقت احدى النساء بزوجها عندما مرت الفرقة بقريتها .. وفى الطريق ولد طفلان .. ووصلت النساء والأطفال سالمين ..

أما مصير الفرقة الأولى التى كانت معسكرة فى « اكساين نيجوين » بالقرب من « لوانج برابانج » فقد أوضح النوايا الحقيقية للحكومة تجاه قوات « باتيت لاو » . فقد دب الخلاف بين قواد الفرقة .. بعد أن ووجهوا برسالة من « سوفانا فونج » يدعوهم فيها الى اطاعة أوامر الحكومة الملكية .. ونزع سلاح الفرقة .. ونقل أفرادها الى معسكرات الاعتقال .. ولكن الكثيرين من أفرادها هربوا من الاعتقال ليلحقوا بالفرقة الثانية بعد أن سمعوا بنشاطها ..

تتسمى باسم « الفرقة الثانية .. وفى شهر واحد .. نمى العدد المتواضع للفرقة الثانية من ٤٧٠ مقاتلا الى عشرات الألوف .. وبدأت هذه المقاومة الجديدة تحت شعار .. فتح باب المفاوضات بين الجانبين المتصارعين فى لاوس .. وكف يد الأمريكيين عن التدخل فى شئون لاوس .. والفصل بين حكومة فووى سانانيكون وبين غلاة الرجعيين الذين تضمهم « لجنة الدفاع عن المصالح الوطنية » .

وسرعان ما اتضح أن جنود الجيش الملكى لا يمكنهم تحمل هذه الحملات ولا « عمليات التطهير » التى طلب اليهم القيام بها .. وبدأت حكومة فنتيان تحس بزمام الموقف يفلت من بين يديها سواء من الناحية السياسية أو الناحية العسكرية .

ووصفت صحيفة فرنسية هذه الحرب الأهلية بقولها .. « ان الحكومة تنهار — فى حقيقة الأمر — تحت وطأة سخط قسم من الشعب وسلبية القسم الآخر .. فجنود جيشها ينحازون بلا قتال الى جيوش الثوار .. أما المسئولون فى الحكومة فهم يجمعون بسرعة ثروات يحصلون عليها بوسائل غير مشروعة .. ثم يغادرون البلاد » (١) .

ولكن حكومة لاوس لم تكن سيدة نفسها .. ولم يكن بامكان الحكومة أن تفاوض الجانب الآخر .. أو أن تجد أى حل جذرى للمشكلة فان أى حل تتبعه كان يتحتم أن يكون حلا « صنع فى الولايات المتحدة » .

وفى يونيو عقدت عدة أجهزة تابعة لحلف جنوب شرقى آسيا مالا يقل عن ستة اجتماعات لبحث المشكلة اللاوسية . وعقدت

---

(١) ليبراسيون Libérazion ٦ سبتمبر ١٩٥٩ .

سلسلة من الاتفاقيات المتعجلة ذات الصبغة الادارية التى تتناول مسألة السيطرة على الحدود .. بين نظام نيجو دين ديم فى جنوب الڤيتنام .. وحكومة تايلاند تحت اشراف الحكومة الأمريكية .. وفى ٩ يونيو أعلن ساراسين السكرتير العام لحلف جنوب شرقى آسيا .. أعلن نفسه حاميا لأمن لاوس ..

وفى هذا الوقت غير الملائم بالنسبة لحكومة سانانيكون بدأت مشكلة لاوس تتخذ من جديد طابعا عالميا .. وفى ١٥ يونيو نشر تقرير لجنة الكونجرس الفرعية التى شكلت لبحث مسألة المساعدات الأمريكية .

ومن بين الأشياء العديدة التى تناولها التقرير .. قال ان اللجنة قد قدمت تقريرا بالمخالفات التى اكتشفتها فى التصرف فى أموال المساعدة الأمريكية الى لجنة العدل .. وفى هذا التقرير وجهت تهمة استغلال النفوذ والفساد ضد عدد من الموظفين الأمريكيين السابقين فى لاوس .

ولكن الفقرة من التقرير التى تقول « ان الفوضى التى سادت استخدام أموال المساعدة الأمريكية والتى أدت الى الاثراء غير المشروع لعدد من الموظفين ورجال الأعمال اللاوسيين قد أعطت الشيوعيين فرصة اتهام الحكومة اللاوسية « بالفساد » وعدم اهتمامها بمصالح الشعب » (١) هذه الفقرة من التقرير كانت كفيلة بأن يدب الذعر فى أوصال الدوائر الرسمية فى فنتيان ..

وقال التقرير أيضا « ان السبب فى ضياع جزء كبير من أموال المساعدة يرجع الى اصرار مكتب الشئون الحكومية » على الاحتفاظ بجيش قوامه ٢٥٫٠٠٠ جندى فى حين أن خبراء مكتب الدفاع

---

(١) مكتب الاستعلامات الأمريكى ١٥ يونيو ١٩٥٩ .

قد قرروا أن جيشا قوامه ١٠٫٠٠٠ أو ١٥٫٠٠٠ جندى ربما يكون أكثر ملاءمة بل وحتى أكثر فعالية .. »

وهكذا ومن خارج البلاد .. وداخلها .. أخذت الشباك تطبق على أتباع أمريكا فى لاوس .. فان وحدتهم .. وفعالية جيشهم .. ومدى نفوذ السياسة الأمريكية فى لاوس .. قد أصبحت مسائل لا تناقش الا فى الكونجرس الأمريكى ..

وبينما تشتعل الحرب الأهليـــة .. تزداد انتقادات رجال الكونجرس الأمريكى .. وكان يتحتم عمل شىء ما .. وبسرعة ..

وكان من حسن حظ « سانانيكون » وفرسان « لجنة الدفاع عن المصالح الوطنية » انهم أدركوا أن للعم سام وجهين مختلفين تمام الاختلاف .. وجه ليتحدث به الى العـالم .. من خلال مناقشـات أعضـاء الكونجرس المحترمين .. ووجـه مختلف تماما .. يرتديه ممثلوه فى لاوس .. لقد أدركوا سريعا .. أنه بالرغم من كل الكلمات القاسية التى وجهتها لهم لجنة الكونجرس الفرعيـة فقد ظل ممثلو أمريكا فى لاوس يمنحونهم كل مساندة ممكنة ويتعاونون معهم تماما فى حل المشاكل التى تعترضهم ..

وكان لابد من مخرج للتغطية على هذا الوضع المؤسف الذى وجدت الحكومة نفسها فيه .. ولجأوا الى مخرج .. كان مخرجا قديما سبق استخدامه .. ولكنه ــ رغم كل شىء ــ كان صالحا لأن يستخدم فى جولة أخرى .. وبدأ الصراخ من جديد حول «عدوان ڤييتمنة » .

وبما أن لـكل شىء ثمنا .. فان لاوس قد دفعت ثمن ذلك الصياح .. بفقد ذلك الجزء القليل الباقى من استقلالها ..

فقد نصت اتفاقيات جنيف على أن من حق فرنسا أن تدرب وتجهز جيش لاوس بالسـلاح . وقد سبب هـذا قلقـا كبيرا

للأمريكيين فهم لا يريدون أن يروا فرنسا تتدخل فى تجهيز وتدريب جيش تنفق هى أموالها عليه وتدربه .. (ولسنا بحاجة الى أن نشير الى ذلك النوع من « عواطف الصداقة » التى شابت ترتيب ذلك العمل بين ممثلى فرنسا وأمريكا فى لاوس) .

وكانت هذه الصيحات فرصة جديدة لمزيد من الضغط الأمريكى على كل من الفرنسيين وحكومة لاوس من أجل السماح للأمريكيين بمزيد من الاشراف المباشر على القوات المسلحة ..

وفى ٢٣ يوليو ١٩٥٩ أذاع راديو ڤنتيان اتفاقا بين حكومتى لاوس وفرنسا ينص على أن الخبراء الأمريكيين سوف يتعاونون فى المستقبل مع البعثة العسكرية الفرنسية .

ولم ينتظر العالم طويلا لكى يعلم ماذا تعنيه بالضبط هذه الكلمات المائعة ..

فلم يكد يمضى شهر واحد حتى هبط فى « ڤنتيان » ــ وفى صخب شديد ــ سبعون ضابطا أمريكيا من ذوى الرتب العالية . وأكثر من ثلاثمائة خبير عسكرى من ذوى الرتب الصغيرة .. وتولى هؤلاء الأمريكيون « مسئوليتهم » .. تولوا القيادة المباشرة للقوات الحكومية اللاوسية فى « عمليات التطهير » التى كانت تجرى على قدم وساق فى كل أنحاء البلاد ..

ثم ما لبث فيضان جديد من العتاد الأمريكى بما فى ذلك الطائرات والدبابات ــ ان انهال على لاوس من تايلاند وجنوب الڤيتنام ..

وفى ٨ اغسطس نقل الأمير سوفانا فوما هو وثمانية من قادة حزب « نيولاو هاكست » من الأماكن التى كانت اقامتهم محددة فيها منذ مايو .. الى السجن دون أن توجه اليهم أية تهمة ..

وفى ١٣ أغسطس أعلن الكولونيل « فومى نوسافان » الشخصية القوية فى « لجنة الدفاع الوطنية » ونائب وزير الدفاع أعلن أن قوات جمهورية ڤيتنام الديمقراطية قد انتهكت حرمة الأراضى اللاوسية ..

وفى ١٤ أغسطس أرسل سانانيكون أحد أقربائه الموثوق بهم هو نيجون سانانيكون الى الأمم المتحدة ليطلب معونة المنظمة الدولية .. لصد العدوان .

ولتأكيد .. من أجل مزيد من التأكيد وجهت حكومة لاوس نداء الى المنظمة الدولية تطلب « معونة عسكرية عاجلة » ..

وتوالت القصص .. كثير من القصص عن « عدوان ڤييتمنه » توالت القصة تلو الأخرى ..

وفى ٢٦ اغسطس أعلنت الولايات المتحدة استعدادها « لارسال المساعدة التى تطلبها لاوس ..

وهكذا جذبت مملكة المليون فيل .. والشمسيات البيضاء .. أنظار العالم أجمع .

* * *

وجذبت أحداث الأسابيع التالية فى لاوس انتباه العالم .. بشكل لم يسبق له مثيل .. وتسلطت أضواء العالم على لاوس وكانت نتيجة هذا البحث هو انعدام ثقة العالم فى حكومة سانانيكون وأجهزته العسكرية .. وفجأة وكما لو كانت كشافات قوية قد ألقت ضوءها على لاوس .. ظهر الموقف فى لاوس واضحا لكل العالم ، وانكشفت أمام شعب لاوس تلك العصبة وهى متلبسة بجريمتها ..

وانهارت تماما أكذوبة « عدوان ڤييتمنة » .

وتقاسمت حكومة أمريكا وحكومة لاوس مرارة الفشل فى هذه المحاولة للتآمر على سلام العالم ..

ولكن ..دعونا نتتبع بايجاز مجرى الأحداث فى لاوس فى أزمة سبتمبر ــ نوفمبر ١٩٥٩ .

أما الحكومة الأمريكية التى صوتت من أجل ارسال مساعدة عسكرية سريعة الى لاوس .. والتى أصدرت تصريحات رسمية عديدة عن « العدوان الڤيتنامى على لاوس » فقد أصبح وضعها شديد الحرج ومع ذلك ظلت تتبع نفس « سياستها » الشنيعة ..

لقد كانت مفاوضات چنيف حول المسألة الألمانية تحرز فى ذلك الوقت تقدما ملحوظا .. وسرت فى العالم كله بارقة من أمل فى تخفيف حدة التوتر الدولى .. وفى هذا الوقت بالذات كانت أمريكا تعد هى وعملاؤها فى لاوس مغامرة جديدة .. « عدوان ڤيتنامى على لاوس » واقترح كل من الاتحاد السوڤيتى والصين والهند .. وحتى الحكومة المعتدية !! « حكومة الڤيتنام الديمقراطية اقترحوا جميعا احياء اللجنة الدولية للرقابة على الوضع فى لاوس .. ونال هذا الاقتراح تأييدا واسعا على نطاق العالم كله (١) ..

ولكن سياسة الولايات المتحدة لم تكن لتسمح باحياء اللجنة الدولية .. فان ما يجرى فى لاوس .. ليس من المصلحة أن تراه أعين مثل هذه اللجنة ..

ولكن لجنة دولية أخرى أكثر ملاءمة يجب أن تكون لتتستر على موقف الولايات المتحدة هناك .

---

(١) فى ٣١ يوليو كتبت التايمز اللندنية تقول « ان زيارة من جانب اللجنة الدولية .. أحسن بكثير من تلك الشكوك المتناثرة فى بلد يصعب التوصل فيه الى الحقائق .. ويسهل فيه ترويج الشائعات » ..

وإذا ما استطاعت أمريكا أن تستدرج الأمم المتحدة الى التدخل فى لاوس فانها ستستطيع ليس فقط أن تخفى تدخلها المسلح هناك تحت راية الأمم المتحدة .. كما حدث فى كوريا .. ولكنها كانت ستستطيع أيضا أن توجه ضربة غادرة لكل اتفاقيات جنيف ثم انه اذا ما تدخلت المنظمة الدولية فى الهند الصينية .. فى لاوس فان ذلك قد يكون سابقة تسهل تدخلها فى أماكن أخرى ..

وهكذا بدأت تلك القصة المتهوسة عن « حضور » مندوبى الأمم المتحدة الى لاوس .

وفى ٧ سبتمبر فى الوقت الذى كانت فيه أمريكا فى قمة ادعاءاتها وبين صيحات المظاهرة الأمريكية (١) قرر مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة قرر ارسال لجنة فرعية « لاستيضاح الحقائق » ولتبحث فى حقيقة الاتهامات الموجهة من لاوس ضد جمهورية الڤيتنام الديمقراطية ..

وكانت المشكلة الرئيسية التى اهتم بها المستر لودج فى مناقشاته فى مجلس الأمن هى أن تشكيل اللجنة الدولية مسألة « اجراءات » (ليست خاضعة للڤيتو) . وقد كتبت جريدة « الاسبكتبتور » The Speetatar الانجليزية وهى تلخص رد الفعل لدى أكثر العناصر تعقلا فى الغرب كتبت فى ١١ سبتمبر تقول « لقد أضرت مناورات لودج هذه بالأمم المتحدة نفسها وبموقف الدول الغربية فيها .. لقد أضرت بها من أجل مسألة تافهة .. فماذا يمكن أن تجد اللجنة الفرعية فى لاوس .. انها لن ترى شيئا أكثر مما رأته اللجنة العسكرية » (٢) .

---

(١) أرسل الرئيس أيزنهاور رسالة تهنئة خاصة للمستر كابوت لودج مندوب أمريكا فى الأمم المتحدة .. عند صدور هذا القرار .

(٢) كانت لجنة عسكرية من مندوبى أمريكا وبريطانيا وفرنسا قد زارت المناطق التى قيل أن عدوانا قد وقع عليها .

وأختير أعضاء هذه اللجنة الفرعية السيئة الطالع وكانت مكونة من تونس واليابان والأرجنتين وايطاليا .

ووصل أعضاؤها الى ڤنتيان فى ١٦ سبتمبر .. فى الوقت الذى كان فيه الرسميون اللاوسيون يصرخون صراخا عاليا عن التهديد الڤيتنامى المباشر لمدينة سام نيوا .

وفى المطـار استقبلهم الرئيس سانانيكون .. وأبلغ اللجنة فى لهجة واثقة أنه سوف يمدها بسرعة « بالأدلة الدامغة » عن العدوان الڤيتنـامى على لاوس .. ولـكنه ما لبث أن طلب من « اللجنـة الفرعية » أن تنتظر عدة أيام حتى يقدم لها الأدلة ..

وفى نفس الموقف .. وبعيـــدا عن الأنظار .. كان رجال .. وضباط من لاوس يندفعون الى مناطق الحدود بحثا عن دليل يثبت عدوان « ڤييتمنه » .. وأعلن عن تقـديم مكافآت كبيرة لكل من يحصل على أى « ڤيتنامى » مسلح أو غير مسلح (١) .

---

(١) أرسل قائد المكتب الثالث فى الجيش الملكى فى شمال لاوس تعليمات سرية تحت رقم ٢٢١ مؤرخة بتاريخ ٢٣ سبتمبر يوجه فيها كل الضباط الى « تجميع النـاس المتعاونين معنا » ليسجلوا فى تقارير تفصيلية أنهم قد هوجموا وأن المهاجمين كانوا ڤيتناميين .. وانهم قد شاهدوا الڤيتناميين بأعينهم وسمعوهم بآذانهم يتحدثون باللغة الڤيتنامية .. وانهم رأوهم وهم يرتدون الزى العسكرى الڤيتنامى وتقـول هـذه التعليمات أنه يجب أن تبذل عناية خاصـة لتعليم هؤلاء الناس « ماذا يقولون » وكيف يقولون هذه المعلومات بصورة توحى فعلا أنهم شاهدوا ڤيتناميين .. فى هذا المكان أو ذاك وانهم قد رأوهم وهم يهاجمون المكان « الفلانى » فى اليوم « الفلانى » بأعداد قدرها كذا جندى .

وكان هذا الأمر الرسمى موقعا باسم الكولونيل « آماكاسوكاها ڤونج » .. ولكن هذه التعليمات وقعت فى أيدى رجال العصابات اللاوسيين .. ونشرت فى جريدة لاو هاكست فى ٢٨ أكتوبر ..

وفى ٢٢ سبتمبر اخترقت قوات الجيش الملكى حدود الڤيتنام فى منطقة « سوب هاو » فى محاولة لاختطاف عدد من أفراد الجيش الشعبى الڤيتنامى .. وفشلت المحاولة ..

وبعد انتظار طويل .. قضته اللجنة الفرعية فى ڤنتيان قدمت لها الحكومة تقريرها وعلى الفور أرسلت اللجنة الى الحكومة تطلب ايضاحات عن عشرين نقطة وردت فى التقرير .

أما ذلك الجيش الصغير من المراسلين الغربيين الذين احتشدوا فى ڤنتيان لتغطية أنباء العدوان الڤيتنامى المزعوم فقد كان أكثر اتزانا واحتراما لمسئولياته من أن تحتمله حكومة لاوس وسلطاتها العسكرية ..

وبعد أن أن نشرت الديلى اكسبريس اللندنية برقية لمراسلها «دونالد سيمان» يصف فيها أحدى معارك الحرب الأهلية .. منعت حكومة لاوس المراسلين الأجانب ابتداء من ٢٠ سبتمبر من زيارة المناطق الشمالية ..

لقد قال أحد الصحفيين الأمريكيين لزميله الفرنسى « لقد سمعت سبع عشرة قصة مختلفة .. من سبعة عشر شخصا مسئولا تحدثت كلها عن الموقف الخطير .. وفجأة اكتشفنا .. أن شيئا ما لم يحدث » (١) .

ولسنا بحاجة الى أن نصف أثر هذه الخدعة فى نفوس وبرقيات هؤلاء الصحفيين .

وبعد ٢٧ يوما قضتها اللجنة الفرعية فى دراسة الأدلة التى قدمتها الحكومة .. وبعد أن قامت بعدة جولات فى البلاد ..

---

(١) صحيفة بارى برس ٩ سبتمبر .

غادرت اللجنة الفرعية لاوس فى ١٣ أكتوبر .. ونشر تقريرها فى نيويورك فى ٦ نوفمبر وكان يتضمن هذه النقاط الرئيسية .

« ان هناك عمليـات عسكرية تتخذ طابع حرب العصابات تجرى فى كل أنحاء المملكة » « وتتجمع العناصر المعادية للحكومة حـول الأعضاء السابقين للفرقة ٧ . س . ب . ل التى سبق الحاقها بالجيش فى ١٩٥٧ .. والفرقة الثانية من قوات باتيت لاو ومجموعات من الأقليات المتناثرة على الحدود .

« والمعلومات التى قدمت للجنة الفرعية لم توضح تماما ما اذا كانت تتم عمليات اجتيـاز للحدود من جانب القوات النظامية للجمهورية الديمقراطية الڤيتنامية » .

وفى ٨ سبتمبر نشرت جريدة « وول ستريت » كل الحقائق على الملأ فقالت « ان القوات المعتدية فى لاوس .. ليست مجرد مجموعات صـغيرة من « المتمردين » وليست مجرد مجموعات صغيرة من « فرق العصابات » وليست مجرد فرق شيوعية سريعة الحـركة مكونة من ٢٥٠٠ جندى .. ليست مجرد كل هؤلاء .. ولكنها كل شعب لاوس » ..

أما القوات الڤيتنامية المعتدية والتى اختلف عددها باختلاف المتحدثين اللاوسيين .. والتى قيل انها ٥٠٠ جندى وقيل انها عدة عشرات من الألوف فلم يعثر لها على أثر .

وقالت الديلى اكسبريس اللندنية « فى بلد المليون فيل » ، « يجب أن تكون فيها بعض الفيلة بيضاء » .

ولكن الانهيار السريع لهـذه الأزمة المفتعلة لم يمكن من حل الأمور المعقدة بالنسبة للحكومة اللاوسية بل على العكس من ذلك فان تدخل الأمم المتحدة فى لاوس قد زاد الأمور تعقيدا ..

ولم يمض وقت طويل حتى بدا واضحا أمام الأعين .. المرض الحقيقى للاوس ــ مرض تقسيمها عن عمد لصالح استراتيجية العالم الحر ..

* * *

واذا كان انهيار أكذوبة « العدوان الڤيتنامى » قد أساء الى سمعة الحكومة اللاوسية على نطاق العالم كله .. فان تأثيره كان فتاكا بالنسبة لذلك التحالف القلق بين الأبطال الصغار للجنة الدفاع عن المصالح الوطنية .. وبين الساسة القدامى الذين يقودهم فووى سانانيكون .. فان كلا من هاتين المجموعتين المهزومتين من « القادة الوطنيين » قد تحولت لكى تنهش زميلتها ..

وتراشق الطرفان بالألفاظ الحادة .. علنا على صفحات الجرائد الفرنسية التى تصدر فى « ڤنتيان » فصحيفة « الاستقلال » تؤيد سانانيكون وصحيفة « لاوهاكاسات » تؤيد لجنة الدفاع .. وكان النقاش يدور حول « كيف نخرج من هذا المأزق ؟ » .

وكانت مهمة ايجاد مخرج من هذا المأزق .. مهمة فض هذا الشجار .. موكولة بالمستر داج همرشولد السكرتير العام للأمم المتحدة الذى زار لاوس « زيارة شخصية » فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٥٩ .

وكان هناك أكثر من سبب لأن نفترض أن المستر داج همرشولد السياسى المرن .. سوف يعطف على السياسة « المرنة » التى كانت تتبناها مجموعة فووى سانانيكون .. وانه سوف يعارض الخط « المتشدد » الذى كان يدعو له نائب وزير « فومى نوساڤان » هو ولجنة الدفاع .

وكان هناك شيء هام آخر .. هو موقف السفراء الغربيين السفير الفرنسي والبريطاني .. وحتى السفير الأمريكي - الذين كانوا يقابلون ملك لاوس يوميا في هذه الفترة ليقنعوه بألا تعكر لاوس صفو سلام العالم بتخليها تخليا سافرا عن سياسة « الحياد » .

وهكذا نجح سانانيكون رئيس الوزراء في الجولة الأولى .. وفي ٢٥ نوفمبر قررت الحكومة تأجيل اجراء الانتخابات العامة التي كان مقررا اجراؤها في ١٩٥٩ .. ومن دورة الجمعية الوطنية القائمة عاما جديدا ..

وفي ١٢ ديسمبر أرسل سانانيكون الى الملك يبلغه أنه ينوي تشكيل حكومة جديدة .. ووافق الملك على قائمة الوزراء الجديدة والتي استبعد منها كل وزراء لجنة الدفاع .

وكان هناك في ذلك الوقت كلام كثير عن الحياد .. وعن العيش في سلام مع الجيران .. وبدا أن الريح تسير هادئة بلاوس .. بسياستها اللينة ..

ولكن في هذه اللحظة .. كانت طلقات الرصاص تدوي في أنحاء فنتيان التي أحالت الشمس لون مبانيها القديمة .. وقبل أن تغرب شمس العام .. عام ١٩٥٩ .. كان رجال لجنة الدفاع بقيادة « نوسافان » قد ضربوا ضربتهم .. واندفعت اللوريات محملة بالجنود لتحاصر مبنى الجمعية الوطنية .. وتجبر حكومة سانانيكون على الاستقالة .. ومع فجر عام ١٩٦٠ استولى الجيش على السلطة في كل أنحاء البلاد .

وعلى أية حال فان هذا المسخ الذي يسمى لجنة الدفاع لم يكن بامكانه - بعد - أن يحكم البلاد بمفرده .. وتولى مقاليد الأمور

من الناحية الفعلية « فرانكشتين » « الحديث » السفير هوراس سميث تولاها من خلال صنيعته .. لجنة الدفاع ..

وفى ٧ يناير ١٩٦٠ وبعد مفاوضات مضنية أعلن عن تشكيل حكومة مدنية يرأسها شخص معروف بلينه وبعده عن التشدد .. هو « كاهو آبهاى » الذى كان يعمل خبيرا فى الفولكلور اللاوسى .. ولكن ثياب خبير الفولكلور كانت تخفى خلف طياتها وزراء لجنة الدفاع .. الذين استقروا فى هدوء فى مقاعد الوزارة وهكذا قبضت هذه اليد الباطشة .. الثمن فى نهاية الأمر ..

واذا ما حاولنا أن نتذكر التاريخ .. فان حكومة «كاهو آبهاى» يجب أن يرتبط اسمها « بانتخابات ٢٤ أبريل ١٩٦٠ » .

ولست بحاجة الى أن ألجأ الى كتابات الكتاب اليساريين لأدلل على الفساد التام الذى شاب هذه الانتخابات .. ولكن لنر ما يقوله مراسل جريدة « آيج » Age الاسترالية فى منطقة الشرق الأقصى فى برقيته التى أرسلها من فنتيان بتاريخ ٢٣ أبريل .. « ان الدوائر العسكرية الغربية فى فنتيان يمكنها أن تعطى صورة حقيقية عن رجال الانتخابات المسلحين .. صورة مصغرة لذلك الارهاب الذى يتحدثون كل يوم عن وجوده فى بكين وهانوى .. ان المراقب الدقيق لا يمكنه أن يأخذ صورة حقيقية عن الوضع دون أن يقوم بجولة واسعة فى أنحاء البلاد .. ان الجيش ما زال مستمرا فى شن هجماته على القرى ليغتصب الأغذية والنساء .. وتكثر حالات هتك الأعراض .. وقتل ماشية الأهالى .. وحالات ارهاب الناخبين كثيرة يسهل على أى انسان ملاحظتها هذا اذا لم تكن تعتبر فعلا طابعا مميزا لهذا الجيش » .

أما عن التصويت فى الانتخابات فقد كتب جرانت يقول « لقد أعطى كل ناخب تذكرة بها خانات .. لكل مرشح خانة .. وعلى

الناخب أن يقطع خانة المرشح الذى يريد انتخابه .. ويضعها فى ظرف ثم يضع الظرف فى صندوق الانتخاب .. ولكنه يترك بقية التذكرة .. وبها بقية الخانات أمام أعين كل الحاضرين بما فيهم رجال البوليس .. وكما أن ٤ ــ ٣ = ١ فان رجال البوليس ليسوا بحاجة الى أن يدرسوا علوما رياضية ليعرفوا اسم المرشح الذى انتخبه هذا الناخب » .

ولنترك مراسلا استراليا آخر هو جون شو مراسل جريدة « الشمس » الصادرة فى سيدنى يتحدث هو الآخر عن انطباعاته عن نتائج انتخابات ٢٤ أبريل ..

لقد كتب شو فى ٢ يونيو يقول « رغم هذا النصر فاننا نحس بالغيظ تماما كما لو كان الشيوعيون هم الذين انتصروا .. فمنذ ١٨ شهرا اكتسح الشيوعيون واليساريون الانتخابات .. وكان متوقعا أن يكتسحوا فى هذه الانتخابات أيضا .. ولكنهم لم يحصلوا ولا على مقعد واحد .. وحصل بعض اليمينيين على نسبة خيالية وغير معقولة « من الأصوات » ففى احدى الدوائر التى يتمتع فيها « الحمر » بنفوذ كبير جدا حصل المرشح اليمينى على ١٦٫٠٠٠ صوت مقابل ١٣ فقط نالها منافسه وفى دائرة أخرى حصل مرشح الحكومة على ١٨٫٠٠٠ صوت مقابل ١٥ صوتا حصل عليها اثنان من المرشحين اليساريين » .

ان « شو » حينما يتحدث عن الشيوعيين انما يقصد حزب نيولاو هاكست .. الذى صمم على أن يدخل هذه الانتخابات التى أجريت فى ظل الحراب المشرعة .. وذلك رغبة منه فى ألا ينعزل عن أى نشاط يجرى فى صفوف الأمة .. حتى ولو جرى هذا النشاط فى ظل ظروف غير ديمقراطية وغير مواتية .. وقد رشح الحزب تسعة مرشحين سقطوا جميعا .

وأمام الجمعية الوطنية وقف وزير الداخلية « تياو سومسانيس » ليتحدث عن الانتخابات فاعترف بأن ١٦ نائبا فقط هم الذين يمكن اعتبارهم منتخبين « انتخابا حقيقيا » أما الـ ٤٣ الآخرين فانهم قد « اعترض » على انتخابهم او وجهت لهم « اتهامات » أو « اتهامات قوية » .

هذه هى الانتخابات التى نتجت عنها جمعية وطنية .. ليس فيها أى عضو من نيولاو هاكست ولا أى عضو من لجنة السلام والحياد ..

أما أعضاء لجنة الدفاع الذين أغراهم حصولهم على ثلثى مقاعد الجمعية الوطنية فقد أعلنوا ان لجنتهم قد تحولت الى حزب اسمه « الحزب الاشتراكى الديمقراطى » « كذا !! » .

ولكن صيحات الفرح ما لبثت أن تحشرجت فى صدور أعضاء هذا الحزب الجديد ..

فقبل أن يبزغ فجر ذلك الصباح العاصف ليوم ٢٤ مايو هرب الأمير سوفانا ڤوما هو وسبعة آخرون من قادة حزب « نيولاو هاكست » من سجنهم القريب من « ڤنتيان » وصحبهم أثناء هربهم الى الجبال تسعة من حراسهم الذين كانت تثق فيهم لجنة الدفاع ثقة كبيرة .. ولم يكن هناك أى حدث آخر يمكن أن يعبر بوضوح عن حقيقة الوضع فى المملكة .. لقد انتفض أعضاء لجنة الدفاع غضبا وأقسموا على الثأر .. ولكن شعب لاوس كله كان سعيدا ..

وفى ٥ يونيو سنة ١٩٦٠ حصلت الحكومة التى شكلها « تياو سومسانيس » .. والذى كان آخر ألعوبة فى سلسلة رؤساء الوزارات المعادين للوحدة الوطنية ــ حصلت على ثقة

الجمعية الوطنيـــة .. وكان كل انسان يعلم جيدا ان « تيـــاو سومسانيس » كان صنيعة لقومى نوسافان .. وكان كل انسان يعلم أيضا ان قومى نوسافان كان يتوق لأن يحكم البلاد بنفسه حكما دكتاتوريا متشبها بـ « ساريث ثانارات » حاكم تايلاند .. ولكن الناس كانوا يعلمون أيضا أن قومى نوسافان قد أجبر تحت ضغط سادته الأمريكان على قبول ذلك الوضع .

وفى ٥ يونيو وقف أحد أعضاء الجمعية الوطنية ليتحدث .. ليعطى صورة عن لاوس .. التى انضمت الى ركب العالم الحر « وقف يقول .. » ان كل شىء يحيط بنا يدفعنا الى عدم الرضا .. فمن الناحية المالية .. فان خزائن البلاد خاوية على عروشها .. أما من ناحية التعليم فليس لدينا لا مدارس ولا مدرسين .. ومن ناحية الصحة العامة فاننا ليس لدينا لا مستشفيات ولا ممرضين ولا أطباء .. ودفاعنا الوطنى لا يحمى أى شىء .. وعدالتنا .. خالية من العدالة .

* * *

وفى ١٠ مايو ١٩٥٩ لخص مستر والتر . س . روبرتسون الذى كان يعمل حينئذ نائبا لوزير الخارجية لشئون الشرق الأقصى لخص الجهود الأمريكية فيما بعد مؤتمر چنيف فقال « لقد نجحت المساعدة الأمريكية فى لاوس نجاحا كبيرا .. لقد نجح اللاوسيون .. لقد نجحوا فى التخلص من الشيوعيين الذين كانوا يشتركون فى الحكومة .. وأوجدوا حكومة تنتمى للعالم الحر .. حكومة رفضت أية مساعدة من المعسكر الشيوعى ولا تتبادل معه أى علاقات ..

ان العالم مدين بالكثير .. للمستر روبرتسون الذى ألقى هذه الخطبة .. فى الوقت الذى كانت فيه الحرب الأهلية توشك أن تندلع فى لاوس .. لتعبر بجلاء عن مدى نجاح المساعدات الأمريكية فى لاوس .

ان لاوس الآن بالرغم من حيادها « الهش » قد أصبحت مرتبطة ارتباطا وثيقا بعجلة الحرب الأمريكية .. ان بناء طريق « كوننم ـ آتوبى ـ باكس » الذى يربط ڤيتنام الجنوبية بتايلاند مارا بلاوس يوضح الخطط الاستراتيجية الأمريكية التى سبق أن تبناها حلف جنوب شرقى آسيا .. خطط احاطة الصين وڤيتنام الديمقراطية بالقواعد العسكرية .. وفعلا أنشىء فى لاوس سبع عشرة قاعدة للطيران بعضها ضخم جدا مثل قاعدة سهل القوارير وفنتيان وباكس .. أما قاعدة سينو العسكرية التى جلت عنها القوات الفرنسية وفقا لاتفاقيات چنيف فقد أصبحت الآن هى الأخرى تحت سيطرة الأمريكيين .

ولقد دفع شعب لاوس الكثير .. مقابل هذا التسليح الأمريكى ان الحالة الاقتصادية أخذت تتدهور باستمرار تحت ضغط « المساعدة » الأمريكية .. والوضع الداخلى المتعفن .

ففى النصف الأول من عام ١٩٥٧ بلغت قيمة صادرات لاوس ٢٠ مليون كيب وبلغت صادراتها ٦٣٢ مليون كيب .

وفى ١٣ نوفمبر ١٩٥٨ كتب مستر هانيس ميللر أحد المشرفين السابقين على المساعدات الأمريكية .. كتب فى المجلة الأمريكية ذاريبورتر The Reporter « يقول » فى ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ منحت تراخيص لاستيراد أقمشة قيمتها ٤ر٥ مليون دولار وذلك على الرغم من أن كل كوخ فى ريف لاوس يغزل وينسج احتياجاته من الأقمشة .

وفى نفس هذه الفترة استوردت سيارات فاخرة قيمتها ٣ر١ مليون دولار .. وذلك رغما من انه حتى سيارات الجيش ذات الأربع العجلات لا يمكن استعمالها فى لاوس فى أكثر أيام السنة .. لقد أغرقنا هذا البلد المتخلف بأموال ومنتجات لم يكن باستطاعته

أن يستوعبها وقد أدى ذلك الى ازدياد النصب والفساد فى الشئون المالية .. وممارسته علنا وفى وضح النهار » ..

وكتبت جريدة « تايمز » اليابانية فى ٥ يونيو تقول « ان هناك عجزا كبيرا فى الميزان التجارى للاوس .. وتبلغ نسبة الصادرات الى الواردات ٣ : ٩٧ .

ان كل صديق للاوس يتمنى أن تؤدى مساعدات الأمم المتحدة الى تمكين لاوس من النهوض من كبوتها الاقتصادية .. ولكن الظروف السياسية التى مرت بها البلاد قد جعلت شعب لاوس يضن بثقته على الهيئات القائمة بالاشراف على مساعدات الأمم المتحدة هناك .

ولكن شعب لاوس يعانى من صعوبات أخرى أكثر مما ذكرنا ..

فانه نظرا لضعف السلطة المركزية فى البلاد .. فان السلطة الحقيقية تصبح فى يد الهيئات المحلية فى القرى والمناطق .. ولقد كانت كراهية الشعب الشديدة لهؤلاء الحكام المحليين .. أحد أسباب اتساع نفوذ حكومة باتيت لاو ابان الحرب .. ان شعب لاوس لا يمكن أن يصدق ان أى تقدم يمكن أن يحدث طالما أن هؤلاء الحكام المحليين يجثمون فوق ظهره .. اما فى المناطق التى تحكمها « باتيت لاو » فان القرى والمراكز تديرها لجان ينتخبها كل السكان .. وكان هذا اصلاحا لا يحتاج لنفقات كبيرة .. ولكنه ربط الشعب بباتيت لاو وأخيرا وبعد سنوات طويلة قضاها الأمريكيون وهم يركزون نشاطهم فى فنتيان بدأوا يوجهون انتباههم الى السلطة المحلية وكان لديهم مشروع جديد « لاصلاح القرية » .

وفى ١ يونيو ١٩٥٩ كتب الصحفى الأمريكى الرجعى أرنست ك . لندلى .. فى مجلة نيوزويك يقول « منذ أربعة أشهر (أيام

حكومة سانانيكون) شنت الحكومة حملة لتحطيم القواعد الشيوعية فى مزارع الأرز . وكان أحد أسلحة هذه الحملة هو اصلاح الريف أما سلاحها الثانى فهو تدعيم الجهاز الحكومى ومد نفوذه حتى يصل الى القرى .. على أساس أن تنتخب كل قرية رئيسها .. وأن ينتخب كل خمسة أو ستة رؤساء من بينهم رئيس للمركز .. وأن تشرف الحكومة بدورها على هؤلاء الحكام المحليين .. وبهذا يمكن اضعاف نفوذ الشيوعيين وأعوانهم .. ثم ان الحكومة سوف تخصص أكواخا رسمية لهؤلاء الرؤساء المحليين وسوف تخصص لهم قوة مسلحة من ستة أشخاص لمساعدتهم وذلك حفظا لهيبتهم فى القرية .. »

وهكذا نرى كيف تفرض بقوة السلاح هذه الاصلاحات الأمريكية .. أما كلمة « اضعاف الشيوعيين » فان معناها الحقيقى هو شن حملة ارهاب شديدة عليهم وعلى الرؤساء الذين انتخبهم الشعب ليحل محلهم رؤساء يميلون للأمريكيين .

أما « هيبة » هؤلاء الرؤساء .. فقد كانت بحاجة الى ستة رجال مسلحين ليفرضوها على الأهالى ..

وفى هذه الفترة كانت كل خبرات القهر الوحشى الذى ارتكب ضد حركات التحرر الوطنى فى الملايو والفلبين وخلال حرب الهند الصينية والتى مازالت ترتكب فى جنوب الفيتنام .. كانت كل هذه الخبرات تتجمع لتنهال فوق رأس شعب لاوس .

لقد كان نظام السلطات المحلية (الموثوق بها) وتجميع سكان القرى فى أماكن محددة لتسهل مراقبتهم .. كانا الأسلوبين الجديدين اللذين استخدما لقهر شعب لاوس .

ولكن الى أى مدى نجحت كل هذه الاجراءات فى قهر نضال شعب لاوس ؟ .

ان الاجابة هى : انها لم تنجح على الاطلاق ..

فقد وجد شعب لاوس فى حزب نيولاو هاكست (الذى خلف حركة باتيت لاو) وجد فيه قائدا طالما اختبره فى محك النضال .. قائدا عجز الامبرياليون وكل أعوانهم فى الداخل عن أن ينالوا من صلابته .. وهكذا ظل حزب نيولاو هاكست يقود النضال المسلح .. والنضال السلمى فى آن واحد .. نضال لا يختلف عن ذلك النضال القديم الذى خاضه ضد المستعمرين الفرنسيين سوى فى أنه قد أصبح الآن أكثر تنظيما وقوة وأكثر اتساعا فهو يجمع الآن نضال الأمة كلها .. نضال يهدف الى تمسك البلاد باتفاقيات جنيف واتفاقية ڤنتيان .

ان صورة هذا النضال أكثر اشرافا بكثير من هذه الصورة التى تعكسها الصحافة الغربية .. فهى لا تعكس مطلقا القوة الحقيقية لقوات نيولاو هاكست .

ان حزب نيولاو هاكست ليس مجرد « عصابة صغيرة » ولا « عصاة معادين للأمة » كما تقول هذه الصحف .. ولكنه يمثل الحركة الوطنية كلها التى ظلت حية دائما .. مشتعلة دائما طوال الستين عاما من الحكم الفرنسى .. انه الوريث الشرعى لأول حكومة مستقلة قامت فى لاوس فى ١٩٤٥ .

أما الأمير «سوفانا فونج» .. قائد حزب «نيولاو هاكست» .. البطل الوطنى الباسل فان اسمه ظل دائما مكتوبا فى صدور حتى هؤلاء الذين يكرهونه ويحاربونه .. حتى الحكام الرجعيين .

ويحلو لبعض الكتاب الغربيين أن يقولوا ان حركة «باتيت لاو» وحزب « نيولاو هاكست » من صنع « ڤيتمنه » ان هؤلاء الأشخاص الذين لم يفيقوا بعد من هول صدمتهم فى حرب الڤيتنام مازالوا يتشبثون بالماضى حيث كانت « ڤيتمنه » ترسل

متطوعيها الى لاوس أيام حربها ضد الفرنسيين لتحرم فرنسا من حرية الحركة فى هــذه المنطقة .. لقد كان من حق فرنسا وأمريكا أن تتــدفق أسلحتهما وأموالهما .. من بعيد .. عبر آلاف الأميال .. ضد حكومة الڤيتنام .. ولكن حينما ترسل الڤيتنام جنودها عبر الحدود الى لاوس بناء على دعوة من حكومة باتيت لاو .. لتشد من أزرها فى كفاحهما المشترك .. فان ذلك يعتبر « عدوانا » صارخا .. هكذا يتغلغل المنطق الاستعمارى الى عقول البعض .

ولكن حجة خلق « ڤيتمنه » للحركة الثورية فى لاوس لا تلبث أن تتداعى اذا ما تتبعنا أحداث لاوس بعد انسحاب المتطوعين الڤيتناميين من أراضى لاوس فى سبتمبر ١٩٥٤ بناء على اتفاقيات چنيف .. فاذا ما كانت باتيت لاو تعتمد كلية أو حتى أساسا على مساعدات الڤيتناميين لانهارت تحت وطأة الضربات العنيفة التى وجهت اليهــا فى ذلك الوقت بواسطة « كاثاى » وسادته الأمريكيين . ان باتيت لاو لم تتداع تحت ثقل هذه الضربات بل على العكس لقد خرجت من هذه المحنة .. وهى أكثر قوة ..

وهكذا فان الحقيقة هى بالضبط عكس ما ذكرته الصحف البرجوازية ان « استقلالية » حركة باتيت لاو هى بالدقة التى منحتها قوتهــا فى الماضى وهى التى تمنح الآن القوة .. لحــزب نيولاو هاكست .

ان استقلالية هــذا الحزب عن القوى الاقطاعيــة فى البــلاد قد جعلت منـــه بطل الدفاع عن سياسة الحياد وعن اتفاقيات چنيف .. واليوم يتمتع حزب نيولاو هاكست بتأييـد شعبى لا يحلم به أى حزب آخر فى البلاد وعملاء الأجنبى كثيرون جدا فى لاوس .. ولــكن عليك أن تبحث عنهم فى أى مكان .. الا فى صفوف هذا الحزب .

لا جدوى مطلقا من مصارعة الحقائق الصارخة .. فالحقائق أشياء صلبة .. وهكذا فان قوة نيولاو هاكست تبدو للعيان من خلال الحقائق .. من خلال الأحداث .. تبدو قوة واضحة بحيث لا يستطيع الأعداء حيالها الا الرضوخ .

هكذا كانت الحال ١٩٥٥ .. وهكذا كانت ١٩٥٧ أثناء اتفاقيات فينتيان .. وهكذا كانت ١٩٥٨ .. وليس من شك فى أنها ستظل كذلك فى المستقبل ..

حاشية :

لقد أنهى المؤلف كتابة الفصل السابق فى أوائل أغسطس ١٩٦٠ .

وفى ٩ أغسطس استولت فرقة الباراشوت التابعة للجيش الملكى بقيادة الكابتن « كونج لى » على زمام السلطة فى فينتيان .

وقد أعلنت قيادة الثورة التى يرأسها « كونج لى » (٣٥ سنة ومن أبناء الأقلية القومية « كاها ») أعلنت فى اذاعة لها من راديو فينتيان أن هدف الانقلاب هو وضع حد للحرب الأهلية واعادة السلام للبلاد وفقا لاتفاقيات چنيف وفينتيان .

وقد اهتمت بيانات قيادة الثورة ـ التى سميت بسرعة بالانقلاب ـ اهتمت اهتماما خاصا بالتدخل الأجنبى .. فقالت فى أحد بياناتها « لقد خضنا كثيرا من المعارك بايعاز من الأجانب ولكن هذه المعارك كانت دائما وباستمرار تلتهم أرواح أبناء لاوس .. وليس الأجانب » ..

وانهارت حكومة « سومسانيس » التى كانت نتاجا لانتخابات مزيفة والتى كانت فى واقع الأمر لا تمثل أحدا انهارت كقصر من رمال .. وتألفت حكومة جديدة أكثر قيمة برئاسة الأمير

سوفانا فوما وحصلت على ثقة الجمعية الوطنية والعرش وأيضا على موافقة الدوائر الأجنبية .

وفشلت محاولة « فووى نوســافان » لتأسيس حكومة انفصالية فى جنوب لاوس فى « سافانا كاهت » (يلاحظ ان جنوب لاوس ذو أهمية خاصة بالنسبة لحلف جنوب شرقى آسيا فان جنوب لاوس يصل بين كل من جنوب الفيتنام وتايلاند فتكمل حلقة الحصار حول كمبوديا ..)

وبدأت المفاوضات بين حكومة « سوفانا فوما » و « نيولاو هاكست » وأرسلت الحكومة عدة رسائل للأمير « سافانا فونج » .

وأيا كانت نتيجة هذه الاتصالات فان مجرى الأحداث فى لاوس قد أثبتت مرة أخرى أن السيطرة الأجنبية على لاوس لن تدوم طويلا .. لقد أكد مرة أخرى فاعلية وصحة اتفاقيات جنيف واتفاقية فنتيان .

وقد أثبتت مجرى الأحداث أيضا مدى ضعف الأجنحة اليمينية فى لاوس ـ تلك الأجنحة التى ينفق عليها من أموال دافع الضرائب الأمريكى ـ .. ففى أقل من ثلاثة أشهر هرب من بين يديها الكنز الثمين .. سوفانا فونج .. وانهارت حكومتها بضربة واحدة من فرقة الباراشوت التى يزيد عدد قواتها على ٨٠٠ جندى .

ولسنا نعرف الآن هل ستعرض على بساط البحث ـ فى القريب العاجل ـ مسألة تشكيل حكومة ائتلافية تضم مندوبين لنيولا هاكست أم لا ، ولكن من المؤكد أن هذه القضية سوف تناقش ان آجلا أو عاجلا حتى يمكن التوصل فيها الى حل .

وقد نتج عن هذه الأزمة الحكومية فى لاوس أن ازداد نشاط الدبلوماسية الفرنسية هناك فان الفشل المتلاحق للدبلوماسية

الأمريكية الغبية على نطاق العالم وفى الهند الصينية بوجه خاص قد فتح الفرصة أمام فرنسا لتحاول أن تلعب من جديد دورا هاما فى الهند الصينية .

ولكن فرنسا لم تشر بكلمة واحدة الى مساعداتها لحكومة فوما ويعتقد الناس أن بريطانيا تقف الى جانب فرنسا .. وكل منهما تفضل حكومة محايدة تعطف على الغرب .. تفضلها على حكومة مثل الحكومات السابقة التى تقف بصراحة وسفور ضد الحياد . وقد أدى هذا الموقف البريطانى الفرنسى الجديد الى أن تتخذ أمريكا موقفا غريبا من تطورات الأحداث فى لاوس.. ففى الاجتماعات المتتالية لحلف جنوب شرقى آسيا وقف « ثانارات » دكتاتور تايلاند وحيدا يطالب « بعمل حاسم » ضد حكومة فومى .

وهناك انعكاسات أخرى فى السياسة الدولية للوضع فى لاوس .. مثل اعلان الاتحاد السوفيتى والصين عن تأييدهما لحكومة فوما .. والفزع المميت الذى أصاب نظام نيجودين ديم من اتباع لاوس لموقف حيادى أكثر جدية .. واقتراح الأمير سيهانوك لاعلان حياد كل من لاوس وكمبوديا .. الخ ولكننا نعتقد أن لا مجال للحديث عن هذه المسائل هنا ..

وفى نهاية سبتمبر أعلن أن مقاتلى نيولاو هاكست قد أعادوا سيطرتهم على مقاطعة « سام نيوا » .. وقد يتصور البعض أنه بسيطرة « نيولاو هاكست » على « سام نيوا » وتولى سوفانا فوما لزمام السلطة فى فنتيان فان البلاد تكون بذلك قد عادت الى ما كانت عليه منذ ست سنوات .. قبل توقيع اتفاقيات جنيف .

غير أن هذه السنوات الست قد علمت شعب لاوس دروسا مريرة .. ولسوف يقاوم بحزم أية محاولة للعودة به من جديد .. الى نفس الطريق القديم .

الفصل السادس

كمبوديا ..
بلد الأمراء والحياد
والأمريكيين الغاضبين

في الفترة ما بين ٥ ـ ٩ مايو ١٩٦٠ زار وفد يمثل حكومة الصين يرأسه شواين لاى ويضم بين أعضائه شن لى وزير الخارجية .. زار كمبوديا .

وتبادل الطرفان خطبا مليئة بالصداقة والود .. وازدانت شوارع « فينوم بنه » Phnom penh بانثريات والرايات ترحيبا بالضيوف . وحتى ساعات متأخرة من الليل كان سكان العاصمة يتجولون فى الشوارع على أمل أن يلمحوا .. ولو لمحة طيف الزوار ..

وهكذا شاهد حتى أكثر المراقبين الغربيين تشددا شاهدوا عيدا حقيقيا يحياه شعب كمبوديا .. شاهدوا ضيوفا ينزلون بالفعل على الرحب والسعة .

ان السنوات التى مضت عقب زيارة شواين لاى الأولى فى نوفمبر ١٩٥٦ قد أكدت عمق هذه الصداقة والعلاقات الودية بين كمبوديا الصغيرة .. والصين العملاقة فى الشمال ..

كيف حدث ذلك .. كيف أمكن استمرار هذه العلاقات الحسنة بين الصين الشعبية وكمبوديا .. على الرغم من هذه الحملات الامبريالية المعادية للصين والتى نجحت فى التأثير على قوى ضخمة في آسيا مثل الهند وأندونيسيا ؟ .

لقد أجاب على هذا السؤال الأمير نوردون سيهانوك قائد كمبوديا .. ذلك الرجل الشديد الصراحة والوضوح .. كتب مقالا صحفيا نشر فى أثناء زيارة الوفد الصينى للبلاد .. قال فيه

« ان شعب كمبوديا يثق فى أنه بفضل مواقف حكومة الصين الشعبية منا .. وعلى وجه الخصوص بفضل مواقف الرئيس شواين لاى والمارشال شن يى .. أمكن لكمبوديا أن تظل محافظة على استقلالها .. وأن تجابه محاولات « جاراتها » للقضاء عليها » (١) .

لم يكن هناك فى الأمر أى سر .. فهذا الترحيب الحار غير العادى الذى استقبل به شعب كمبوديا ضيوفه الصينيين فى مايو ١٩٦٠ .. كان فى رأى الأمير سيهانوك تعبيرا عن شكر هذا الشعب لذلك البلد الذى ساعده فى الحفاظ على استقلاله .. وكيانه .

هل هذه مبالغة ؟ .

لكى نجيب على هذا السؤال يجب أن نلقى نظرة فاحصة على تاريخ كمبوديا منذ اتفاقيات جنيف .

* * *

حينما عقدت اتفاقيات جنيف كانت حكومة كمبوديا تسيطر فقط على ثلثى البلاد .. وكان الباقى فى يد قوات المقاومة المسماة « كامير أساراك Kamer Issarak » ولكن هذا التقسيم لم يثبت أنه يمكن أن يكون أداة نافعة للامبريالية الأمريكية كما كان تقسيم لاوس مفيدا لها .

وقد نصت اتفاقيات جنيف على سحب جميع القوات الأجنبية من كمبوديا فورا (البعثة العسكرية الفرنسية ، والمتطوعين الفيتناميين) وأن تسرح قوات المقاومة الكمبودية فورا وأن يندمج أفرادها داخل المجتمع .. وقد أمكن انجاز هذه المهمة الصعبة والحيوية بمساعدة اللجنة الدولية .

---

(١) جريدة « الوطنى » Neak Cheat Niyum ـ ٧ مايو ١٩٦٠ .

ولكن لم يكن الأمر مجرد انهاء الصراع المسلح بين الأطراف المتنازعة فى كمبوديا .. فقد كان هذا أمرا سهلا بالقياس الى مسألة أكثر تعقيدا هى مسألة الخلافات السياسية التى نتجت عن هذا الصراع المسلح . فان أفراد قوات « كامير اساراك » المسرحين قد انتشروا ـ ليس فقط فى المناطق التى كانوا يحتلونها ـ ولكن فى كل أنحاء كمبوديا مكونين جناحا سياسيا يساريا قويا لعب دورا نشيطا شديد الأهمية . فان نشاط رجال المقاومة وبالذات ضد خطوط التموين الفرنسية المتجهة الى جبهتى شمال الفيتنام وشمال لاوس « ان هذه الهجمات قد أكسبتهم نفوذا كبيرا بين أفراد الشعب الذى مد لهم باستمرار يد المعونة فى كل أعمالهم . ووفقا لاتفاقيات جنيف تحولت الحركة المسلحة « كامير اساراك » الى منظمة سياسية تعمل فى كل أنحاء كمبوديا باسم « براشبيا شون » (جماعة الشعب) ثم ما لبثت « براشبيا شون » أن عقدت تحالفا وثيقا مع الكتلة الأساسية من الحزب الديمقراطى الذى أصبح حزب الأغلبية فى احدى الحكومتين اللتين تعاقبتا على حكم البلاد بعد اتفاقيات جنيف وقد مكن هذا التحالف من احراز القوى المؤيدة لاتفاقيات جنيف للأغلبية فى انتخابات الجمعية الوطنية التى جرت فى سبتمبر ١٩٥٥ .

وكانت كمبوديا تعانى دمارا ماليا واقتصاديا .. لقد تركها الفرنسيون بدون أية صناعة .. وقد أدت السيطرة الأجنبية وفساد الادارة ذات الأساليب الاقطاعية الى أن يصل القليل جدا من الايرادات الى خزائن الحكومة .. وكان الشعب الذى أرهقته سنوات الحرب الطوال .. يرغب فى احداث تغيير .

ولم تكن الحكومة غير متجاوبة مع الشعب .

ففى ٢ مارس ١٩٥٥ أعلن الملك نوردون ـ الذى ظل منذ ١٩٤٢ مستحوذا على سلطات الملك ورئيس الوزراء وحتى سلطة وزير

الخارجية ـ أعلن تنازله عن العرش لوالده . وكانت حجته فى ذلك « لقد أحسست أن استمرارى فى البقاء على عرش البلاد .. لن يمكننى من مساعدة الشعب على تخطى الصعوبات التى تجابهه . لهذا اتخذت قرارا نهائيا بالتنازل عن العرش وعن أبهته وسلطاته .. لكى أستطيع أن أكرس كل وقتى وجهدى وجسدى وحياتى وروحى لخدمة هذا الشعب وسعادته » .

وفى نفس الشهر قام الملك السابق المعروف حاليا باسم الأمير نوردون سيهانوك .. بزيارة لنهرو فى نيودلهى . وفى أبريل كان يشترك فى مؤتمر باندونج حيث أجرى محادثات ودية مع « شواين لاى » رئيس وزراء الصين .. « وبام ڤان دونج » رئيس وزراء ڤيتنام . وفى كل من نيودلهى وباندونج أكد سيهانوك تمسك حكومته الحازم بتطبيق اتفاقيات چنيف وتصميمها على السير فى طريق السلام والحياد ..

واذا كان هذا النشاط الذى أبداه الأمير سيهانوك على مسرح السياسة الدولية قد سبب بعض الامتعاض للدوائر الأجنبية فى كمبوديا .. الا أنه لم يزعجها على أية حال . فقد كانت كمبوديا وعلى الرغم من كل هذا الحديث عن الحياد .. كانت لا تتبادل أى تمثيل دبلوماسى مع أى بلد اشتراكى . وكانت كل المساعدات الاقتصادية التى تتلقاها كمبوديا تأتى من « أيد أمينة » فميناء (كوم بونج سوم) تبنيه فرنسا .. والطريق من العاصمة الى الميناء يبنيه الأمريكيون .

وفى ١٦ مايو ١٩٥٥ عقدت اتفاقيات مع الولايات المتحدة تعهدت الأخيرة بموجبها بالانفاق على الجيش والادارة الكمبودية . ومنحت البعثة العسكرية الأمريكية التى كانت تقوم بتدريب الجيش منحت مزيدا من السلطات .. وتدفقت الدولارات على كمبوديا ..

وبدأت حملة من الضغط الشديد ضد الجناح اليسارى فى القوى السياسية .. وترددت كلمات عن تأجيل الحكومة لاجراء الانتخابات .

وبين هتافات الغرب وترحيبه طلب الأمير سيهانوك الى كل الأحزاب السياسية أن تحل نفسها وأن تنضم الى المنظمة الوطنية الجديدة المسماة « سانجكم ريستر ينيام » (الاتحاد الاشتراكى الشعبى) . وعلى الرغم من وقوف الحزب الديمقراطى ومنظمة « براشبيا شون » بعيدا عن هذه المنظمة الجديدة الا أن عددا من الأحزاب السياسية المحافظة قد انضم اليها . ولكن الشىء الذى كان يهتم به أعضاء هذه المنظمة الجديدة هو الانتخابات .. وطالبوا بأن يقدم لهم الجهاز الادارى فى الحكومة مساعدته فى هذه الانتخابات وقد أثبتت هذه المساعدة أهميتها حينما حان موعد الانتخابات .. التى أجريت فى عجلة شديدة فى سبتمبر وحصل مرشحى « سانجكم » على كل مقاعد الجمعية الوطنية الـ ٩١ . وشكلت « سانجكم » حكومة جديدة يرأسها الأمير سيهانوك ولم يكن هناك أدنى شك فى أن الحكومة قد أسرعت باجراء هذه الانتخابات كوسيلة لتجريد القوى اليسارية من أسلحتها فى النقد . وبعد هذا النصر الانتخابى السهل .. كان صانعوا السياسة الأمريكية متأكدين أنهم سيواجهون أميرا يسهل التعامل معه .. وبالفعل فقد صحبت تهانيهم بالنجاح فى الانتخابات صحبتها المطالبة بأن « تتعقل » حكومة كمبوديا وتعلن انضمامها لحلف جنوب شرقى آسيا أو على الأقل تعلن قبولها لتلك الحماية التى يعرضها عليها الحلف بسخاء .

وكان دالاس هو أول من فاتح حكومة كمبوديا فى الانضمام للحلف ولكنه تلقى جوابا باردا .. وعندئذ أرسل السيد الوزير أخاه زعيم الجواسيس الأمريكيين آلان دالاس الى « فنوم بينه »

ووصل آلان دالاس حاملا معه الوثائق الدامغة التى تؤكد « وجود عـدوان شيوعى مرتقب » على كمبوديا ولـكنه عاد حاملا نفس الانطباع .. الرد البارد .

وقام السفير الأمريكى ماك كلنتوك بمحاولة ثالثـة وأجاب سيهانوك على هذه المحاولات فى مؤتمر صحفى عقده فى ذلك الوقت فقـــال :

« عندما أجبت السفير الأمريكى بأننا لن ندخل حلف جنوب شرقى آسيا قال لى .. « معلهش .. زى بعضه » سوف يحميكم هذا الحلف .. ولكننا رفضنا حماية هذا الحلف لنا .. ونحن لم نطلبهـا على الاطلاق أننا لا نريد أى شىء من حلف جنوب شرقى آسيا ولا من أى حلف عسكرى آخر .. »

وكان هـذا ردا قاسـيا بالفعل . وقد أدت هذه الكلمات هى وأمثالها الى تغيير سريع فى لهجة الصداقة والود الأمريكية تجاه حكومة كمبوديا ..

وبدأ السفير الأمريكى « يلاحظ » أن الموقف المعادى لحلف جنوب شرقى آسيا يهدد بالخطر المساعدات الأمريكية الاقتصادية والعسكرية لكمبوديا .. ولم يتقدم الأمريكيون خطوة واحـدة فى بناء طريق الميناء .

وعندما قام سيهانوك بزيارة للفلبين فى يناير ١٩٥٦ .. حاولت أمريكا أن تدعم نفوذ أحد عملائها « فرانسوا باروبك » فى حزب سـيهانوك ليضغط فى اتجاه الارتبـاط بحلف جنوب شرقى آسيا .. وفشلت هذه المحاولة ..

واستمر سيهانوك فى رحلته فزار اليابان ثم بكين .. وفى بكين وقع اتفاقية تجارية وأعلن قبول كمبوديا للمساعدات الاقتصادية

من الصين .. ولم يجرؤ الأمريكيون على تنفيذ تهديداتهم بقطع المعونات عن كمبوديا .. ولكنهم لجأوا الى وسائل أخرى للضغط .

فبالنسبة للسياسة العليا للبنتاجون كانت المسألة واضحة وبعد أن انحنى رجال البنتاجون على خرائطهم .. رأوا أن حياد كمبوديا سوف يخلق ثغرة خطيرة فى الجبهة المعادية للشيوعية فى جنوب شرقى آسيا .. وظلت أعينهم تحملق فى الخرائط .. وتصوروا أنهم عثروا على الحل المنشود .

فان أرض كمبوديا تقع بين أرضى بلدين تخضع حكومتيهما تماما لارادة أمريكا .. تايلاند فى الغرب والجنوب وڤيتنام الجنوبية فى الشرق .. وتايلاند عضو فى حلف جنوب شرقى آسيا .. وڤيتنام الجنوبية لا تختلف عن بقية أعضاء الحلف الا فى أنها ـ من الناحية الاسمية فقط ـ ليست عضوا فيه . وكمبوديا ليس لديها ميناء وهكذا فان حياتها الاقتصادية فى قبضة جارتيها .. وما أسهل أن تطلب أمريكا الى هذين البلدين أن تغلقا موانيهما فى وجه التجارة الكمبودية .. حتى تعود كمبوديا الى صوابها ..

واذا فشلت هذه الوسيلة فما زال فى جعبة البنتاجون أسلحة أخرى .. فان لدى كل من تايلاند وڤيتنام الجنوبية جيشا كبيرا دربته أمريكا . ولكل منهما حكومة شغوفة دائما « بأن تعتدى على بلد أجنبى » لتستطيع عن طريق هذا الصراع أن تحرف أنظار شعبها عن الأزمة الاقتصادية والقهر السياسى الذى يعانى الكثير من آثارهما .. ولدى كل من هذين البلدين أقليات كمبودية تقطن فى مناطق الحدود يمكن استخدامها فى العمل السياسى ضد حكومة كمبوديا المحايدة .. وفى تاريخ البلدان الثلاث كثير من الأشياء التى يمكن أن تخدع بها الدعاية الديماجوجية لنيجودين ديم وللدائر الحاكمة فى تايلاند شعبى بلديهما بالحديث عن

« القهر الكمبودى » تخدعهم بحيث تنسيهم أن كمبوديا .. ذات الأربعة ملايين نسمة يصعب عليها أن تهدد جنوب الڤيتنام ذات الاثنى عشر مليونا أو تايلاند ذات العشرين مليونا ..

أن تنسيهم أن قوات جيش كمبوديا تقارب عشر قوات جيش البلدين مجتمعين .. وأن سلاح جيش كمبوديا لا يساوى شيئا اذا قورن بالأسلحة التى لدى هذين البلدين .. أن تنسيهم أن حكومة كمبوديا تتبع سياسة سلمية .

هكذا رتبوا أمورهم فى البنتاجون .. وهكذا بدىء فى التنفيذ وبعد فترة قصيرة من عودة سيهانوك من بكين فى فبراير ١٩٥٩ بدأت ڤيتنام الجنوبية وتايلاند فى فرض الحصار الاقتصادى على كمبوديا .

وما لبثت قوات تايلاند أن استولت على معبد « براه ڤيهير » البوذى الموجود على الحدود بين البلدين وهو مكان لا قيمة له من الناحية الحربية ولكنه ذو قيمة وطنية عالية فى نفوس شعب كمبوديا .. اذ أنه يرجع الى عهد عظمة كمبوديا فى القرن الحادى عشر .. وقد أثار استيلاء تايلاند على « براه ڤيهير » نزاعا مازال قائما حتى الآن .. وكان بداية لسلسلة من الهجمات العسكرية من جانب قوات تايلاند على طول حدود كمبوديا الغربية أما فى الشرق فان نيجو دين ديم لم يقف مكتوف الأيدى ففى أوائل ١٩٥٦ بدأت حملة مغرضة تقول أن كمبوديا تفتح حدودنا للصين الشيوعية .. وسرعان ما تبعث هذه الحملة بغارات عسكرية على مناطق الحدود الكمبودية الشرقية والشمالية لتدعيم الحصار الاقتصادى حولها .

وبدأت أيضا حملة البنتاجون التى « تشكك » فى حياد كمبوديا .. وهذه الحملة ما زالت مستمرة حتى الآن .

ومحاولة تتبع تفاصيلها لن تكون شـــيئا مسليا بالنسبة للقارىء ..

ولكن الحقيقـــة التى لا تقبل الجدل هى أن عدوان تايلاند وڤيتنام الجنوبية كان أبعد من أن يحرز أى نجاح بل على العكس لقد زاد هــذا العــدوان من تشبث كمبوديا بسياستها المستقلة المحايدة .. لقــد لعب « القهر الأجنبى » فى حياة كمبوديا أكثر مما كان مقدرا له أن يلعب فى حياة تايلاند وجنوب الڤيتنام .

وبينما كانت هــذه الحملات المسعورة تشتد على الحدود .. كان شعب كمبوديا بقيـــادة الأمير سيهانوك يتعلم كيف يجابه العدوان .

فقد قوبل الحصار الاقتصادى بحمله واسعة فى كل أنحاء كمبوديا تدعو للاكتفاء بالمنتجات المحلية وبناء اقتصاد مستقل . ولقد صقلت التهـديدات العسكرية الجيش الـكمبودى الصـغير الباسل وجعلت منه قوة مقاتلة ذات فعالية كبيرة .

وفوق كل شىء لقد لعب عدوان تايلاند وڤيتنام الجنوبية دورا رئيســيا فى توحيـد القوى السياسية الوطنية فى كمبوديا .. لقد ســاعد العــدوان أكثر من أى شىء آخــر على تجميع القوى الوطنيـــة فى البـــلاد جنبـــا الى جنب لتدعيم سياســـة الحياد والاستقلال .. وعزل العناصر المعادية للوطن .. ان التطورات التى شهدتها اجتماعات « سانجكم » تعتبر سجلا صادقا لهذا الموقف .

وقد أدت عمليات التوحيد هذه ــ بطبيعة الحال ــ الى تقارب بين الأمـــير ســـيهانوك وحكومته من جانب وبين القوى اليسارية بزعامة « جماعة الشعب » من جانب آخر .. وقد أدى قبول أعداد ليست قليلة من هذه العناصر التقدمية تدريجيا داخل جهاز الادارة الحكومى .. أدى الى تحويل هــذا الجهاز بالتدريج الى سلاح فعال فى معركة النضال الوطنى .

وليس أدل على فشل الخطط الأمريكية فى كمبوديا من ميل حكومة كمبوديا المتزايد فى سياستها الداخلية الى تأسيس علاقات فى التطبيق العملى مع القوى اليسارية .. تلك القوى اليسارية نفسها التى كانت خطط أمريكا ترمى الى أن يمطرها الأمير سيهانوك بوابل من ضرباته .. اذا ما اقترب من حلف جنوب شرقى آسيا .

لقد كتب ويلفرد بيرشت ، « لقد دأب البعض على اتهام سيهانوك « بالشيوعية » وعلى أنه يرغب فى دفع كمبوديا فى طريق « الشيوعية » .. وهذا كلام فارغ .

ولعل سيهانوك بسبب عقليته وتفكيره كان يفضل أن يتبع فى الخارج سياسة محايدة تعطف على الغرب وفى الداخل سياسة تعبئة القوى المعادية لليسار .. ولكن السياسة الأمريكية الخالية من أى منطق قد دفعت سيهانوك الى أن يرتبط بالمعسكر الاشتراكى فى سياسته الخارجية وأن يقيم بعض الصلات بالقوى التقدمية فى سياسته الداخلية » (١) .

وجنبا الى جنب سارت الى الأمام سياسة تدعيم وحدة القوى الوطنية فى ارتباط وثيق يصبغ الحياة الاجتماعية والثقافية فى كمبوديا بصبغة ديمقراطية .

وصدرت قوانين تحدد مرتبات حكام المقاطعات ولم يعد المواطنون مطالبون بأن يركعوا أمام الوزراء .. الذين أجبروا بنص القانون على أن يفتحوا أبوابهم أمام الشعب .

وصدرت قوانين تنص على الغاء تعيين رؤساء القرى من قبل المسئولين فى المركز وأن ينتخب الرؤساء بواسطة السكان .. وكان هذا اصلاحا هاما فى مجرى النضال الوطنى .

وصدر قانون يكفل حرية الصحافة .. وبينما كانت ڤيتنام

---

(١) « مجرى المايكونج الأعلى » Mekong upotreom ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

الجنوبية تمنع الصحيفة تلو الأخرى من الصدور .. كان يصدر فى كمبوديا – وهى بلد يبلغ سكانه أقل من ٥ ملايين نسمة معظمهم أميون – ٢٧ صحيفة فى ١٩٥٧ .

وفى مجال التقدم الاجتماعى حصل العمال على أجازة سنوية مدفوعة الأجرة مدتها ١٤ يوما .. وتحصل النساء العاملات والموظفات على أجازة وضع مدتها ثمانية أسابيع .

وانتشر التعليم انتشارا كبيرا لدرجة أن الخريجين كانوا أكثر من أن تستوعبهم البلاد .

ولكننا يجب أن نذكر أنه على الرغم من اتساع ممارسة الديمقراطية بشكل عام الا أن ذلك كان مصحوبا ببعض القيود فى بعض المجالات .. فان قانون تكوين النقابات على سبيل المثال ينص على ألا تكون فى أى منطقة الا نقابة واحدة فقط وأن يكون مجلس اداراتها مكونا من موظفين حكوميين .

ولكن الحقيقة الساطعة هى أن شعب كمبوديا يتمتع الآن بحقوق ديمقراطية أكثر بكثير مما كان يتمتع به من قبل .. يتمتع بكمية من الحقوق كافية لأن تميز كمبوديا الصغيرة عن غيرها من بلدان جنوب شرقى آسيا التى اختارت السير فى طريق العالم الحر ..

وهكذا .. وفى النهاية أدت حملة الضغط الأمريكية على كمبوديا الى دفعها أكثر فأكثر الى التمسك بسياسة الحياد .

ففى ١٩٥٥ لم تكن كمبوديا تتبادل التمثيل الدبلوماسى مع أى بلد اشتراكى .

ولكن بعد عامين فقط من هذه السنة كان الأمير سيهانوك قد زار الاتحاد السوفيتى وتشيكوسلوفاكيا وبولندا .. وأسس علاقات دبلوماسية مع كل منها .. وأقام معها علاقات تجارية وحصل منها على مساعدات اقتصادية .

وسوف نرى بعد قليل كيف أن التهديد المستمر الذى توالى على كمبوديا قد دفعها الى اتخاذ خطوة هامة جدا لتدعيم حيادها وهى الاعتراف بالصين الشعبية ..

ويحاول بعض النقـــاد سيىء النية أن يصوروا أن كل شيء يجرى فى كمبوديا .. من صنع الأمير سيهانوك .. ولكن الحقيقة هى أن القوى الرئيسية التى تصون اســتقلال كمبوديا هى نفس القوى التى شنت فى الماضى حرب مقاومة ضد فرنسا .. حربا بدأت مع بداية الغزو فى القرن الثامن عشر .. ولم تهدأ الا بخروج الفرنسيين فى ١٩٥٤ هذه القوى هى .. شعب كمبوديا .

أما الأمير سيهانوك .. فهو شخص ذكى ذا نفوذ أمكن أن يعبر عن روح وأمانى شعب كمبوديا فى الاستقلال والحياد .. هذا كل ما فى الموضوع .

وقد حاول « بيرشت » أن يحدد مصدر قوة سيهانوك حينما كتب يقول .. فى كل أزمة كان سيهانوك يلتجىء للشعب .. وكان الشعب يستجيب .. وفى كل مرة كان سيهانوك يقترب أكثر فأكثر من الشعب .. وكان الشعب بدوره يقترب من سيهانوك .. » (١) .

أما اعتداءات تايلاند وجنوب الڤيتنـــام التى كانت تهدف الى تحويل حياة شعب كمبوديا الى جحيم فقد وصلت الى قمتها فى يونيو ١٩٥٨ . اذ اندفعت قوات ڤيتنام الجنوبية داخل الأراضى الكمبودية الى مسافة ١٢ ميلا .. وعندما تراجعت أقامت خط حدود جديد .. يتوغل أكثر من ميل داخل أراضى كمبوديا .. وأقاموا نقاط حراستهم على طول هذا الخط ..

وتوتر الموقف توترا خطرا .

---

(١) مجرى « المايكونج الأعلى » ص ٢٠٨ .

وطلب سيهانوك الى السفير الأمريكي « ستروم » (١) أن يتدخل للتحكيم بين البلدين ولم يكن رد ستروم مرضيا فقد قال أنه لا يستطيع عمل أى شيء خصوصا وأن حكومة ديم قد أبلغته أنها لم تقم بأى عدوان (٢) .

وقد سمح الأمير سيهانوك لنفسه بأن يسخر من اجابة السفير الأمريكي قائلا « انه يشبه رجل البوليس الذى يسأل اللص .. هل سرقت ؟ فاذا أجابه .. لا ـ اكتفى بذلك وصدق هذه الاجابة » ولكن سيهانوك لم يكتف بالسخرية .. بل تحدث الى شعبه بشكل جدى فى ٥ يوليو فى « عيد الشجرة » قائلا « اننى أدعوكم يا مواطنى الأعزاء الى التأمل فى هذا التناقض .. أننا نتلقى معونة عسكرية كى نتمكن أولا وقبل كل شيء من الحفاظ على وحدة أراضينا ، ولكننا فى هذا الوقت مطلوب منا أن نسمح بانتهاك حرمة أراضينا باستمرار فى مقابل أن نحصل على مساعدات عسكرية » .

« ولكن أى مصير ينتظرنا فى هذه الحالة ؟ » .

ان الأمة وحدها هى التى يجب أن تصدر حكمها فى هذه المسألة .. الأمة وحدها هى التى يجب أن تقرر ما اذا كان يتحتم علينا أن نستوحى سياستنا ومواقفنا من المنطق السليم .. من شرفنا كمواطنين ومن مصلحتنا وحقنا فى البقاء .. كجنس .. كشعب .. كبلد حر .. »

وقبل أن ينتهى يوليو .. كان سيهانوك يزور بكين .. ويقيم علاقات دبلوماسية مع الصين الشعبية .

---

(١) لقد طرد السفير الأمريكى السابق « ماك كلنتون » من منصبه بعد أن فشل فشلا ذريعا متواصلا فى كمبوديا ..

(٢) والحقيقة أن اللجنة الدولية قد أيدت تماما كل شكاوى كمبوديا .

ولم يمر اعتراف كمبوديا بالصين الشعبية دون رد فعل قوى من جانب أعداء كمبوديا .. فعلى الفور بدأ أعداء استقلال كمبوديا وحيادها فى تطبيق خطة يائسة هى « خطة بانجكوك » ..

وخطة بانجكوك هذه .. صنعت خصيصا على يدى « ساريت ثانارات » وكناتور تايلاند وأيدها وساعد فى تنفيذها نيجو دين ديم .

أما الثلاثى الكمبودى الذى استخدمته هذه الخطة .. فهو :

« سون نجوك ثانه » : سياسى رجعى يعيش منفيا فى تايلاند .. وعميل سابق لكل من اليابانيين والفرنسيين .

« سام سارى » نائب رئيس وزراء كمبوديا السابق طرد فى ١٩٥٧ بتهمة الفساد ثم عين سفيرا لبلاده فى لندن ثم طرد مرة أخرى بعد أن قال لممثلى الصحافة البريطانية تعليقا على اعتدائه بالضرب بالكرباج على محظية فى حالة حمل .. فى مبنى السفارة .. قال « ان هذه عقوبة عادية فى بلدى » ..

« داب شو أون » : قائد قوات جيش كمبوديا فى مناطق « سييم ريب » ، « كوم بونج توم » وهو نموذج لأحد أمراء الحرب الصينيين فى ١٩٢٠ طاغية .. مستهتر .. وجه كل همه الى الاستحواذ على السلطة .. والمال .. والأفيون .. والحريم .

ولكن كل هؤلاء الصبية المحليين سواء أكانوا تايلانديين أو ڤيتناميين أو كمبوديين كانوا عاجزين تماما عن القيام بأية خطوة لتنفيذ « خطة بانجكوك » دون الحصول على المساعدة والمساهمة النشطة من ذلك « القائد المستتر » للأوركسترا .. كما وصفه الأمير سيهانوك فى احدى خطبه .

وكانت أمريكا هى ذلك « القائد المستتر » للأوركسترا .

وكان أيزنهاور شخصيا هو الذى أقر مشروع خطة بانجكوك .

وكانت هذه الخطة ترمى الى الاطاحة بحكومة كمبوديا بالقوة المسلحة .. واغتيال سيهانوك .. والقضاء على النظام الملكى فى كمبوديا واقامة جمهورية عن طراز جمهورية ديم . هذا هو الحد الأقصى المطلوب تنفيذه ..

أما الحد الأدنى فهو اعلان حكومة كمبودية « حرة » تسيطر على مقاطعات « باتام بانج » ، سيام ريب (على حدود تايلاند) والمناطق الوسطى « كوم بونج توم » ومقاطعتى « ستنج ترنج » و « كرايتى » (على حدود ڤيتنام الجنوبية) .. وكان نجاح خطة الحد الأدنى هذه .. يكفل لأمريكا ممرا عبر الأراضى الكمبودية بين تايلاند وڤيتنام الجنوبية .. ويكفل أيضا اصابة حياد كمبوديا بالشلل .. والتمهيد لقيام حرب أهلية ..

وسواء نجحت خطة الحد الأدنى .. أو خطة الحد الأقصى .. فان « سون نجوك ثانه » سوف يعين رئيسا للحكومة الكمبودية الجديدة .

ويعين « سام سارى » رئيسا للوزراة و « داب شو أون » وزيرا للدفاع .

والآن لنر قصة بدء .. وقصة فشل خطة بانجكوك لنر حماية حلف جنوب شرقى آسيا فى التطبيق .

فى سبتمبر ١٩٥٨ عقد مجلس حلف جنوب شرقى آسيا اجتماعا فى بانجكوك وقد اجتمع فى جو ازداد فيه التوتر على شواطىء الصين وتايوان وبعد مناقشات حامية خذل حلفاء أمريكا فى الحلف .. اقتراحا أمريكيا ـ دافع عنه قائد القوات الأمريكية فى الباسيفيك بحرارة ـ ويقضى بأن تمتد حماية حلف جنوب شرقى آسيا حتى تشمل تايوان .

ثم انتقل المجلس الى بحث النقطة الثانية فى جدول الأعمال .. وكان الأعضاء أكثر اتحادا فيما بينهم عند بحث هذه النقطة وهى « ماذا يجب عمله تجاه اعتراف كمبوديا بالصين الشعبية ؟ » .

وبحثت الخطط ثم أحيلت الى سلطات تايلاند لادخال بعض التحسينات عليها .. وفى ديسمبر دعى « ثانارات » دكتاتور تايلاند الى اجتماع لاعادة بحث قرارات مجلس الحلف .

وحضر الاجتماع « ثانارات » وعدد من جنرالات جيشه وثلاثة من جنرالات ڤيتنام الجنوبية ومن بينهم « نيجو ترانج هيو » ممثل ديم فى عاصمة كمبوديا والذى ذهب الى تايلاند بحجة زيارة زوجته التى تعالج هناك — وحضر أيضا عدد من الخبراء الأمريكيين . وكان الاجتماع يتسم بروح عملية عالية .. وأقر خطة من ثلاث نقاط .

١ — اقامة حزب معارض من كمبوديا يهاجم سياسة سيهانوك ويلقى ظلالا من الشك حولها ويعمل على تقسيم وحدة البلاد .

٢ — شن عمليات مشتركة هدفها زعزعة النظام والأمن والبلاد .. وتتبع فى ذلك عدة وسائل أهمها القيام بعمليات خطف للسكان وخصوصا للأطفال .. عصابات مسلحة للسرقة .. والاغتصاب ..

٣ — تنظيم مجموعات مسلحة داخل وخارج كمبوديا تكون على استعداد للعمل فى اللحظة المناسبة للاستيلاء على السلطة .

وقسمت المسئوليات كالآتى : « سون نجوك ثانه » كلف بتشكيل مجموعات مسلحة تعمل على طول الحدود الكمبودية — التايلاندية ووضع تحت رئاسته ضابطين من القوات المسلحة التايلاندية .. وتحت تصرفه مبلغ ١٫٢٠٠٫٠٠٠ دولار أمريكى .

أما رجال نيجو دين ديم فقد كلفوا بتنظيم قوات مسلحة من بين الأقليات الكمبودية الموجودة فى ڤيتنام الجنوبية لتعمل على الحدود الكمبودية ـ الڤيتنامية . وكلفوا أيضا باقامة اتصال مع مقاطعتى « سام سارى » و « داب شو أون » .. وكلفت بهذا العمل مفوضية ديم فى كمبوديا ..

ولم يتأخر تنفيذ خطة بانجكوك ...

فقبل أن ينتهى ديسمبر ١٩٥٨ توتر الوضع الداخلى فى كمبوديا بشدة بشكل مفاجىء وتتابعت عمليات الاختطاف .. والسرقة بالاكراه والاغتصاب وفى كل يوم كان يختطف كثير من الاطفال ـ أطفال المسئولين فى الحكومة الكمبودية ـ وحتى أبناء الفلاحين الذين يعملون فى موسم الحصاد .. فان هذه العصابات لم تكن بحاجة لأن تهتم بأبناء الأغنياء أو القادرين على دفع الاتاوة وسرعان ما أصبح الناس يخشون الابتعاد عن منازلهم .. وفى الليل كان الناس يحكمون غلق أبوابهم ولا يجرؤن على مغادرة بيوتهم .. وحتى فى وضح النهار كانوا يتجنبون السير فى الأماكن المنعزلة .

وفى يناير ١٩٥٩ وجه « سام سارى » رسالة الى الأمير سيهانوك يطلب فيها السماح له بتأليف حزب سياسى معارض .. وأعلن « سام سارى » فى منشورات وزعت بكثرة فى جميع أنحاء كمبوديا أن هذا الحزب الجديد « يقضى » على الامتيازات التى يتوارثها الأبناء (مثل حقوق الملك) وانه سوف ينهج سياسة الحياد والصداقة تجاه البلدان التى تتبع نفس السياسة والتى لها علاقات قديمة مع كمبوديا (يقصد سياسة حياد تعطف على الغرب) .

وعلى الحدود الكمبودية كان « سون نجوك ثانه » يقود ثلاثة فصائل مهددا مقاطعة « باتام بانج » .. وفى جنوب الڤيتنام كانت

العصابات المكونة من الأقليات الكمبودية هناك تحتشد قرب الحدود الكمبودية فى « ثاى نينه » ، « كبين توونج » . وعلى أرض كمبوديا نفسها كانت تحت قيادة « داب شو أون » قوات ليست بالقليلة فى المقاطعتين اللتين يرأسهما .. (سيام ريب ، كوم بونج توم) وفى العاصمة « فنوم بينه » كان لداب شو أون رجاله فى كل مكان حتى فى حرس الأمير سيهانوك ..

وبدا ان كل شىء جاهزا تماما .. لتضرب « خطة بانجكوك » ضربتها .. لقد بدا ذلك .. ولكن ما أبعد الحلم عن الحقيقة .. ففى ١٣ يناير .. وأمام ألفى مواطن وقف سيهانوك ليعلن على العالم أجمع أسرار خطة بانجكوك ..

وقف ليقول « ان هذه الخطة .. قد رسمها چنرال يرأس مملكة جارة لنا مع ممثلى جمهورية متاخمة لنا أيضا .. هم و « سون نجوك ثانه » ومضى قائلا « وكما أن طيور الليل الكاسرة يصيبها العمى حينما يسلط الصياد ضوءه على عينيها .. فان هذه المؤامرات التى تحاك فى الظلام .. ستصبح لا قيمة لها بعد أن سلط الضوء على أسرارها » . ولقد كان تشبيها صائبا ..

وفى ٢٠ يناير شنت قوات جيش كمبوديا وقوات الحرس الوطنى هجوما خاطفا قبضت فيه على معظم أتباع « سام سارى » أما سام سارى نفسه فقد تمكن من الهرب الى سايجون بمساعدة بعض رجال البوليس وتحت حماية السفارة الأمريكية ..

ابدأ خطوة .. وسوف تصل الى الحقيقة .. وهكذا كانت حملات القبض التى جرت فى ٢٠ يناير بداية للكشف عن بعض العصابات التى كانت تبث الفزع فى أنحاء البلاد فى الأسابيع الماضية .. وتجمعت اعترافات المقبوض عليهم والوثائق والمقالات التى ضبطت فى أوكارهم تجمعت كلها لتشير الى داب شو أون .

وبقرار سام سارى انهارت خطة الحد الأقصى .. ولم يبق سوى تطبيق خطة الحد الأدنى .

وكان هدف المتآمرين هو المحافظة على قوات داب شو أون لأنها كانت القوى الوحيدة الباقية ـ ذات القيمة ـ فى داخل البلاد .. وكان عليهم أن يحتفظوا بأى ثمن بمقاطعتى «سيام ريب» و « كوم بونج توم » بعيدا عن سيطرة الحكومة .. وبما أن الجمهورية لن يمكن اعلانها من « فنوم بينه » فانها سوف تعلن من مقر قيادة « داب شو أون » فى « سيام ريب » .. واذا ما تقدمت قوات « سون نيجوك ثنه » من تايلاند وقوات « سام سارى » من جنوب الڤيتنام يصبح الطريق مفتوحا من الشرق الى الغرب .. ثم تأتى تطورات أخرى .

وهكذا بدأت سلسلة ـ مما يمكن أن نسميه ـ أغرب زيارات السياح الى أطلال « آنجكور وات » فهى تقع على بعد عدة أميال فقط من مقر قيادة « داب شو أون » فى « سيام ريب » .. وما أسهل على هؤلاء الذين يريدون أن يلتقوا بداب شو أون لتنظيم المؤامرة أن يعلنوا أنهم قد أتوا الى هذا المكان ليستمتعوا بجمال أطلال « انجكور وات » .

وكان أول زائر لداب شو أون بعد قرار سام سارى هو « نيجو ترونج هيو » ممثل ديم فى « فنوم بينه » .. ثم غادر المكان الى سايجون بحجة حضور الاحتفال بالعيد السنوى الذى يقام تكريما لديم .. ولكنه فى حقيقة الأمر سافر الى هونج كونج ومن هناك أرسل الى « داب » أجهزة للارسال .. وذهب ..

وفى ٧ فبراير هبطت طائرتين ڤيتناميتين ـ من طائرات ديم المدنية ـ فى سيام ريب .. وهبط منها « تاجران » من سايجون يتسميان بأسماء صينية قحة .. ويحملان أمتعة كثيرة .. وكان

هذان « التاجران » فى حقيقة الأمر . اثنين من الفنيين فى شئون الراديو من جنوب الفيتنام .. أما أمتعتهما الضخمة التى كان مكتوبا عليها من الخارج « أدوات تصوير .. شركة كام وا فيلم . هونج كونج » فقد كانت تحتوى فى حقيقة الأمر على « عدة الشغل » أجهزة ارسال واستقبال .

ولم يكد داب شو أون يستقبل هذين الشخصين وينقلهما بأمتعتهما الى « ڤلته » الخاصة .. حتى تلقى ــ فى نفس اليوم ــ برقية تخبره بوصول الأدميرال هارى . د . فليت ــ قائد القوات المسلحة فى الباسيفيك ــ شخصيا الى سيام ريب .

وبعد أسبوع وصل أيضا الجنرال الأمريكى لاوتون . ج كولتز .. أبو جيش ڤيتنام الجنوبية .. والخبير فى شئون الهند الصينية . ثم وصل الكولونيل « لاند سوال » الضابط فى المخابرات الأمريكية .. وأحد الشخصيات الهامة فى تاريخ الهند الصينية المعاصر .. ثم وصل الأدميرال « هوب دور » قائد الأسطول الأمريكى فى الباسيفيك .

وقد أثبتت بعض الرسائل التى ضبطتها سلطات كمبوديا فيما بعد أن هذا السيل من الزيارات .. كان يستهدف الاتفاق النهائى ووضع اللمسات النهائية قبل أن يبدأ فى تنفيذ خطة الحد الأدنى .. ان المثل القديم الذى يقول « ان المجرم يحوم دائما حول مكان جريمته » قد تأكد تماما بزيارة الامبرياليين هذه .. انها حقيقة تاريخية تكررت أكثر من مرة منذ ١٩٥٠ أيام حرب كوريا .. لقد أثبت المسئولون الأمريكيون أنهم لا يمكنهم الا أن يحوموا دائما حول مكان جريمتهم .. والتفسير الوحيد لذلك هو أن السادة الأجانب لا يثقون فى حسن تدبير الأتباع المحليين .. ولهذا يتحتم أن يضع « الاخوة الكبار » اللمسات الأخيرة بأيديهم هم .

وعلى أية حال فان الأدميرال فليت وزملاءه من السياح قد وجدوا أن الثكنات قد أعدت فعلا لاستقبال ألف مقاتل من قوات « سون نيجوك ثنه » الذين تجمعوا بسرعة فى « سام رنج » قرب حدود تايلاند .. ولقد أبلغوا أيضا أن « التاجرين » قد أنجزا عملهما بسرعة فى تركيب محطة الارسال فى الأدغال القريبة من « انجكور ثوم » .. على بعد ثمانية أميال من « سيام ريب » .. وعلى طول الطريق الموصل من «كوم بونج ثوم» و « باتام بانج » .. رصدت العيون لتراقب تحركات الجيش الملكى ..

وبدا أن كل شىء على أهبة الاستعداد .. وبدا أن الزائرين القادمين عبر الباسيفيك قد غادروا المكان وهم راضون تماما عن الاستعدادات ..

ولكن المتآمرين المحليين والسادة الأمريكيين قد نسوا أن يضعوا شيئين فى اعتبارهم ..

أولهما .. أن حكومة كمبوديا لم تكن غافلة على الاطلاق عن خطة الحد الأدنى ولكنها كانت تترقب البدء فى تنفيذها .. وثانيهما .. أن الشعب كان يكره « داب شو أون » كراهية شديدة .. فقد عانى من بطشه سنين طويلة .. وكثيرون ممن كان يثق بهم .. تخلوا عنه فى أول الطريق .

وفى ٢١ فبراير تحركت الحكومة الكمبودية .. فغادرت قوات كبيرة من الجيش الكمبودى تحت قيادة الجنرال « لون نول » غادرت العاصمة .. وكان هدفها القبض على « داب شو أون » . وكانت العيون التى رصدها داب شو أون نفسه على طول الطريق لتراقب تحركات القوات الحكومية .. هى التى أرشدت ــ على طول الطريق أيضا ــ القوات الملكية .. وكانت هذه العيون هى

التى مكنت القوات الحكومية من أن تصل الى « سيام ريب » فى ٢٢ فبراير دون أن تطلق رصاصة واحدة .

وكان داب شو أون فى حديقة منزله مرتديا قميص أسبور وسارونج (١) يشرف بنفسه على زراعة بعض أحواض الورد .. عندما وصلت القوات الحكومية .. فسارع الى الفرار هو وثلاثة من حراسه .. الى احدى القرى المجاورة .. آملا أن يجد هناك من يعرفه .. ومن يساعده ووجد هناك فعلا من يعرفه جيدا ويعرف أنه هارب .. ويعرف سبب هربه .. وجد من يطلق عليه رصاصة .. ومات بعد بضع ساعات ..

وماتت خطة بانجكوك .. سواء بحديها الأقصى أو الأدنى بموت داب شو أون .

وفى ٧ مارس ١٩٥٩ أى بعد أسبوعين من هذه الحملة أعطى سيهانوك هذه التفاصيل للصحفيين : « عندما احتلت القوات الملكية ڤيلا داب شو أون قبضت هناك على اثنين من الفنيين فى أعمال الراديو .. الذين دخلوا كمبوديا بطريقة غير قانونية وبجوازات سفر زودتهم بها سلطات ڤيتنام الجنوبية ولكنها تفتقد الى ڤيزا لدخول كمبوديا وليس عليها ختم مطار « سيام ريب » الذى كان يشرف عليه بوليس شو أون .. وقد ثبت أن هذين الرجلين قد أحضرا معهما ستة صناديق (كما يتضح من بيان حمولة الطائرة) وقد اعترفا بأن هذه الصناديق كانت تحتوى على جهازى ارسال واستقبال للميدان ومحطة اذاعة قوية للميدان .. وقد ضبطت كل هذه الأجهزة فى ڤيلا شو أون » « وقد ضبطنا كراسة للتقارير وبها تفاصيل للشفرة المستخدمة » وهى تثبت بما لا يدع مجالا للشك وجود اتصالات بين شو أون

---

(١) السارونج لباس وطنى يلف على الوسط .

وبين ڤيتنام الجنوبية وتايلاند .. وفى هذه الكراسة حديث عن « المكافأة » وعن المقابلات التى يجب أن تجرى فى سرية تامة .. وعن الأساليب التى يتعين اتباعها فى حالة استيلاء العدو على جهاز الارسال .. وعن « الفرق المسلحة » التى تحت قيادة سون نجوك ثنه .. الخ .

« وفى أكياس جديدة وجدنا ٢٧٠ كيلوجراما من الذهب .. كانت ثمن الخيانة » .

وفى ٢٦ مارس سـدت الضربة القاضـية Coup de grace الى خطة بانجكوك عندما زار الأمير سيهانوك بنفسه يصحبه ٢٢ من الممثلين الدبلوماسيين من بينهم سفراء الاتحاد السوڤيتى وأمريكا والصين الشعبية وبريطانيا وفرنسا .. وممثل اللجنة الدولية .. عندما زاروا ڤيلا « داب شو أون » ..

ولم يكن السفير الأمريكى وحـده هـو الذى لاحـظ أن كل المعروضات ابتداء من أجهزة الراديو داخل الڤيلا .. الى الأسلحة المكونة فى أكوام كبيرة خارج الڤيلا .. كانت كلها تحمل علامة كتب عليها « صنع فى الولايات المتحدة » .

ولكى تكون الأدلة دامغـة .. بحيث لا يمكن للأمريكيين أن ينكروها كانت هناك مفاجأة أعدها منظمو هذا المهرجان .. كانت هناك رسالة شخصية عثر عليها بين أوراق « داب شو أون » الخاصـة .. رسالة تؤكد للمرحوم داب شـو أون أن الولايات المتحدة سوف تقدم له كل المساعدات الممكنة من أجل الاطاحة بالأمير سـيهانوك .. والقضـاء على سياسة الحياد .. وكانت الرسالة تحمل توقيعا هو .. دوايت ايزنهاور .

والسؤال الحائر الآن هو كيف اكتشفت أسرار خطة بانجكوك ؟ من أين حصلت كمبوديا على تلك المعلومات التى أعلنهـا الأمـير

سيهانوك فى خطابه الذى ألقاه فى ١٣ يناير .. والذى أدى الى قرار سام سارى والى بداية الاجهاز على الخطة بأكملها ..

والاجابة تكمن فى الحالة التى وصلت اليها ــ فى ذلك الوقت ــ « وحدة الدول الغربية » ..

ففى ٧ مارس قال سيهانوك فى مقابلة صحفية .. ان حكومة كمبوديا أبلغت بأسرار المؤامرة .. « من حكومة غربية صديقة .. لا أستطيع أن أذكر اسمها » .

وسأل الصحفى « دولة غربية صديقة ؟ هل يمكن أن تكون أمريكا ؟ » .

وأجاب سيهانوك فى أسف « أنا لا أستطيع بطبيعة الحال أن أقول لك اسم هذه الحكومة التى كشفت لنا أسرار المؤامرة ولكن بامكانى أن أقول من الذى لم يقل لنا .. فبالرغم من أن لأصدقائنا الأمريكيين جهاز مخابراتهم القوى ووسائلهم المختلفة التى تكفل لهم كافة التسهيلات من كل الأنواع فى أراضى جيراننا سواء فى الشرق أو الغرب (فيتنام الجنوبية وتايلاند) فانهم قد اعتقدوا أنه ليس ضروريا أن يحذرونا من هذه المؤامرة .. اذ ليس من المحتمل أن تكون أمريكا قد فاتها أن تعلم بأسرارها ..

وكان جوابا دبلوماسيا من الدرجة الأولى ..

ولكن الذى لم يستطع الأمير سيهانوك أن يقوله صراحة كان يتردد على ألسنة الناس فى كل بارات وفى كل شوارع « فنوم بينه » فى تلك الأيام المجيدة أيام قهر خطة بانجكوك ..

لقد كانت فرنسا .. وهى دولة ذات مصالح اقتصادية هامة فى كمبوديا لا ترغب على الاطلاق فى أن ترى كمبوديا خاضعة تماما للسيطرة الأمريكية .. لا ترغب على الاطلاق فى أن ترى كمبوديا

يحكمها سون نيجوك ثنة .. مثلما يحكم ديم ڤيتنام الجنوبية .. ولم تكن بريطانيا هى الأخرى براغبة فى أن ترى ذلك .

* * *

ولم تكن هزيمة خطة بانجكوك كافيــة لأن يكف أعداء كمبوديا عن التآمر عليها .. كل ما هناك أنهم غيروا من تاكتيكاتهم ..

وقد عكس موقف أمريكا من بناء طريق الميناء هذه الحقيقة بوضوح .. لقد كان مفروضا أن ينتهى منذ سنوات طويلة .. ولكنه لم يتم حتى اكتشاف خطــة بانجكوك فى أوائل ١٩٥٩ . وكثيرا ما كان الرسميون الأمريكيون الصغار يرددون « لماذا نبنى طريقا .. تنقل عليــه كمبوديا مطاطها الى الصين الشيوعية ؟ » وكانت هــذه التصريحات غير الرسمية تعبيرا حقيقيا عن النوايا الرسمية للولايات المتحدة ..

ويعلم الناس فى الهند الصينية .. أن سيهانوك قد أرسل عقب دحر خطة بانجكوك .. رسالة شخصية الى الرئيس أيزنهاور يطلب منه تفسيرا لوجود رسالة موقعة باسمه بين أوراق «داب شو أون» وتريث أيزنهاور فى الرد .. ثم بدأ نشاط ملحوظ فى بناء طريق الميناء .. واختفت العقبات والصعاب التى كانت تعترض طريقه .. بفعل ساحر واستمر العمل بنشاط ملحوظ حتى كان الطريق معدا للافتتاح فى ٢٢ يوليو .. وقبل موعد الافتتاح ب ٤٨ ساعة فقط وصل رد الرئيس أيزنهاور الى « فنوم بينه » وكان ردا مليئا بالاعتذار .. عن « سوء الفهم » الذى حدث فى الماضى ومليئا بالتأكيدات عن صداقة وثيقة فى المستقبل ومع هذه الرسالة وصل وزير الداخلية الأمريكى مستر فريد سيتون ليحضر حفل افتتاح الطريق كممثل شخصى لرئيس الولايات المتحدة ..

ووقف سيهانوك فى ٢٢ يوليو فى حفل افتتاح الطريق ليقدم

بعض التفاصيل .. عن هـذا الطريق .. « ان طوله ٢١٤ كم وعرضه ١٢ مترا .. وله جانبان معبدان يجعلان من عرضه الكلى ٤٠ مترا » وقال الأمير « ليس فى هذا الطريق منعطفات .. انه يمضى مستقيما .. أرجو أن تمضى الصداقة بين بلدينا مستقيمة .. مثل هذا الطريق .. »

ويقسم المراقبون الدقيقو الملاحظة .. أن المستر سيتون قد تشاغل طويلا بالنظر الى أظافره .. عندما قال سيهانوك هذه الكلمات ..

لقد كان بناء هـذا الطريق جرعة مرة تجرعتها السياسة الأمريكية .. التى لم تكن تريد بناءه لأن كمبوديا **تتاجر** مع الصين ولكنها أجبرت على بنائه بعد أن **اعترفت** كمبوديا بالصين .

ولكن اذا كان الأمريكيون قد اضطروا فى كمبوديا الى أن يتظاهروا بالتراجع .. غير أن ذلك لم يكن ضروريا بالنسبة لصنائعهم فى كمبوديا .. ففى ٣١ أغسطس .. وبعد خمسة أسابيع فقط من تلك الخطب الممتعة التى تبودلت فى حفل افتتاح طريق الميناء .. وصل الى القصر الملكى طرد معنون باسم الملكة .. وكان يحمل طابع بريد من هونج كونج .. وعندما فتح الطرد .. كان هناك انفجار شديد وقتل أمير طفل .. وبعض الخدم .. فقد كان الطرد يحتوى على قنبلة زمنية .

وتحركت السلطات بسرعة .. وقام موظفو القصر بالقبض على كل الذين كانوا فى ساحات القصر ساعة وصول الطرد .. وكان من بينهم بعض أقارب « سام سارى » وعندما استجوبوا .. اعترفوا بأن سام سارى هو الذى أرسل الطرد .. وأنه طلب منهم أن يذهبوا الى القصر فى هذا الوقت حتى يرسلوا له تقارير دقيقة عن نتائج تدبيره .

ووقف سيهانوك ليتحدث الى الجماهير بعد عدة أيام من الانفجار .. فوصف القنبلة الزمنية بأنها .. « شيء لا يمكن صناعته الا فى بلد ذات صناعة متطورة جدا » .. ولم ترصد أية جائزة لمن يخمن اسم البلد الصناعى المتقدم الذى كان يشير اليه الأمير .. فلم يكن هناك الا القليل من الشك فى أن القنبلة قد وقت ارسالها بحيث يخدم أهداف الولايات المتحدة فى الهند الصينية .. فقد أرسلت فى وقت كان التوتر فى هذه المنطقة قد بلغ مداه .. حيث كانت الحرب تشتعل فى لاوس .. لقد وقتت هذه القنبلة ــ فى رأى بعض المراقبين ــ بحيث ترهب الحكومة الكمبودية وتشلها عن اتخاذ موقف معين من الأزمة اللاوسية .. ولكنها أيضا فشلت فى تحقيق ذلك فطوال الأزمة اللاوسية وقفت كمبوديا بثبات من أجل احياء اللجنة الدولية فى لاوس .. وهو مطلب يعتبر لعنة بالنسبة للأمريكيين .

ثم ارتبط اسم « سام سارى » ــ العميل الأمريكى النشيط ــ بفضيحة أخرى فى أوائل ١٩٦٠ . فقد نشرت صحيفة هندية فى يناير ١٩٦٠ صورة فوتوستاتية لخطاب أرسله سام سارى الى « أدموند كلودج » المستشار السياسى فى سفارة أمريكا فى « فنوم بينه » ..

والخطاب مؤرخ فى ٣ سبتمبر ١٩٥٩ .. أى بعد ثلاثة أيام فقط من مؤامرة القنبلة الزمنية التى فشلت فى تحقيق هدفها الأساسى وهو قتل الملك والملكة .. وهو يأسف فى رسالته على ما أسماه « فشل ٣١ أغسطس » ولكنه يستمر فى الاصرار على أن « موقفا حاسما سوف يمكننا من تحقيق أهدافنا » وتمضى الرسالة قائلة « اننى متفق تماما مع رأى صاحب السعادة السفير « مستر وليام ترامبل » الذى أبلغتمونى اياه واننى معتمد تماما

على التعاون معه وعلى مساعداته لى » (ومستر ترامبل هو سفير أمريكا فى كمبوديا بعد مستر ستروم) .

وفور نشر هذه الرسالة فى الهند .. أرسل الوزير الأمريكى هيرتر رسالة شخصية الى الأمير سيهانوك يحذره فيها من أن اعادة نشر هذا الخطاب فى كمبوديا سوف يؤدى الى قيام أزمة خطيرة فى العلاقات بين كمبوديا وأمريكا .

ويبدو أن الساسة الأمريكيين لم يتعلموا مطلقا من دروس الماضى .. لم يتعلموا أن تهديداتهم التى استمرت تتوالى عدة سنوات على كمبوديا .. قد استمرت أيضا ترتد فى كل مرة الى نحورهم .. وهكذا كان رد سيهانوك على رسالة هيرتر هو السماح لصحافة كمبوديا لا بنشر خطاب سام سارى فقط ولكن أيضا بنشر رسالة هيرتر ..

ولكن يبدو أن « سام سارى » قد ارتكب من الأخطاء أكثر مما يجب .. لدرجة أن متحدثا باسم الولايات المتحدة قد أعلن رسميا نهاية هذه الصداقة الجميلة بأن وصف « سام سارى » بأنه » سياسى سابق .. موتور ولا يمكن الثقة به على الاطلاق .. » والزمن وحده كفيل بأن يظهر مدى صدق هذا الموقف من « سام سارى » .. ولكن الشىء المؤكد هو أن « سام سارى » شوهد فى نفس هذا الشهر فى لاوس يبحث هناك عما أسماه « ملجأ سياسيا » ولكن طلبه هذا قد قوبل بالرفض .. ثم عاد لجنوب الفيتنام ليمارس نفس عمله القديم وهو تجميع ما يسميه قوات « كمبوديا الحرة » ليحارب بها وطنه .. ثم توفى « سيراماريت Siramarit » ملك كمبوديا فى ٣ أبريل ١٩٦٠ .. وبرزت مشكلة من الذى يتولى العرش .. لقد ظل الأمريكيون سنوات طويلة وهم يحاولون اشعال نيران الخلاف بين فرعى العائلة المالكة ، فرع

« نوردوم » .. وهو يؤيد سيهانوك .. وفرع سيسوواث Sisowath الذى يساند الملكة والدة سيهانوك وقد أصبح الأمير الموالى للغرب مونيريت Monireth (من فرع سيسوواث) والذى تخطاه الفرنسيون فى ١٩٤١ عندما عينوا سيهانوك ملكا .. اصبح أمل الأمريكيين وكان كل أعداء استقلال كمبوديا يأملون فى أن تنقسم البلاد فى صراع مرير طويل الأمد بعد وفاة الملك « سيراماريت » ولكن سيهانوك .. السريع الحركة .. والمناور البارع .. سحب البساط من تحت أرجل منافسيه .. ففى أوائل يونيو .. انطلقت المظاهرات الصاخبة .. تطالب سيهانوك بان يتولى مهام رئيس الدولة وأجرى تعديل سريع فى الدستور .. ليجعل ذلك الأمر ممكنا .. وقبل أن ينتهى الشهر كان سيهانوك يقسم اليمين الدستورية أمام برلمان أجرى انتخابه من جديد . وفى هذا الاحتفال أقسم سيهانوك يمين الاخلاص للعرش .. وطلب السماح له بأن يستمر رئيسا لمنظمة « سانج كم » وأن يستمر فى المساهمة فى حركة « العمل اليدوى » للمؤسسات الحكومية التى كان قد دعى اليها عندما كان رئيسا للوزراء . ولم يختاروا أى ملك جديد .. ولكن تولى مهام العرش مجلس للوصاية يرأسه الأمير « مونيريث » .

* * *

ولا شك أن الخطر الداهم الذى يواجه كمبوديا هو الوضع الاقتصادى فيها .. وذلك اذا ما غضضنا النظر عن المحاولات المستمرة لشن عدوان عليها على طراز العدوان على جواتيمالا .. ينظمه ويدبر له حتى الآن « ينجوك تانه » و « سام سارى » .. اذ أن قبضة الامبريالية الفرنسية مازالت قوية على اقتصاديات البلاد .. وخاصة فيما يتعلق بصادرات كمبوديا الرئيسية .. الأرز والمطاط .. والنفوذ الأمريكى هو الآخر لا يستهان به ..

وخصوصا فى مجال التجارة والبنوك .. فقد اشترى الأمريكيون المؤسستين التجاريتين الضخمتين فى كمبوديا دينيس اخوان Denis Fréres ، بوانسار ڤيرا Painsard Vyrt وتستثمر أمريكا رؤوس أموالها فى كل البنوك الكمبودية .. وتعمل أمريكا بشكل أساسى على تقوية طبقة من الكومبرادور الكمبوديين بهدف خلق قاعدة اجتماعية تخدم السياسة الأمريكية فى البلاد . ثم أن سيطرة أمريكا على اقتصاديات البلاد تمكنها من أن توجه هذه الاقتصاديات ضد مصالح كمبوديا .. عندما تحتدم الأزمة ..

وقد أعطيت خطة السنتين ٥٧ – ١٩٥٨ صورة حقيقية للمشاكل الاقتصادية التى تواجه كمبوديا .. وقد جرى تنفيذ هذه الخطة تحت ستار « لا استقلال سياسى بدون استقلال اقتصادى » وكانت الخطة تهدف الى زيادة الانتاج الزراعى .. وبناء أعمال للرى .. وبناء مؤسسات صناعية وتعزيز شبكة المواصلات . وقد طلب الى الصين أن تساهم فى بناء المصانع .. والى الاتحاد السوڤيتى أن يقدم الخبراء وأن يضع خططا لتصنيع البلاد .. وقد طلب الى الولايات المتحدة أن تحدد ماذا يمكن أن تقدمه من مساعدات لانجاز هذه الخطة .. ولكن الأمريكيين والفرنسيين وهم يمثلون الجانب الأكثر قوة .. والأكثر سيطرة على اقتصاديات البلاد .. تمكنوا من لوى عنق هذه الخطة وتحويلها الى مجرد انشاء للطرق وتدعيم لشبكة المواصلات . وأسرع العمل فى انشاء الطرق ذات الأهداف الحربية .. أما المصانع الصينية فقد أقيمت عقبات لا حصر لها فى وجهها .

ووجهت خطة زيادة الانتاج الزراعى هى الأخرى بعقبات كثيرة بعضها أقامته القوى الأجنبية وأغلبها بسبب طبيعة البناء الاجتماعى للبلاد .

لقد دعت الخطة الى تأسيس تعاونيات حكومية تقدم السلفيات وتبيع السلع الضرورية للفلاحين . ولكن النسبة العالية التى حصلت عليها العناصر الاقطاعية المتعفنة فى مجالس ادارة هذه الجمعيات قد قامت هذه الجمعيات فى طريق ملىء بالعقبات ولم تعط القروض لهؤلاء الذين يحتاجونها حقيقة ولكنها منحت الاقطاعيين وأغنياء الفلاحين .. وتفشى الفساد وسوء النظام فى هذه الجمعيات .. الأمر الذى أعاد الى الأذهان محاولات الاصلاح التى قام بها د . صن يات . صن فى الصين .. حيث تحطمت هذه المحاولات التعاونية على صخرة ادارة الحكام الاقطاعيين لها .

وعلى الرغم من تأسيس آلاف من المؤسسات الحرفية والصناعية الصغيرة .. الا أنها كثيرا ما تسحق تحت وطأة منافسة السلع الأمريكية واليابانية المستوردة .

ولكن وعلى الرغم من كل هذه العقبات الداخلية والخارجية فقد أمكن احراز بعض النجاحات فبعد أن انتهت أمريكا من رصف طريق « كوم بونج » وبعد انتهاء فرنسا من بناء الميناء نفسه وجدت كمبوديا طريقها الخاص الى البحر .

وعندما زار شواين لاى كمبوديا فى مايو ١٩٦٠ حضر هناك حفل افتتاح محطة اذاعة « ستنج مينشاى » ومصنع نسيج « كوم بونج شام » اللذين بنيا بمساعدة الصين الشعبية على الرغم من كل العقبات التى وضعها الامبرياليون وعملاؤهم من الكمبوديين .

ان « الاشتراكية الملكية » — كما يسميها سيهانوك — قد لا تحقق المعجزات ولكن المؤكد أن كمبوديا قد تمكنت بفضل حيادها من أن تخطو عدة خطوات هامة فى طريق التنمية الاقتصادية لم تستطع البلدان التى وضعت نفسها تحت وطأة السيطرة المطلقة « للعالم الحر » أن تخطوها .

ومع مضى أيام عام ١٩٦٠ تزايدت دلائل صراع جديد حول استقلال كمبوديا .

وقد أكدت سلسلة المقالات الصحفية التى كتبها سيهانوك ــ وخاصة « رسالته المفتوحة الى الدوائر الامبريالية » التى نشرت فى مايو ــ أكدت تصميم كمبوديا على التمسك بحيادها وازدياد هذا التمسك ازاء ما يجرى فى كوريا الجنوبية وتركيا واليابان من أحداث . وحينما احتج السفير الأمريكى احتجاجا شديدا على هذه المقالة كان رد سيهانوك عليه شديد الجفاف ..

وبدأت مقالات من نوع جديد تظهر فى الصحف الكمبودية .. مقالات تقول « ان الامبرياليين لم يستفيدوا من دروس هزيمتهم فى كمبوديا » و « اذا ضغط الامبرياليون على كمبوديا بشدة فاننا سوف نصبح شيوعيين » .. وأيا كان التفسير الذى يمكن أن يقدم لمثل هذه المقالات الا أنها تعكس بلا شك وحدة الشعب الكمبودى الذى لم يسبق لها مثيل حول تأييد سياسة سيهانوك .. وقد تأكد ذلك تأكيدا قاطعا بذلك الاستفتاء الشعبى العام التى جرى حول سياسة الحياد فى ٥ يونيو .

وفى ٤ يونيو كتب سيهانوك فى افتتاحية صحيفة ينك شيت يتيام .. كتب يقول « انه وفقا للمعلومات الموثوق بها التى وصلتنا من صديق لنــا يعيش فى بانجكوك .. ان مجموعات من الخونة قد تلقوا مؤخرا كميات كبيرة من الذخيرة والأسلحة والأموال من دولة امبريالية عظمى .. بهدف شن حرب أهلية فى بلادنا .

ان سنى الصراع الطويلة .. من أجل الحفاظ على استقلال كمبوديا .. لم تنته بعد .

* * *

لقد كان انتصار الضعيف على القوى .. والقضايا العادلة على الظلم .. وجماهير الشعوب على جلاديهـا .. هى الطابع المميز للتاريخ الحديث لدول الهند الصينية الثلاث .

ولقد خط شعب كمبوديا طريقه فى الحفاظ على استقلاله منذ اتفاقيات چنيف .. طريق البطولة والكفاح الشجاع الذكى ضد القهر الامبريالى .. لقد كان نضال الشعب للحفاظ على سياسته المحايدة امتدادا طبيعيا لنضاله المسلح من أجل انتزاع الاستقلال من أيدى الاستعمار الفرنسى . وفى خضم هذا العالم الذى مزقته الحرب الباردة يشق شعب كمبوديا طريقه قدما للحفاظ على حياده الذى قررته اتفاقيات چنيف . لقد عبر شعب كمبوديا عن تصميمه على أن يلعب دور « المعبر » بين الكتلتين .. بين العالم القديم عالم الامبريالية .. والعالم الجديد عالم الاشتراكية .

وكانت هناك عقبات كثيرة تعوق نجاح مثل هذه السياسة .. فكمبوديا من الناحية الجغرافية محصورة بين بلدان تسيطر عليها العسكرية الأمريكية .. ڤيتنام الجنوبية .. تايلاند .. لاوس .. ويشكل ذلك خطرا شديدا عليها .. ومن الناحية العسكرية فان كمبوديا لا تملك سوى جيش حقير العتاد .. من ٣٠٫٠٠٠ جندى فقط فى مواجهة قوات عسكرية متحالفة لڤيتنام الجنوبية ولاوس وتايلاند لا يقل عددها عن ربع مليون جندى .. ومن الناحية الاقتصادية فهى بعد أن ظل الاستعمار الفرنسى يحكمها قرنا بأسره لا تمتلك أية صناعة على الاطلاق .. ومن الناحية السياسية فان بقايا النظام الاقطاعى ذات النفوذ المنتشر فى كل مكان كانت تخلق هى وتلك العناصر المعادية للوطن التى ينتجها باستمرار تدفق الدولارات الأمريكية على البلاد .. كانت تخلق العقبات أمام وحدة قوى الشعب ولكن شعب كمبوديا مستعينا بفهمه لطبيعة المعسكر الاشتراكى ومستعينا بالمساعدات التى قدمها له هذا المعسكر ..

ومستعينا باستخدامه الماهر التناقضات بين الامبرياليين أنفسهم تمكن من الحفاظ على استقلاله وحياده .

وحتى لو أطيح غدا بحياد كمبوديا .. فان تاريخ السنوات القليلة الماضية سوف يظل باستمرار رمزا رائعا لروح شعب كمبوديا .. رمزا لبطولة وانسانية هذا الشعب .. تماما مثلما كانت الأعمال الهندسية الرائعة فى « انجكورواث » رمزا لتقدم وانسانية شعب كمبوديا فى الماضى .

أما دلاس ــ الذى قال مستر ايدن عنه أنه يقوم بدور ــ « الواعظ فى السياسة الدولية فانه يعتبر أن سياسة « الحياد » سياسة « غير أخلاقية » .. ان دلاس يرى أنه اذا كان على الولايات المتحدة أن تحقق رسالتها المقدسة فى السيطرة على العالم أجمع عن طريق تحطيم النظم الاشتراكية .. فانه من الواضح بشكل جلى أن تعمل أمريكا على أن تخضع لنفوذها أولا وقبل كل شىء البلدان التى لا تنضم الى أى من المعسكرين .

وأوضح من ذلك أن تعمل على أن تخضع أصغر وأضعف هذه البلدان .

ان مثال كمبوديا ــ ذلك البلد الصغير .. والضعيف ليوضح لكل العالم مدى فشل الاستراتيجية الأمريكية .. هذه هى خبرة نضال كمبوديا فى نظر أمريكا .. وهذه هى خبرة كمبوديا من وجهة نظر الأصدقاء الشرفاء لشعب كمبوديا .. والراغبين فى حل جميع المشاكل الدولية بالوسائل السلمية .

وفى مجال السياسة يحدث كثيرا أن توصف أشياء بأنها جديدة .. ولكنها فى الواقع ليست كذلك .. ولكن مثال كمبوديا يمثل فى الوقت الحاضر .. مثالا لظاهرة جديدة بالفعل .

انهـا ظاهرة تعبر عن امكانية بقاء حكومات بلدان صغيرة غير اشتراكية مستقلة سياسـيا عن النفوذ الامبريالى .. فى ظل توازن القوى فى عالم اليوم .. بامكانها أن تحقق ذلك اذا عملت حكوماتها على أن تظل وثيقة الصلة بشعوبها .. وعرفت كيف تستفيد من هذه القوى الهائلة المعادية للامبريالية والتى تكمن فى المعسكر الاشتراكى ذلك المعسكر الذى قدم لضمان سلام الهند الصينية امكانيات ومساعدات لا تقدر بثمن .

خاتمة

ان مركز الثقل فى جنوب شرقى آسيا الآن هو الصين الشعبية هذه حقيقة تنبع من الوقائع الموضوعية ..

وهذه حقيقة يعترف بها أصدقاء الصين وأعداؤها ..

ولا شك فى أن ذلك العالم الصغير الذى كان يوما ما يسمى بالهند الصينية الفرنسية يقع هو الآخر فى مجال تأثير قوة الجذب العظيمة هذه .

ولكنه .. وبشكل نسبى يوجد فى داخله مركز جذب خاص به هذا المركز هو الڤيتنام ..

لقد ظل شمال الڤيتنام مصدرا للطاقة البشرية فى كل شبه الجزيرة ليس فى أيامنا هذه فحسب ولا حتى طوال مرحلة الاستعمار .. ولكن أيضا منذ آماد بعيدة تمتد حتى العصور الوسطى .

وقد ظل المستعمرون الفرنسيون يرددون باستمرار « من استولى على تونكين استولى على كل الهند الصينية .. ومن فقدها فقد الهند الصينية كلها » .

وحينما شن المستعمرون حربهم لاعادة احتلال الهند الصينية .. كانوا يواجهون مقاومة مسلحة من شعوب شبه الجزيرة الثلاثة .. ولكنهم ركزوا ما يقرب من ٨٠٪ من مجموع قواتهم فى شمال الڤيتنام .

ان تأثير شمال الڤيتنام على كل شبه الجزيرة تعبر عنه جغرافيتها السياسية والاقتصادية ويتضح أيضا من الجهود التى

يبذلها الامبرياليون منذ عقد اتفاقيات جنيف ١٩٥٤ .. جهودهم التى ترمى الى قهر مركز الثقل الحقيقى فى الهند الصينية .. الذى يتبع سياسة لا تعجبهم مطلقا .. واستبداله بمركز ثقل آخر يعجبهم .. وهو يتضح أيضا من بروتوكول حلف جنوب شرقى آسيا الذى ينص على وضع كمبوديا .. وفيتنام الجنوبية .. ولاوس تحت حماية الحلف .. ولكن ضد من ؟ .

والشىء الذى يثير أشد الغضب فى نفوس الامبرياليين هو أن تلك السيطرة التى كانت تفرضها الصين وشمال الفيتنام .. فى العصور القديمة على كل جنوب شرقى آسيا .. وعلى الهند الصينية .. قد وجدت لها تعبيرا جديدا .. أسلوبا جديدا فى الجذب .. عن طريق اتباع هاتين البلدين لأنظمة سياسية أكثر تقدما .

والهدف الرئيسى « لمراكز الجذب » الزائفة التى أقامها المستعمرون هو شن الحرب .. الحرب ضد الفيتنام .. فى الهند الصينية .. والحرب الصينية فى الشرق الأقصى .

ان تحلل السياسة الامبريالية يبدو واضحا الآن فى كل من كوريا واليابان .. ان الصين كلها قد تحررت .. ولم يبق فى أيديهم الا تايوان التى يحكمها شانج كاى شيك الذى لا يساوى شيئا .

ان كل تاريخ السنوات الست الأخيرة يؤكد الفشل التام الذى منيت به السياسة الامبريالية الرامية الى اصطناع « مراكز جذب » فى هذه المنطقة أيضا .

لقد كانت السنوات الست الماضية .. بالنسبة لرجال الدولة الأمريكيين ــ كانت سنوات من العمل لتأسيس جيوش جديدة مسلحة بالأسلحة الثقيلة فى كل من كمبوديا وجنوب الفيتنام

ولاوس .. والعمل على توحيد هذه الجيوش .. لكى تعمل متعاونة مع حلف جنوب شرقى آسيا .. وتصبح قادرة على أن تتحرك فى اللحظة المناسبة .. لتتخلص من قيود اتفاقيات چنيف .. وتنضم رسميا الى حلف جنوب شرقى آسيا .. ثم تندفع بكل قوة .. الى الأمام بكل أسلحتها .. نحو جمهورية ڤيتنام الديمقراطية ..

ولقد أعدت جنوب الڤيتنام بسكانها الأربعة عشر مليونا لتكون مركزا « لجذب » الأنظمة السياسية الصديقة والصغيرة الأخرى لاوس وكمبوديا ..

ولكن الى أين اتجهت الأحداث ؟ .

لقد تمسكت كمبوديا تماما بحيادها .. وتناضل لاوس نضالا جبارا لتصون هى الأخرى حيادها ويصبح جنوب الڤيتنام .. الذى يمزقه الصراع فى داخله .. يصبح أبعد ما يكون عن صلاحيته « كمركز للجذب » .

فان «مركز الجذب » الحقيقى النابع من النضال البطولى للشعب قد بدأ يتغلب رويدا رويدا على ذلك المركز المصطنع والمستورد من الخارج .

ولسوف تمضى الأحداث باستمرار فى هذا الاتجاه ..

ان مجرى الأحداث فى تاريخ البلدان الثلاثة الحديث ليؤكد باستمرار مدى صحة وحيوية اتفاقيات چنيف .

ان هذه الاتفاقيات التى انتزعت من بين أنياب المعارضة الأمريكية لها .. قد عبرت تعبيرا صادقا عن توازن القوى فى الهند الصينية .. وفى العالم .

ولأنها تستهدف الحق .. والسلام كان لابد لها من أن تجلب

لنفسها عداء هؤلاء الذين يتبنون نظرية خاطئة عن حقيقة القوى فى الهند الصينية وفى العالم .

ولأنها تستهدف الحق والسلام فقد ظلت اتفاقيات چنيف تنمو وتزدهر رغم كل جهود أعدائها .. للقضاء عليها .. لقد كانت لديها من القوة ما مكنها من النمو والبقاء فى وجه هذه المقاومة العنيفة من جانب حلف جنوب شرقى آسيا ..

ان كاتب هذه السطور .. يعتقد اعتقادا جازما .. بعد أن عمل عامين فى هذه المنطقة من العالم .. ان **الحل الوحيد** لمشكلات الهند الصينية .. الحل الذى يتمشى مع مصالح شعوب الڤيتنام ولاوس وكمبوديا .. هو التطبيق الدقيق لهذه الاتفاقيات .

ان نتائج اتفاقيات چنيف التى عقدت فى ١٩٥٤ تعتبر بالنسبة لمؤرخى المستقبل ــ واحدة من أعظم الانتصارات التى أحرزتها القوى العالمية المحبة للسلام بعد الحرب .. ولسوف تظل هذه الاتفاقيات باستمرار رمزا لتمكن الانسانية من أن تحرز انتصارات عظيمة .. حتى فى خمسينيات القرن العشرين المليئة بالعذاب ..

وقد أثبتت أحداث السنوات الست التى تلت توقيع الاتفاقيات بغض النظر عن هذا العداء المستحكم الذى شنته أمريكا ضدها .. وبغض النظر عن هذا الغدر « المغلف بالرقة » الذى مارسته ضدها بريطانيا التى ساهمت فى رئاسة المؤتمر نفسه .. أثبتت هذه الأحداث أن نصر چنيف لم يكن من السهل القضاء عليه ..

ان الشعوب الثلاثة لهذه البلاد العريقة .. ڤيتنام .. لاوس .. كمبوديا .. تناضل ببسالة من أجل تطبيق اتفاقيات چنيف كاستقرار لنضالها البطولى الطويل من أجل الاستقلال الوطنى ..

ومعهم يناضل كل محب للسلام .. والاستقلال .. والحرية للشعوب .

فهرس

صفحة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
القاهرة – ١٩٦٨